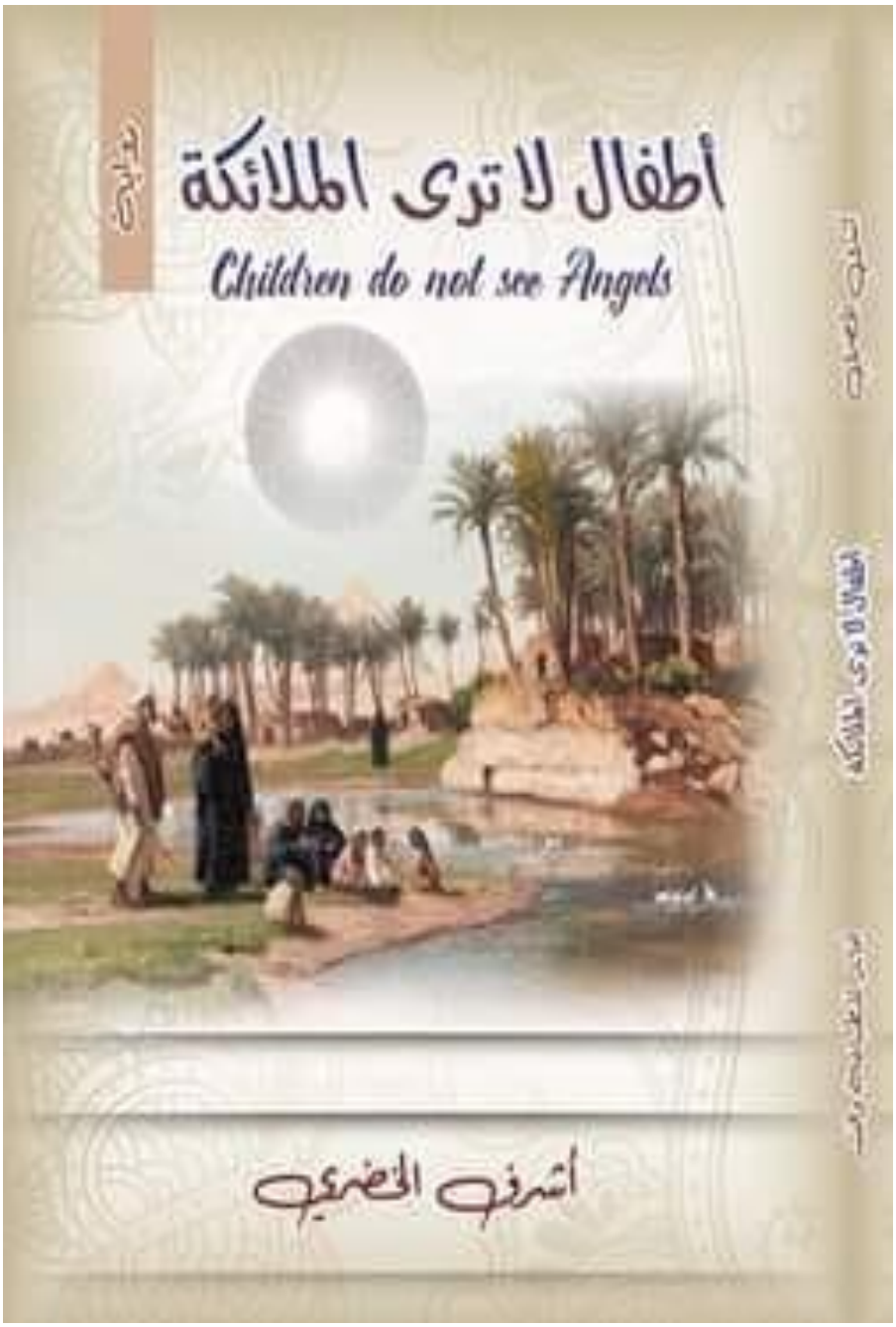
رواية
أطفال لا ترى الملائكة
Children do not see Angels
أشرف الضعيف

أَطْفَالٌ لَا تَرَى الْمَلَائِكَةَ

AVATAR

أفاتار للطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة /دكتورة زينب أبو سنة .

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

لوحة الغلاف – الفنان العالمي جورج ماركو

رقم الإيداع ١٠١٣٦/٢٠٢٠

ISBN:978-977-6756-65-6

نسخة منقحة منقوصة

الإهداء

إلى روح أبي وأمي.

إلى الشاعرة الكبيرة دكتورة زينب أبو سنة.

إلى الأديبة غادة صلاح الدين.

إلى الناقدة الدكتورة بدرة شريط.

إلى المبدع الكبير ياسر أنور.

إلى الكاتب الصحفي خالد عبد الرحيم هاشم.

مِنَ النادرِ جداً فِي هذا العَالمِ القَبيحِ أنْ

تَلتَقِيَ إنْسَاناً يُؤمِنُ بِكَ حَتَّى نِهَايةِ الرِحْلَة.

خُرافةٌ كبيرةٌ أنْ يُحَاولَ الإنسانُ فَهْمَ اللهِ.

حسناء وعذراء

نَامُوا جميعاً في مقاعدهم وبقيتُ مستيقظاً لا أرفعُ عينيَّ عن السائق ولا أتوقفُ عن الكلام خوفاً أن ينامَ على عجلة القيادة ويقتلنا نحنُ العشرة في ِسنةٍ من النوم.

السيارة موديل العام ١٩٩٢، مقاعدها جديدة لم يُفضْ النايلُونْ مِنْ عليها بعد، تعجبتُ ما الذي يجبر هذا السائق على استخدام سيارة جديدة كوسيلة نقل صيادين هواة إلى قرية نائية، عندما رأيت شغفه بصيد سمك البلطي من مصارف صغيرة تنتشر في أراضي البطيخ الشاسعة ، وجدتُ إجابة عن سؤالي.

انطلقنا قُبيل الفجر، سمعنا الآذان في طريقنا من المساجد المنتشرة على يمين الطريق من دمياط إلى قرية الركابية، قال أحد الصيادين: نريدُ أنْ نُدركَ الصلاة، قال السائق بحزم: سنصلي في مدينة جمصة إن شاء الله.

خرجنا من المسجد الصغير وواصلنا الرحلة، النهارُ بدأ يتشكلُ كضوءٍ أبيضَ يُرافقُ الندى الرطبَ ويتسللُ بنعومةٍ إلى صدور الكائنات فينعشها ويملأها بالأمل قبل أنْ تغرسَ الشمسُ قدميها في نهر الحياة الدافق.

تَوقَّفَ الميكروباص، قال مهران السائق: حمداً لله على السلامة، بدأ الهواةُ يستيقظون وينتبهون من نومهم ، كأنهم حزانى لا ينامون في البيوت.

سألتُ أين سنصطادُ؟!

أشار مهران إلى مصرفٍ طويلٍ يبدأُ مع انحدار الأرض وينخفضُ كمهبط كوبري، نزلَ البعضُ إلى المصرف أما الهواةُ العجائزُ الخبراءُ فقاموا بتغفيلنا وتسللوا إلى مصرفٍ آخر لم نعرف أين هو ولا هم.

مضتْ الدقائقُ، صديقي ياسر بجانبي، أقلده في تصرفاته فهو خبيرُ صيد وأنا مستجدٌ.

الشمسُ أشرقت، بدأتْ الأسماكُ تُناوشُ الطُعومَ في السنانير، نتحرك مترين وعندما تكثر الأسماك الصغيرة نتحرك للبحث عن سمك أكبر.

المصرفُ لم يكن عميقاً، ألقيتُ الطُعمَ، طَفتْ الغمازةُ على سطح الماء!

استغربت، سألت ياسر لماذا تنام غمازتي على بطنها؟! قال: عُمقَ المصرف أقلُّ من طول المسافة بين قطعة الرصاص والغمازة، قلل العمق شبرا أو شبرين.

رائحةُ روث الجواميس المكدس أكواماً في كل مكان عبر الأرض الشاسعة المزروعة بثمار البطيخ تخنقنا، كلما ارتفعت الشمسُ أكثر انتشر الذبابُ وطاردنا حيثما نسير. مصنع سكر بلقاس يبدو هائلاً وضخماً رغم المسافة الطويلة بيننا وبينه وجرارات البنجر تمر على الطريق الرئيسي باتجاهه. سألت ياسر: كل هذه الثمار من اللفت إلى أين؟ قال ضاحكاً: هذه ثمار بنجر تتوجه إلى مصنع سكر بلقاس، ذلك المبنى الكبير الأزرق هناك في البعيد حيث يتم تحويل الثمار إلى سكر مطحون ومكعبات .

رغم وفرة الأسماك أزعجنا الذباب، عندما انقطع النسيمُ خرجت علينا أسرابُ البعوض من مكامنها في أكوام الروث، لم نكن نملك الخبرة للتعامل مع أسراب البعوض والذباب، نرتدي قبعات لحمايتنا من الشمس، مع كل جمبرياية صغيرة نغرسها في السنارة ونلقي رأسها على الأرض ينهمر الذبابُ على أيدينا وعلى الرؤوس المقطعة.

البعوضُ أوشك أن يغطي وجوهنا أما الذباب فكان يتعمد محاولة الدخول في الفم والأنف، وعندما تندفع ذبابةٌ وتجربُ الدخول عبر

تجويف الأذن أو فتحة الأنف تُصيبنا صدمةٌ مفاجئةٌ فنرمي البوصة من يدنا ونسرع لمنع الذبابة من النفاذ إلى داخل أدمغتنا.

- هذه رحلة عذاب وليست رحلة صيد.

قال ياسر: الشمسُ والجوُ الدافئ حررا البعوض والذباب، كنا هنا نهايات الشتاء في مارس وأبريل ولم نر هذه الأسراب المتوحشة.

سألته وما العمل ؟!

هو أكبر مني بعامين، في الثانية والعشرين، ابن عمتي الكبرى، من كثرة حديثه عن روعة الصيد وسمك وبطيخ قلابشو، صَمَّمْتُ أن أجيء معهم، يقفُ الميكروباص أمام مقهى كركر عند مطلع الكوبري العلوي في منتصف المدينة، عندما تتم الحمولة ينطلق للحصول على الطعم من السوق الكبير .

(جمبري أبو سبعة) طعمنا الأساسي يسميه الصيادون ديلب، بعد الحصول على الطُعمِ ننطلقُ كي ندرك الضوء الأول للنهار على مصارف الصيد، يقرأ الجميعُ الفاتحة، وتبدأ الأساطير والحكايات والأكاذيب التي تبُهج القلب، وتنتهي بالنعاس والسيارةُ تنطلقُ بنا في الطرف الأخير من الخيط الأسود.

كنا نغسل أيدينا باستمرار من ماء المصرف في محاولة بائسة لصرف الذباب عن أيدينا، ونَهُشُّ بيدنا اليسرى ونتحرك بشكل دائم،

فإذا خرجت نسمة هواء قوية تحسنت الأوضاع، وإذا سيطرت الشمس بدفئها عادت أفواه الذباب تلسعنا كالإبر!

جيشٌ ضعيفٌ تهزمه نسماتٌ طفيفة، كشف ضعفنا كبشر، قلت لياسر: لو هاجمتنا هذه الأسراب من البعوض كما يفعل النحلُ القاتل، من السهل أن ْنموت هنا.

قال متهكماً : ليس في ابن آدم غير اللسان. في العام الماضي رأيت بعوضة مرقطة كالأفعى، كانت أطول من عقلة أصبع، وقفت على يدي اليمنى وأنا أصارع قرموط، ابتلع سنارتي وجذبني بقوة من ضفة المصرف للماء، وكي لا تنكسر البوصة تقدمت للأمام وخضتُ في ماء المصرف بقدمي كي أحافظ على مسافة مرنة بيننا تمنعُ القرموط من قطع الخيط أو كسر البوصة. البعوضة الرقطاء ظلت تراقبني، اختارت اللحظة المناسبة لمهاجمتي، يدي اليمنى تستميتُ على مؤخرة البوصة، واليسرى تسندها لأقاوم قوة القرموط الذي توهمت أنه تمساح يجرني للماء، وقفت على يدي، نظرت إليها وتشاءمت، عشر ثوان ليس أكثر، غرست مثقابها الرفيع في ظهر يدي، تدفَّق سُمُّها فشعرت بلسعة مؤلمة، صرختُ : آه.

أفلتُّ يدي اليسرى وضربت بها يدي اليمني فقتلت البعوضة الرقطاء، وانشغلت بقرموطي الكبير. قاومني لعشر دقائق، ثم انقلب على ظهره طافياً على سطح الماء، جررته للحافة وأمسكته، انزلق من بين أصابعي مرتين، ركلته بقدمي حتى تمرغ في التراب

وتمكنت من إدخال أصابعي في خياشيمه، قبضت عليه بقوة ثم أعدته إلى الماء. غسلته من التراب جيداً ثم وضعته في شكارة من الخيش، نبللها ثم نضع الأسماك فيها فتحفظها لساعات.

- أنا لا آكل القراميط ، لم تدخل بيتنا، لا نحبها.

- القراميط البيضاء عزيزة يا كامل، لكن فرحتي بالقرموط لم تكتمل، بعد نصف ساعة كانت يدي بحجم رغيف صغير.

- تورمت؟

- نعم وأخذت أدوية ومضادات حيوية وحقناً لأكثر من شهر، الطبيب أكد لي أنَّ عُمْراً جديداً وهبه الله لي.

- بعوضةٌ تفعل كل ذلك؟

- البعوضة يمكنها قتل إنسان في حالات كثيرة يا كامل.

انشغلت بالصيد لكنَّ بهجتي غابت وحلت الرهبة مكانها، وكلما طَنَّتْ بعوضةٌ بالقرب مني فزعتُ وخلعَ الرعبُ قلبي، وأنا مستغرقٌ في هشِّ البعوض والذباب، رأيت شبحين يرتديان السواد عبرا على جسر من التراب من أرض الخيار إلى أرض البطيخ، كانت المسافة بيننا قرابة مائة متر أو أكثر، الشبحان هبطا الماء، أحدهما أطول من الآخر، كانا يركعان ويبحثان في ضفة المصرف بأيديهم، وبين الحين والحين يبدو أنهما يمسكان شيئاً ويسقطانه في عِبِّهما.

قال ياسر: هاتان امرأتان تجمسان ؟!

قلت: ماذا؟! قال: تصيدان سمك البلطي بالأيدي من داخل جحوره في الطين!

قلت: هذه مهارة فائقة جدا؟!

قال: أكل عيشهما، زراعة البطيخ لا تحتاج عمالة كبيرة لفترة، فيصطادان لأجل الأكل والبيع أيضا .

بدأ تركيزي مع بوصتي يقل واهتمامي بالمرأتين يزداد، لاحظ ياسر ذلك فنبهني: كن في حالك!

بدأ يتحرك كالعادة وصرت أتلكأ، لم يكن مرتاحاً لمكوثي وعدم اتباعي له.

المرأتان تتحركان في الماء الضحل في حالة ركوع مستمر ولا ترفعان قامتيهما، قلت لنفسي: لو كنت مكانهما لفقدت الوعي، اقتربتا حتى استطعت رؤية أسماك البلطي الصغيرة تنتفض بين الأصابع القوية القابضة كالموت على الحياة، بدأت أنتبه أنَّ ثمة نوراً يفيضُ من وجه المرأة الطويلة، لم يكن نوراً كان بياضاً منيراً، الآن أصبحتا بجواري، خَرجتْ المرأةُ القصيرةُ من الماء قبل أن تبلغني بعدة أمتار، ومرت من جانبي وقالت: العوافُ عليك !

قلتُ: الله يعافيك، ثم توجهتُ بكل كياني تجاه المرأة الأطول، كانت ملثمة لا يظهرُ من وجهها إلا جبينها وعينيها، حوراءَ تكادُ رموشُ جفنيها تَطالُ الحاجبين، انخلع قلبي وانقبض بداخلي شيءٌ تحت الحجاب الحاجز وتوترتُ بشدة، سقطتْ البوصةُ من يدي، نظرتْ في عينيَّ وكأنها فرحت بانبهاري بحسنها وأحسستُ أنها تضحكُ تحت اللثام وقالت : العوافُ عليك !

قلتُ: العوافُ يا قمر .

كان صوتها شجياً فيه بحةٌ محفزةٌ للغرام، شعرتُ أنني أسبحُ في أمواج صوتها العذب، تمنيتُ لو أنني صرتُ سمكةَ بلطي حية تنتفضُ في عِبِّها الآن على بشرة بطنها الناعمة، تهشَّمَ السكونُ فجأةً كزجاج واجهة محلٍ صدمته سيارةٌ.

جاء صوتٌ محزونٌ من ظهري بكلمةٍ لم أسمعها جيدا، أحسستُ أنها كلمةٌ تُقالُ للبهائم والحمير في الغيط،عندما تَحرُنْ.

لم أرفع عيني عن الحسناء وهي تمر بجواري، جلبابها الطويل المبتل الأسود عجز عن إخفاء جمالها عني، كانت ناهدة، خصرها دقيقٌ وحوضها كحبةِ كُمِّثرى، أمسكتْ الجلباب بيديها من الجانبين ورفعته قليلا كاد البياضُ يُضيءُ.

ذُهلتْ حواسي عن الإحساس بالوجود والأشياء، لم أسمع صفافير ياسر ولا صوت المرأة القصيرة بالكلمة التي سمعتها بصعوبة

(ابتعد عنا) لم أرتدع وتتبعتُ الحسناء، نسيتُ بُوصتي وأسماكي وعدة صيدي وَسِرتُ خلفها، جاءت قذيفةٌ طينيةٌ من يدِ المرأة القصيرة وأصابتْ قلبي مباشرةً وأفسَدتْ قميصي الأبيض الذى يعكسُ عني ضوء الشمس.

ارتَبكتْ الحسناءُ ونزَلتْ الماءَ وهي تضحكُ كأنَّ فراشاتٍ من اللؤلؤ تتناثرُ من شفتيها وتتطايرُ من مسام اللثام من ثقوب الإبر بين الخيوط، المرأةُ القصيرة كانت تهددني بقذيفة أخرى، أردتُ تخفيف التوتر اقتربتُ من الضفة، جلبتُ بيدي حفنات ماء متتالية ونظفتُ القميص، ثم انهمكتُ في الغناء (صحيح الهوى غلاب) القصيرة بيني وبين الحسناء، لا أنا أتوقف عن الغناء ولا الجميلة تنزع عينيها من عينيَّ، ولا توقفت القصيرةُ عن تهديدي بالقذائف، سارتا فتبعتهما، أوقفني ياسر ونهرني ونبَّهني أن هذه المغامرة من الممكن أن تكلفني حياتي وتسبب لنا مشاكل كبيرة، لكن لم أهتم لكلماته تجاوزته وأنا أقول له : لا تخف! انحرف المصرف بعد مسافة من السير واتخذ شكل رقم ستة العربي معكوساً، كنا نمضى باتجاه الغرب فصرنا نمشي باتجاه الجنوب، الشمس القاسية ضربت رأسي بصُداعٍ مؤلم، وتصببتُ عرقاً، واتبعتُ غوايةَ نفسي.

المرأتان تنزلان الماء وتجمسان، لا شيء يعطلهما عن عملهما، وأنا لا أتوقف عن الغناء والمرأة الجميلة تذوب في حلاوة الصوت والأداء. المرأة القصيرة أشبهت قرص شمع عسل قديم سَاحَ من

حرارة الشمس، أخذتْ تنظرُ لي برقةٍ وتسبحُ في تنهدات صوتي وحركات صدري وأنا أنشجُ وأغني وأتنهدُ.

توهمتُ ما أحبَّتْهُ نفسي وصدقتُ شيطاني.

توقفت المرأة القصيرة عن صيد البلطي والحسناء تنظر إليها ذاهلةً ولا تفهمُ ما يحدثُ، شَقَّ سكونَ الماءِ صوتٌ رجوليٌ عذبٌ: ارجع ! ارجع يا ابني! لم أعره اهتماماً، قالت لي نفسي: أحدهم ينصحني وهو يَتَغوَّطُ وراء الأحراش، لماذا يشغلُ الناسُ أنفسهم بالآخرين حتى في لحظاتهم الحرجة جداً؟!

عُدتُ بحواسي إلى المرأة القصيرة، وجدتُها انتبهتْ من سَكرَتِهَا وعادت للعمل وواصلتْ السيرَ والحسناءُ تتبعُهَا وأنا أُغني، ظللتُ أتتبعهما ونسيتُ الميكروباص والرفقة، أوهمتُ نفسي أنني يمكنني العودة في أي لحظة، لأنَّ مصنعَ السكر هناك رغم البعد علامةٌ لا تتغيُر ولكنَّ الجهاتِ تغيرتْ.

تتبعتُ المرأتين لمسافةٍ طويلة، متسللاً عبر الغاب والأحراش، تَلفَّتتْ الحسناءُ مراتٍ عديدة وراءها وبدتْ مُتحيرةً لاختفائي المفاجئ، ولأنهما ابتعدتا جداً لأكثر من كيلو متر، أنهكني الزحفُ بين الحشائش على يدي وركبتي كي لا يراني أحدٌ.

صار عِبُّهُمَا ممتلئاً بالأسماك كامرأتين في التاسع، خاضت القصيرةُ في الماء حتى بلغَ صدرها وتبعتها الحسناءُ حتى بلغتا الضفة الثانية

للمصرف وأصبح الماءُ حائلاً بيني وبينهما، سارتا بخطى متسارعة حافيتين، حتى بلغتا كوخاً أشبه بعُشَّةٍ كبيرة، أفرغتا الأسماك في مقطف وأخذته القصيرة وانطلقت به، خلعتُ حذائي ووقفتُ حافياً لبُرهةٍ وقلتُ: يا الله .. الترابُ كرمادٍ يتوهجُ، ارتديتُ حذائي وقلتُ لنفسي: يا لها من مشقة، وقررتُ أنْ أعبُرَ الماءَ بملابسي وحذائي، لكني بقيتُ كامناً لأرى ماذا تفعلُ الحسناء؟

كانت العشةُ مُشيدةً بعناءٍ، دخلتْ المرأةُ العشةَ وبقيتُ مكاني، لاحظتُ أنني بلغتُ أرضاً منخفضةً مُحاطةً بأشجار النَبْقِ كسياجٍ فاصلٍ بين الأراضي، ارتبكتُ من الخوف وقلتُ : هُنَا يُقتلُ القتيلُ لا يُحسُ به أحدٌ.

أردتُ الانسحاب لكنْ ظللتُ جاثياً أُراقبُ ما يجري من ضفتي من المصرف ولم أتحرك، فكرتُ في خوض الماء لكنَّ خوفي منعني، خرجتْ الحسناءُ من العشة وبيدها جلبابٌ أزرقُ عليه ورودٌ بيضاء كبيرة، اقترَبتْ من الضفة وَعَلَّقتْ الجلبابَ على غُصنٍ طويلٍ مغروسٍ بعنايةٍ في أرض المصرف، نظرتْ في عينيَّ ونزعتْ اللثام، هكذا توهمتُ أنها اخترقتني في مكمني بين الحشائش وقلتُ لنفسي: لا لم ترني .

كانت أجملَ امرأةٍ أبصَرتْهَا عيناي خلال سنواتي العشرين، شهقتُ وقلتُ بصوتٍ مكتومٍ(آه) ما هذا الجمالُ الفاتنُ؟! ضَحِكتْ كأنَّها سمعتني ولم تتكلم ، أربكتني أكثر وتحيرتُ للغاية، رَكَعَتْ بدلالٍ

وأمسكتْ جلبابها الأسود من أسفله ورفعته لأعلى ونزعته حتى أفلتتْ رأسها منه وألقته على الشاطئ، أحسستُ برعشةٍ هائلةٍ تَرُجُّني رَجَاً وتُزلزلُ الأرضَ بي، لم أعرف إلى أي شيء أنظرُ ؟!

التهمتها عيناي، كأنَّ في فمي حبة توت حمراء، نبتت على قرص عجين له بياض سن الفيل، الظلمةُ الصغيرةُ تحت الابطين بدت كعش عصافير، بشرتها بيضاءُ نديةٌ لينةٌ مرنةٌ، نُدبتُها تبدو كحبةِ مشمشٍ وليدةٍ، تنتصفُ طبقاً مُستديراً شديدَ البياض.انهارت قواي، كدتُ أقطعُ شفتي وأنا أعضُّ عليها وهي في ماء المصرف وتدلكُ العاجَ الناعمَ المنحوت، وأنا أتلوى كالعاجز لا أجرؤُ أنْ أنزلَ إليها الماء، فقدتُ السيطرةَ على نفسي، استنزفتُ طاقتي الشحيحة الباقية، كُنتُ ظامئاً جائعاً .الحرُ والزحفُ - على الركبتين لمسافةٍ طويلةٍ - جعلاني هشاً ضعيفاً، هبط الماءُ وهبط ضغطُ دمي، استلقيتُ على ظهري ، كان قرصُ الشمس في عينيَّ ولم يبق في جسدي قطرةُ ماءٍ أخرى أتعرَّقها وأغمضتْ الشمسُ عينيها وسكتتْ العصافيرُ .

فَكرتُ أنْ أخلعَ ملابسي، ترددتُ ثُمَّ تجاسرتُ وكما أنا نزلتُ إليها، ضحكتْ ضحكةً ساخرةً وأخَذتْ جلبابها وخَرجتْ من الماء باتجاه الكوخ، تتبعتُها بإصرارٍ وجُرأةٍ، كانت القصيرة ابتعدت في وهج الشمس ومضت بحماسٍ تجاه عُشةٍ على مرمى البصر.

البابُ مفتوحٌ.. رائحةُ العشةِ كرائحةِ الماعز والسمك المشوي والحشائش المحترقة، ارتدتْ جلبابها ووقفتْ في مواجهتي تضعُ يداً

على وسطها ويداً على غُصنِ شجرةٍ غليظٍ يقومُ كعمودِ خيمةٍ من الأرض لسقف العشة، قالت بغُنجٍ : العَوافُ عليك.

قُلتُ : العوافُ يا قمر، تزوجيني يا جنيةَ النبق وهجمتُ عليها كحيوانٍ مُفترسٍ وهي تستغرقُ في الضحك وتركضُ هرباً مني داخل العشة، وتقولُ لي : بالحلال... لن أطير.

كان في العشة زِئرُ ماءٍ، وسريرٌ منْ أقفاصِ الطماطم - مقلوبة على أفواهها ومصفوفة بجوار بعضها- حولها حرمٌ صغيرٌ من الطين المتيبس، وفوق الأقفاص كومةُ قشٍ أصفر متهدلٍ من أثر النوم والتَّعرُّقِ.

- ما اسمُكِ ؟

- تَيْسِيرٌ .

- وأنتَ ؟

- تلعثمتُ وخشيتُ أنْ أخبرها باسمي الحقيقي كاملاً، تذكرتُ حديثي ليلةَ أمس مع اللواء عدنان عن الجزيرة والجبل والبغل الأبيض والشهداء فارتجلتُ لقباً: كامل شدوان .

حاولتُ الاقتراب منها راوغتني وهي تقولُ : بالحلال يا كامل.

كانت بطول قامتي، وكأنني أرى امرأةً لأول مرة أطول من مائة وسبعين سنتميتر، بدت لي كنخلةٍ قصيرةٍ، لا تحمِلُ شحماً ولا ترهلات، كأنها لوحةٌ مرسومةٌ بمهارة.

أعدت لنا الشاي وجلسنا نتعارف، حكتْ لي حكايتها وزواجها البائس والتعاسة التي تعيشها وحيدةً، والحياة الفقيرة المكسية بالشقاء والعناء والعرق .

سألتُهَا مُستغرباً كيف يُمكنُ أنْ تعيشَ امرأةٌ مثلها بهذا الجمال وهذه الأنوثة حياةً تعيسةً؟ كيف تقبلُ أنْ تظلم شبابها وجمالها وأنوثتها الطاغية بعدما صارت حُرةً؟ .

قلتُ لها وأنا أمسك يديها بين كفيَّ : آلافُ الرجالِ يتمنون تقبيل َقدميك الجميلتين يا تيسير، وقبَّلتُ يديها فوق خطوط الكفين.

شعرتُ أنني أتحدثُ معها بلسانِ كائنٍ آخر يسكنُ صدري، كائنٍ بارعٍ في التلاعُبِ بمشاعري الخفيَّةِ وَتَزْيِين الوقاحات لي، يتحدثُ داخلً رأسي، يعرفُ نِقاطَ ضعفي ورغباتي المشينة كأنه يقرأ من كتابٍ مفتوحٍ في عقلي الباطن، يهمسُ لي بنعومةٍ وإلحاح وَرِقَّةٍ ولطفٍ:

امشْ خُطوةً واحدةً، انظرْ نظرةً واحدةً، قُلْ كلمةً واحدةً، لماذا أنت خائفٌ مرتعشٌ ومترددٌ، جَرِّبْ، جرب، جرب، أنت لن تعيش سوى حياة واحدة.

يا لها من أرملة فاتنة! حَدَّثتُ نفسي ثُمَّ عُدتُ إليها وهي تتَنهَّدُ، شعرتُ بحرارتها ترتفعُ من الإحماءِ وبصدرها يعلو ويهبطُ في عصبيةٍ ظاهرةٍ، ونظرةِ تحدٍ عَكَّرتْ صَفوَ عينيها، عندئذٍ سمعتُ صوتاً قوياً بداخلي

" الثمرةُ طَابَتْ "

أعرفُ في داخلي أنَّني عاجزٌ عنْ فَتحِ بيتٍ، عن الارتباط بها وأخذها معي أو البقاء هنا، واهماً نفسي أنَّها ستتخلصُ من عذابها وتفكر في حياةٍ جديدةٍ معي، أنا أخدعُها وأخدعُ نفسي، العشةُ ضمتنا، والبابُ المغلقُ أطلقني في الحماقة.

تفاحةٌ حمراءُ لامعةٌ تخلعُ القلبَ جعلها خوفي كليمونةٍ حامضةٍ، رغبتي صارت فاترةً ولقائي الأولُ بامرأةٍ بدأ فاشلاً، زاد توتري وكأنَّ الخوفَ نبتَ من تُرابِ العشة.

تَوحَّشَ الظمأُ، التفَ لسانٌ حولَ لسانٍ، هكذا قال أحدُهم ذاتَ مَرَّةٍ : لو أنَّ سيفاً هوى بيننا لا أدري أسالَ دمي أم دمُك؟!.

نبتتْ في أنفي رائحةٌ تقتربُ تُشبهُ رائحةُ البلطي، وضعتْ المرأةُ القصيرةُ يدها على ذقني، في يدها الأخرى شرشرةٌ مَرَّرتهَا أمام عينيَّ وقربتها من عنقي وأمالتْ رأسي للوراء وأنا بين يدي تيسير في سرير القش، نظرتُ في عينيها ونظرتْ لي، كان وجهها مليحاً بدون لثام، أسنانُها لا تبدو كآكلي لحُومِ بَشرٍ، عيناها ضيقتان تنطقان

برغبةٍ وحرمانٍ غريبين، حاولتُ قراءةَ التجاعيدِ على جبهتها وتوهمتُ أنها في الخمسين، رغم رعُبِ اللحظة غمرني حنانٌ غريبٌ، أيقظَ حواسي وحفَّزهَا فصارتْ كلُّ شعرةٍ في جسدي كالخنجر، انحنتْ فوقي واقتربتْ، شعرتُ بالمَنْجَلِ في يدها يَدقُّ وينبضُ قُربَ حلقي كبندول الساعة ، قال صوتٌ بداخلي: جاءتْ لحظةُ الحسابِ.

أكرهُ هذا الكائن، إنَّهُ يلَومُني دائماً وينهرني، يقفُ حائلاً بيني وبين أغلب رغباتي، أشعرُ به مثلَ حمامةٍ بيضاء مرات ثم تستحيلُ غراباً أسودَ مرات ومرات، الحسابُ جاء، قالها وكررها مِراراً في بحرٍ شاسعٍ حبيسٍ في جوفِ ثانيةٍ واحدةٍ من عمر الزمن، انحدرتْ الدموعُ إلى الداخل، وغشيتني رعشةٌ نادمةٌ مكللةٌ بالخيبة والعجز والانهيار، تعلقتُ بكلِّ قوةٍ بيدي الاثنتين بيدها الممسكة بالشرشرة، وأنا أنتفضُ من الهلع ولم أتأكد بعدُ من حدسي هل تقتُلني الآن ؟

خيالاتي يقظةٌ وأنا غائبٌ في معمعةٍ من الهلوسات! سألتُ نفسي هذا حُلمٌ أم عِلمٌ ؟!

أنفاسُها ونظراتُها ورعشةُ يدها، كلُّ ما فيها، رسائلٌ تدخلُ في ظهري مِنْ جِلدها الملتصق بي من الخلف.

سمعتُ صوتاً نابعاً من ظلماتِ نفسي : أتى بها الظمأُ!

تَحطَّمَ جبلُ الندامةِ بداخلي وتَدفَّقَ الدمُ في أطرافي، أحنيتُ رأسي للخلف أكثر مستسلماً لها وأخرجتُ لساني، نظرتُ في عينيها كأنني طعنتُها في صدرها بوتدٍ من نار، قبضتْ تيسير على سلاح المنجل بيدها، ورأيتُ الدم، قالت لها : اتركيه.

سقطَ المنجلُ من يدها و زفرتْ أنفاسَها في أنفاسي، عندئذٍ سمعتُ صوتاً نابعاً من ظُلماتِ نفسي : أنتظركُ مُنذُ زَمنٍ قديم !

إنَّهُ يَراكَ! إنَّهُ يَراكَ، كان مُلِحَّاً ومتكرراً وراسخاً بداخلي كانهمار شلال، لكنني سددتُ مسامعي، لا مكان للتراجع الآن !

انهمكنا حتى تغيبنا عن الإحساس بالعالم، كانت تستحلبُ ورقةَ نَعناعٍ خضراء، المذاقُ والرائحةُ كانا قويين.

جذبتني من يدي فطاوعتُها وهوينا معا إلى الأرض، قلتُ لنفسي هكذا سَأتَمزَّقُ بينهما، تعانقنا، شعرتُ أنَّ ضلوعَها تَكسَّرتْ كأعوادِ الغابِ الأصفر الجاف، غشيتني لهفةٌ غريبةٌ وَاستمْرَأتُ حلاوةَ الرحيق، أحسستُ أنني وجدتُ مشاعري المفقودة، كلُّ ذرةٍ في كياني تندمجُ وتنشطُر، تدفقتْ في قلبي الأحاسيسُ النابضةُ، شعرتُ بالبهجة كحباتِ ندى وعسلٍ تتقاطرُ في فمي لحظةَ ظمأٍ.

شَعرتُ أنني حبةُ قمحٍ تنطحنُ في الرُحى بينهما، ارتفع الإيقاع أكثر وبدا المشهدُ كغزالٍ ناطحٍ بين ذئبتين، والوقتُ يمضي، وأنا بين سكرة الهذيان واليقين أتقلبُ بين جمرتين، شربتُ لبناً دافئاً من

ضرع عنزة، وأكلتُ بطيخاً أحمر كالشهد أسخنتهُ حرارةُ الشمس وتكسير حبوبه السوداء بين أضراسي متعة، لم يخطر ببالي أنَّ هذا ممكن الحدوث، عبر كل دقيقة تتمددُ وأحياها مثل شهر كنتُ أقولُ لنفسي : أنا أحلمُ بلا شك!

أحدثتُ زلزالاً صغيراً في قعر فنجان فخار، غَرَسَتْ أسنانها في صدري فعويتُ من أثرِ العضة كذئبٍ جريح.

الفزعُ خَلعَ قلبي عندما أعْتَمَ جسدٌ ما، الثقوبَ المضيئةَ عبر جسدِ الباب، شعرتُ أنَّ عروقي امتلأت بالتراب، رأسُها تهاوى ببطءٍ مَسَحَ على صدري ومرَّ على بطني وحجري واستَقرَّ، رأيتُ المنجل يلمعُ في نُورِ الشمسِ كالموتِ لا ريبَ فيه، بعدما دفعَ البابَ دفعاتٍ متتالية، وهو يَسُبَّهُمَا بألفاظٍ غَريبةٍ، كان قصيراً وَبَشْرَتُهُ كالفَحْمِ، البياضُ في عينيه بدا لي كحلقتين للفناء ، انتصبت المرأتان وكل منهما أمسكتْ شرشرةً في يدها، دخلوا في معركة شتائم وتهديدٍ بالتلويح بالسلاح، تراجعتُ للخلف وأنا أرتعشُ، ارتديتُ ثيابي ، شباكٌ وحيدٌ يُدخلُ الضوء إلى العشة فوق السرير القش، المرأتان شكلتا درعاً مسلحاً لحمايتي، وبدأ التلاحمُ وتَدفَّقَ الدمُ، والصراخُ يعوي كذئابٍ جريحةٍ ، اتخذتُ القرار، جريتُ ناحيةَ الشُبَّاكِ، قفزتُ و ركضتُ ... رعشةٌ قويةٌ تُفقدُني القدرةَ على إدراك الجهات، ركضتُ وركضتُ ، عبرتُ أراضي البطيخ ثم خضتُ في المستنقعات القديمة، سقطتُ وانتصبتُ، غَلَبنِي خوفي فمنعني من

النظر ورائي، أصبحتُ بعيداً جداً عن موقع الكوخ، قالت لي نفسي : أين المفرُ ؟!

شاهدتُ أول سيارة تَمْرُقُ مُسرِعةً، أدركتُ أنَّ الطريقَ الرئيسي أصبح قريباً ، جريتُ بسرعةٍ وعزيمةٍ أكبر، صدمني وجودُ مصرفٍ واسعٍ يَفصِلُ بيني وبين الأرض المجاورة للأسفلت، نظرتُ يميناً ويساراً لم تُبْدْ للمصرف نهايةٌ ، لا تظهرُ أرضٌ ولا أشجارٌ ولا حشائشُ، إنهُ يَمتدُ في ضبابٍ عميقٍ، قفزتُ في الماء، توهمتُ أنَّ يداً سوداء تلمسُ عنقي، التفتُ فلم أجد أحداً بقربي، حاولتُ السباحة فلم أفلح، خارتْ عزيمتي واستسلمتُ لمصيري المحتوم، أرخيتُ جسدي، وأغمضتُ عينيَّ وأفْلَتَتْ دمعتان وغمرني الندمُ، لم أسمع حساً.

نُورٌ وَضبابٌ ونَدى، سقطتُ بين اليقظة والإغماء، شعرتُ أنني أطفو، لاحظتُ أنني أقفُ على قدميَّ والماءَ لا يصلُ لصدري، أفقتُ من سَكرةِ استدعاء فكرة الرحيل، خُضتُ في الماء ببسالةٍ وعبرتُ المصرف الواسع وركضتُ باتجاه الطريق، لا تلمسُ قدماي الأرضَ، كأنني على ظهرِ حَمامةٍ، كنتُ أركضُ في الصهد النابض على جبين الأرض القاحلة، مَرَّتْ أولُ سيارةٍ فزادَ السائقُ من سرعته عندما رآني، وكاد يدهسُني، قلتُ لنفسي: لابد أنَّ منظري شنيعٌ .

سيارةٌ تِلوَ الأخرى تخشى انتشالي من الصحراء المتوهجة بحرارة الشمس، وأنا أتلفَّتُ في كلِّ اتجاهٍ خوفاً أنْ يلحقَ بي الرجلُ الأسودُ .الرعبُ يَستحيلُ إلى سربٍ من النمل الأسود الكبير ويلتهمني بسرعة، غلبني اليأسُ فجثوتُ على رُكبتيَّ، ووضعتُ رأسي بين يديَّ، سمعتُ صوتَ مُحركٍ يُعاني كصدري المضطرب، وهلوستي المتدفقة، كان جراراً زراعياً يَجرُّ عَربةً مُحَمَّلةً بالبطيخ، قال السائقُ: أنتَ من أين ؟ وماذا تفعلُ هنا ؟

قلتُ: ضللتُ الطريقَ وأضعتُ أصدقائي وزملاء الصيد ومشيتُ في المستنقعات والوحلِ حتى وجدتُ الطريق.

سألني أين عدةُ صَيدِكَ ؟

فأخبرته أنني فقدتُها عندما طاردني كلبٌ أسودُ وأنني ألقيتُ نفسي في ماء المصرف.

قال لي : اصعد .

أوسعتُ لجسدي حُفرةً بين ثمار البطيخ واستسلمتُ للنوم وكُلَّمَا أغمضتُ عينيَّ، رأيتُ رجلاً أسود كالفحم ومنجلاً كبيراً في يده وعجوزاً قصيرةً وحسناءَ طويلةً وغراباً أسودَ وحمامةً بيضاءَ وقطراتِ دمْ.

قال السائقُ بصوتٍ مرتفعٍ : نهايةُ طريقي هنا تستطيعُ أنْ تستقلَ أيَّ سيارةٍ إلى نهاية طريقك.

.بدا لي النزولُ من الجرار إلى الأرض أمراً مأساوياً، نزلتُ بحذرٍ واتجهتُ نحوَ السائق وشكرتُه بحرارةٍ، بَسطَ يده بخمسة جنيهات ورقة واحدة وقال : سامحني لا أملكُ أكثر، هذا نصف ما معي وقال : خُذْ بطيخةً وَكُلْها ستخففُ عنك الحر الشديد، شكرته قائلاً جزاك الله خيراً وأخذتُ الورقة وأنا أشعر أنَّ الأرضَ انشقت بالفعل وبلعتني، صرفتُ عينيَّ عن عينيه وغلبني خزيٌ عفيفٌ، اعتذرتُ عن أخذ البطيخة بحُجةِ أنني لا أحِبُّ البطيخ.

كنتُ مبتلاً بالكامل. النقودُ الورقيةُ في جيبي بلا شك تبللت واضمحلت، ولولا هذا الإيمان لعجزت يدي عن اقترافِ تَسوُّلِهَا الأول.

انصرف السائقُ لحال سبيله سالكاً طريقاً جانبياً ووقفتُ أنتظرُ أيَّ سيارةٍ تُقلُّني لبقيةِ الطريق، شعرتُ بحرارة الشمس الهائلة .الهواءُ المنعشُ الذي تنعَّمتُ فيه بسبب انطلاق الجرار على الطريق، انعدم الآن كأنه ليس له وجود، شعرتُ بالظمأ الشديد وجفافِ الحَلْقِ وَعَضَّ الجوعُ بطني بقسوة، قلتُ: يا ليتني أخذتُ البطيخة .

أردتُ البحث عن مكانٍ أستَظِلُّ به من الشمس القاتلة، فالعرق الغزير وقلة الهواء تخنقني ببطء، فكرت في الدخول إلى مصيف جمصة القريب من موقعي، لكنْ هيئتي القذرة منعتني من تنفيذ الفكرة، تذكرتُ الأسى والمعاناة الرهيبة التي تحدث الآن للميكروباص وأقاربي ورفقاء رحلة الصيد، لابد أنهم يبحثون عني

في كل مكان، تذكرتُ المرأة الحسناء ونطقت اسمها تيسير! استعدتُ صورتي المرسومة في عيني المرأة الخمسينية، ولاحت كطيفٍ في وَهَجِ الشمس، كانت تنطقُ اسمها بانكسار الحزانى والأرامل، اسمها تغريد، لا. لا. أظنُ أنَّ اسمها صبيحةٌ..تغريدٌ أم صبيحةٌ وما قيمةُ الأسماءِ إذا اشْتَبَكَتْ الأنْوَارُ بالظِّلالِ؟

لم تكن تعرف تحديداً في أيَّ عُمر هي ربما أكثر أو أقل من الخمسين، لا يُوجد في بيتها تليفزيون. الشابةُ الحسناء أرملةُ أخيها، منذ عامٍ واحدٍ فقط تحولت العشةُ التي يسكنون فيها إلى بيتٍ من الطوب والإسمنت في قلب البلد، يعيشون على خير الأرض وبيض الدجاج ولبن البقر والأسماك و القراميط والبطيخ. في شبابها كانت الأرضُ عامرةً بالمزارع السمكية وأصبحتْ كلُّها الآن أرضَ بطيخٍ ومستنقعات. الرجلُ الوحيدُ في حياتها الذي كانت تحلمُ أنْ تقتسمَ حلاوةَ السُّكرِ معه، وجدوه ذات صباح مقتولاً ومربوطاً بين شجرتين على ضفة المصرف الكبير، وجسده ينزفُ على صفحة الماء، بكتْ تغريدٌ في صدري وضمتها تيسيرٌ بحنان أم، تذكرتهما، كأن خيالاتي أنشأتهما من العدم.

بكيتُ وصدَر من جوفي نواحٌ كالأنين وأنا أتذكَّرُ مشهد المنجل اللامع، وذهب خيالي بعيدا ، شعرتُ بندمٍ هائلٍ وبدأتُ أعضُّ على يدي وأسألُ نفسي : هل حدث ما حدث؟ لطمتُ وجهي مرات عديدة وابتهلت بالأسى والندامة، حُلمٌ أم عِلمٌ ؟!

إِنْ كانت تيسيرٌ أحبتني وأحببتها كما يُقالُ مِنْ أولِ قُبلةٍ، فكيف سَمَحَتْ بما جرى؟!ما الذي أخرسها؟

أحسستُ بدوارٍ وزاغت عيناي وكأنَّ الشمسَ هبطت على فروة رأسي.

فتحتُ عينيَّ للمرة الأولى فوجدتني أتلصصُ من النافذة على المرأتين داخل العشة، سمعتُ الأسماء والحكاية والشكوى المريرة، سمعتُ نبُاحَ الكلبِ ، رأيته يركضُ باتجاهي بأقصى سرعة وتلمعُ أنيابُهُ البيضاءُ كالحراب القصيرة ، وهو يَشقُّ الأرضَ الشاسعة مُنطلقاً من العشة الأخرى التي يتصاعدُ منها دخانٌ نحيلٌ متقطعٌ. ظَهرَ المِنْجَلُ يلمعُ في يده وهو يركضُ خلف كلبه الأسود تجاه العشة، وأنا أستندُ بظهري إلى الشُّباكِ، ركضتُ بأقصى سُرعةٍ وقفزتُ في الماء.

فتحتُ عينيَّ للمرة الثانيةِ فشاهدتُ كيسَ الجلوكوز مُعلقاً على الحامل أوشك أنْ يفرغ، بدأتُ أنتبهُ لمِا حولي، كنتُ بين ستارتين وأمامي ستارةٌ مفتوحةٌ وممرضاتٌ نشيطاتٌ يَرُحنَ ويجئن، وحمامةٌبيضاءُ تقفُ على غُصنِ شجرةِ فُلفُلٍ في الحديقة خارج النافذة المفتوحة في غرفة التمريض، وتنظرُ لي، أردتُ التحدُّثَ كان حلقى كحجرِ خَشنٍ مُدببٍ. عَطْشَانٌ : قلتها بصعوبةٍ. جاءت مُمرضةٌ وابتسمت : حمداً لله على السلامة . قلتُ لها :عطشان.

انصرفت وعادت بزجاجةِ مياهٍ معدنية وأخبرتني أنها زجاجتها الخاصة. شربتُ حتى ارتويتُ، جاء الطبيبُ وسأل الممرضة عن الحرارة والضغط ، طمأنني قائلا: أنت بخيرٍ ونجوتَ من ضَربةِ شمسٍ وانخفاضٍ كبيرٍ في السُّكرِ، وانهاكٍ كبيرٍ أوقعتْ نفسَكَ فيه! عليك أنْ تحذر هذا الإسراف يمكنُ أنْ يقتُلكَ في المرة القادمة.

كان وجهُهُ مليئاً بالغمز والإشارات الغامضة، لم أستوعب جيداً ما يقصده من الايماءات الغريبة، فاكتفيت بالقول : حاضر يا دكتور. قال : تستطيعُ الذهاب إلى البيت بعد نزع إبرة المحلول من ذراعك.

غادر الطبيبُ، وجدتُ أبي وأخي وأمي وأعمامي وياسر وأقارب كثيرين وأصدقاء، غمرتني المحبة وغادرت السرير وأنا أرد على التهنئة بسلامتي بكلمة الحمد لله، خرجنا من الاستقبال ، كان الجوُ لطيفاً بنسمةٍ رقيقةٍ .الأنوارُ ساطعةٌ في المقاهي أمام البوابة وضوضاء دومينو وطاولة، سألتُ: متى نحنُ؟!

قالوا: منتصف الليل.

وضعتُ يدي في جيبي واستخرجتُها، خمسةَ جُنيهاتٍ وَرقةً واحدةً مَشبعة برائحةِ بطيخ قلابشو!

تَشمَّمْتُ نفسي، كان بدني ينوء برائحةِ جسدِ أنثى كاشتباك رائحة العطرشانِ بالفُلِّ، رغم الماء والوحل والثياب الملطخة كانت رائحةُ تيسير قد استحلت مسامي كلها وبقيتْ في جلدي،

نظرتُ إلى موطئ قدمي، رفعتُ وجهي للسماء الصافية، تنهدتُ وشعرتُ بألمٍ فوق ثدي الأيمن، تحسستُ الوجعَ، كانت عضةً قويةً ما تزالُ تؤلمني، ضَمَّدهَا الطبيبُ وطَهَّرهَا بصبغة يُودٍ، وحَقَنني بالتيتانوس، قلتُ: يا لها مِنْ أسنانٍ لا تبدوُ كأسنانِ آكلي لُحومِ البشرْ.

القاتل

- عَجَلَةُ السيارةِ البيجُو قتلت ابننا الوحيد يا رأفت!

قتلته بعدما اختارته العناية الإلهية الراصدة من مسافة كيلو متر، انفصلت عن السيارة قبل انقلابها وسقوطها في الترعة، اندفعت بسرعة هائلة في خطٍ مستقيم تقفزُ فوق الأرض كفهدٍ يتعقبُ غزالةً، اصطدمت بشجرة الكافور الكبيرة أمام محطة البنزين ثم غيرت اتجاهها وانحرفت داخل المحطة، تجاوزتْ كلَّ السيارات والدراجات البخارية والناس وعمال المحطة وحطمت الباب الزجاجي للكافيتريا الذي يلاصق المحطة، مرت بين عشر موائد ولم تصب أحداً، كأنها قذيفةُ مدفعٍ، صَدمتْ ابننا في صدره ووجهه ودفعته للخلف كالكرة وتفرقت دماؤه وأشلاءُ مُخهِ على الحائط.

أنا وأنت شاهدنا شرائط الفيديو لكاميرات المراقبة، لم تكن العَجَلَةُ تبدو طائشة، كانت كملاكٍ يتقدمُ بسرعةٍ تجاه هدفٍ يعرفهُ وقعَ الاختيارُ عليه بقدرٍ إلهي عليم.

أي جريمة ارتكبتها يا رأفت لينتقم الله منك هذا الانتقام، كن رجلا مرة وأخبرني، ما الذي فعلته ودفعنا ثمنه معا؟!

- هذا هو قدرنا يا روان، جاء بعد عذاب وصبر وأخذه الله وليس لنا حيلة ولا قوة لرد القضاء، عجلات السيارات تقتل العشرات كل يوم في كل مكان في العالم، وطال ما شاهدنا معا فيديوهات مرعبة ولم

نتوقع أبدا أن عجلة سيارة ستقتل ابننا ذات يوم، كنا نظنُ أنَّ هذه الحوادث تقعُ للآخرين فقط.

- العجلات المندفعة ملائكة موت، لا تخطيء ولا تختار أحداً بالصدفة، و ما زلت أشعر في قلبي أنك فعلت شيئا شنيعا وهذا عقابك.

- لم أفعل أيَّ شيءٍ شنيعٍ أندمُ عليه، لم أسرقْ لم أقتلْ لم أرتكبْ خطيئةً لم أؤذ أحداً ولم أظلم أحداً و...

- و.. ها .. و.. ماذا ؟

- ليس معقولاً أنْ ينتقمَ اللهُ مني لعملٍ تافهٍ كالذي فعلته، هذا غير منطقي إطلاقاً.

- دعني أعرفه ونتناقش فيه.

- المسابقات وتزييف الحقائق.. مسابقة الموسم الفائت، كنتُ رئيساً للجنة التحكيم والنتيجة الأخيرة وحدي أحسمها، لا. لا ... لا أظنُ أنَّ هذه جريمة تستحقُ هذا العقاب، يا الله رحمتك.

- تكلم يا رأفت ما الذي حدث؟

- أستغفر الله العظيم، تتكشف الأمور أمامي ببطء، كان أحد الكتاب هو الأفضل، ذلك الشاب المستفز الواثق من نفسه زيادة عن المعتاد، أعطاه كل المحكمين أعلى درجة في المسابقة، روايته كانت

الأفضل، لكنني كنت أعرف أنها روايته ورقم الكود الذي وضعته عليها أحفظه جيداً وعناوين الفصول وأسماء الشخصيات، ما حدث أنني أجبرت اللجنة على إخراج الرواية من المنافسة وحصلتْ على الجائزة صحفيةٌ شابةٌ مقربةٌ مِنِّي، ولم تكن تستحق الفوز بالإضافة لأربعة فائزين أقل من مستواه الفني بمراحل، لقد زيفنا النتيجة وظلمنا ذلك الشاب، الأسوأ أنه كان بحاجة لمبلغ الجائزة لإجراء عملية جراحية لطفله الوحيد، كان لديه ثقب في القلب، وعندما أعلنا النتيجة لم يستطع جمع تكاليف العملية، كان مؤمناً أنه الفائز الأول، وبينما ينتظرُ ولده الوحيد سريراً في معهد القلب مات الطفلُ.

- يا لك من مجرمٍ، كثيرا ما نصحتك ألا تظلم، تكتب الدراسات النقدية وتحتفي بكتاب زائفين، تستبعد أدباء موهوبين وتحرمهم من المشاركة في المؤتمرات، تُقصِيهُم وتقفُ حائلاً أمام طباعة كتبهم، حتى المنح التي تُقدمُها الدولة للموهوبين تتلاعب فيها كأنك تتحكم في أرزاق العباد وليست هذه الأموال تركة أبيك، لعنك الله يا رأفت، أنت شيطانٌ لقد قتلت ابني بجرائمك.

...

عَرَفتُ من رأفت بعد وفاتها بشهور أنها ظلت تلطمه وتنهالُ بالضربات على صدره ووجهه ثم سقطت على الأرض وزحفت لغرفتها وأخذت صورة ابنها مكرم في حضنها وهي تنوح وأنه ترك لها الشقة وغادر ليتمشى على النيل ويدخن تحت ضغط إحساسه

بالذنب وعندما عاد قُبيل شروق الشمس بلحظات، وجدها قد ذبحت شراييها ونزفت دماءها على الملاءة البيضاء وصورة مكرم على صدرها وهي تحملق في السقف مبتسمة وراضية كأنها قد لحقت بابنها وهي الآن معه.

هل فهمت الآن يا ياسر لماذا قلت لك أعطه السيجارة واترك له كوب الشاي ولا تفزعه؟ هل فهمت لماذا احتفيت به رغم نفوره القوي وتركه للسندويتشات ولم يقربها واكتفي بالسجائر والشاي؟ كنت أعرفه ويعرفني، لم نكن صديقين حميمين متلازمين، لكن كانت بيننا صداقة جيدة.

- سبحان الله المعز المذل، من الذي يتخيل أن هذا المسكين المتشرد كان أستاذاً للأدب والنقد في الجامعة كما تقول، إياك أن تكون كعادتك تؤلف حكاية للتسلية يا كامل وهذا المتشرد عابرُ سبيل من مدينة مجاورة، لعلك تخبرني أنه ضابطٌ سريٌ في مكان سيادي! ألاعيبك لا تنتهي.

- لا يا ياسر هذا المتشرد هو رأفت مذكور أستاذ الأدب والناقد المعروف، جاء من القاهرة إلى دمياط ماشياً، من قرية لقرية، ومن مدينة لمدينة، ومن خلاءٍ لخلاء، صار يعرفهُ الناسُ لتطوافه الدائم في البلاد وكل من سافروا بالقطار شاهدوه في طنطا وبنها والمنصورة وشبرا وهنا، بينه وبين القطار علاقة سرية، فجأة يفرد ذراعيه كطائر ويصرخ وهو يجري برفق وتمايل : توت.

ثم منذ متى كذبت عليك؟ ألم أخبرك أول أمس ألا تنهر المتشرد المسكين الذي وقف يتبول على الفيسبا، هل نسيت؟

- يا الله هو الآخر حكاية من يصدق أن هذا الرجل كان العبقري الأول في إصلاح التلفزيونات والفيديوهات.. حي.

- لطفك بعبادك يا رب، إنها لا تدوم لأحد، غادرة، متقلبة، نهايات حكاياتها لا يتوقعها أحد، العدالةُ تأخذُ مجراها دائماً يا ياسر ولكنَّ أغلبَ الناسِ لا يستطيعون القراءة.

- صحيح يا كامل، تغدر بالطيبين والأشرار، من أسبوع فقط كاد يأكلك كلب أسود في قلابشو.

- كلبٌ أسود! صحيح كاد يأكلني.

شَرَدَ ذهني وحضرتْ تيسيرٌ بجمالها الفارع البديع أمام عينيَّ، المرأةُ لا تكونُ جميلةً دائماً عندما تَعَرَى، عضضتُ على شفتي وأنا أوسوسُ لنفسي، كيف يكتفي رجلٌ مِنْ امرأةٍ كاملةِ الأنوثة؟! كأنها ليمونةٌ لاذعةٌ، شَقَّها نصفين، ظلَّ يَرشفُهَا حتى ذابتْ شفتاهُ!

أصوات العصافير

كانت أمي توقظني مبكراً كعادة كل يوم، وكنتُ أحبُّ النوم، الشتاء يُحوِّلُ شوارع حارتنا الطينية إلى أوحال، وجسدي لا يحتمل البرد، كانت تقول لي : فطمتُك وأنت في الشهر الخامس، ربما لهذا السبب كنتُ ضعيفاً. أذهب لأشتري اللبن وأتحمل مسؤولية صغيرة، وأشعر أنني رجل، أرهف سمعي لصوت كالنز، ثم يتدفق اللبن الدافئ إلى قعر القربة الفخار سوداء اللون، تتمايل الأبخرة فوق الفوهة الواسعة، ثم تلتقي بالهواء البارد، و تملأ الأنوف.

انتظرنا في لهفة و خشوع، حتى ينتهي عم إحسان من حلب جاموسته عزيزة، يتعامل معها كفرد مهم في عائلته، يبيع لنا واحداً واحداً في هدوء، نساء ورجال وأولاد جئنا مبكراً، نصطفُ بنظامٍ وأدبٍ دون أنْ يُنظِّمَ وقوفنا أحدٌ، كل شخصٍ يعرفُ دوره، ومتي جاء، ومن وراء من ؟ كان الذوقُ ما يزالُ كائناً حياً بين الناس.

بعضُ الأطفال يرضعون اللبن من ضرع الجاموسة، لقد رأيتهم، لكن لم أجرب.

الكلابُ تستأنسُ الحياةَ بيننا، لكنها لا تخلو من كلابٍ مسعورة، شعرتُ بفزعٍ كبيرٍ عندما رأيته يركضُ لاهثاً وراءه، ليبقى المشهدُ محفوراً في ذاكرتي.

كان في نفس عمري يمضي في الصباح إلى مدرسة طه حسين، دخل الصبي حارة جانبية مسرعاً لتشتيت الكلب، نبحه الكلبُ وتتبعه، الولدُ خاف جداً وارتعبَ وركضَ وهو يصرخُ أمي، أمي، تبعه الكلبُ بإصرار، تعثَّرَ في الطريق الترابي، سَقطَ على وجههِ، لمْ يُمهلهُ الكلبُ المسعورُ أيَّ فُرصةٍ للنهوضِ، هجمَ عليه بقسوةٍ وعضَّهُ في ظهره وإليتهِ، نهقَ حِمارٌ مربوطٌ في وَتَدٍ أمامَ بيتِ عمِ عبد الغني القديم، صرختْ زوجةُ عم شعبان وقذفت الكلبَ بحجرٍ أصابَ بطنه، فعوى وانطلق يركضُ مُبتعداً عن الولد المطروحِ أرضاً، ملأ الرعبُ قلبي، التقطتُ حَجراً من الأرضِ وألصقتُ ظهري بالحائطِ وتسمَّرتُ مكاني، ارتفعَ بكاءُ الولدِ حتى خرجَ رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ من البيوتِ القديمةِ، والتفوا جميعاً حوله وهو ينتصبُ واقفاً ويبكي بحُرقةٍ واضعاً يده اليمنى على إليته النازفة، واندفعَ صوتٌ مُتردِّدٌ في الأنحاء:

ابنُ سماحٍ عضَّهُ كلبٌ مسعورٌ.

في دقائقَ احتشدَ أشخاصٌ كثيرون وأطفالُ مدارس، ثُمَّ رأيتُ امرأةً تجري على الطريق الترابي ملهوفةً وهي تُولولُ : ابني فين يا ناس؟

خَرَجتْ حَافيةً، شعرُهَا الأسودُ الغزيرُ يبدو كجناحين على ظهرها، لم تنتبه لهيئتها، خرجت بقميصِ نومٍ زهريِ اللون، عاري الظهر، ويتهدجُ صدُرها الكبيرُ فيصعدُ للأعلى ويرتدُّ للأسفل، قَمِيصُها الوردي ينحسرُ عن دُرتينِ من العاجِ الأبيضِ، ارتطمتْ أعينُ

الرجالِ والنساء والأولاد بالفتنة العارمة، كموجةٍ عاتيةٍ ضَربتْ كُوخاً من القشِّ والقَصَبِ.

في لوثة السُكْرِ أيقظني الخوفُ، وخشيتُ أنْ أتأخَّرَ أكثرَ على معهدي الأزهري فمشيتُ مُسرعاً في الاتجاه المُعاكسِ وأنا أعضُّ على شفتي من الغيظِ لأنني لم أكملْ المشاهدة.

ذلكَ الصباحُ البعيدُ غَرَستْ الرغبةُ مخالبها كنسرٍ في قلبي، وتمنيتُ امرأةً.

ظللتُ حزيناً طوال اليوم، وعندما سألني زميلي في المقعد عن حزني، وحكيت له ما حدث، ضحك ساخرا وقال لي :تعيش مغفلاً وتموت مغفلاً هكذا أنت!

سألته مستنكراً ولِمَا كلُّ ذلك؟

قال: تركت هذا المشهد البديع وحرمتْ نفسك من الاقتراب منها ومواساتها والبقاء معها حتى تصل بيتها باطمئنانٍ وجئت مُهرولاً لتلحقَ بطابورِ الصباح والحصةِ الأولى؟!

إياك أنْ تُخبرني أنَّك لم تتشمَّمْ عَبقها وفاتتك الفرصةُ!

تَنهَّدتُ وأنا أنظرُ إليه باستهجانٍ ودهشةٍ وسألتُهُ ذاهلاً: كيف تعرفُ هذه الأمور؟أنت لم تبلغ العاشرة من عمرك؟!

فضحك هازئاً وقال: ألم تسمع عن الوزِ العوَّامِ ؟

قلتُ ببلاهةٍ : نَعَمْ

قال : أنا ابنُ الوز.

كادت روحي تخرجُ مع دقاتِ جَرَسِ الحصة السابعة، تُشعرني أنَّ المدرسةَ سِجنٌ غارقٌ في السكون.

اللوحةُ الرخاميةُ تحملُ سنة الافتتاح 1977 واسم الرئيس محمد أنور السادات.

النهرُ هناك خلف القضبان الحديدية للبوابة، يقبع على بعد خمسين متراً تقريباً منذ آلاف السنين، نصعدُ للسطح فوق الطابق الوحيد للمدرسة، نترقب ظهور الدلافين السوداء وهي تشقُ مياه النهر كالقوارب السريعة ونتهللُ فَرحاً ونجذبُ بعضنا البعض ونصرخُ في فرحةٍ غامرةٍ ، انظُرْ.. ها هو هناك، هناك، لقد ظهر، ها هو يقفز، وتخرجُ صرخةٌ مدويةٌ من رأفت : إنهما اثنان، اثنان!

وعندئذ ينكشفُ أمرُنَا ويصعدُ عم إبراهيم الفراش لإجبارنا فوراً على النزول والعودة للفِنَاءِ.

عمارتان شامختان وحيدتان كأنهما أعجوبتان معماريتان تنتصبان أمام المعهد، مدينتنا تستميتُ لتنفض غبار القرية عن رأسها.

طريقي للبيت طويلٌ، قدماي الصغيرتان تنهبان التراب وأنا أعود وحيداً بعد أنْ يتفرقَ التلاميذُ في أنحاء المدينة، التفتُ ورائي لأنظر، أنا وحيدٌ، لا أحدَ هناك.

على الضفة المقابلة للنهر تمتدُ أشجارُ النخيل بلا نهاية، أغمضتُ عينيَّ وتنسمتُ روائح أشجار الليمون والجوافة والمانجو التي تمتدُ في العُمقِ عبر أراضي قرية السنانية حتى مشارف البحر.

البحرُ هناك، لكنَّ النخيلَ الباسقَ حجبَ الرؤيا لسنوات، شعرتُ بأشواكِ الليمون تنغرسُ في يدي وأنا أقطفُ ليمونةً خضراء وأشمَّها فتمتلأ رئتاي برائحتها المتميزة العطرة، حتى صار مضرباً للأمثال.

أكملتُ طريقي مسرعاً، الأراضي الزراعية الشاسعة تمتد على مرمى بصري لعشرات الكيلومترات، في اتجاه الشرق، الشمس في يقظتها تبدو طالعةً من بحيرة المنزلة كأنَّها تبيتُ هناك في كوخٍ بين الأحراش والغاب والبردي، وفي جهة الغرب نخيلٌ لا ينتهي على مرمى البصر حتى مشارف مدينة رأس البر.

يمتدُ النهرُ كأنَّهُ بلا نهايةٍ جهةَ الشمالِ وينحرفُ ملتوياً عن مجال الرؤيا، عندما رأيت لأول مرة التقاء النيل بالبحر الأبيض شعرتُ بقداسة ورهبة وجمال هذه الجنة الصغيرة التي نسكنها.السياراتُ قليلةٌ جداً وعرباتُ الحنطور تختفي هناك على البعُد كأنمَّا ابتلعها وحشٌ أسودُ كبيرٌ يسكنُ في الظلام والضباب ناحية الجنوب.

العمالُ يواصلون البناء والتشييد، عربات النقل الكبيرة حملت أطناناً من الإسمنت والحديد والرمل العباسي والزلط والأخشاب، توقفتُ مندهشاً لأرى الفتيات والنساء يحملن القصعات المملوءة بمُونةِ الإسمنت ويصعدن السقالات الخشبية بمهارةٍ وقوةٍ كالرجال، تصعدُ امرأةٌ ويهبطُ رجلٌ، هكذا بلا توقف حتى تغرب الشمس.

يتناولون الغداء على المقهى بجوار بعضهم البعض، كما يتجاورون مع الخرسانة المسلحة.

بيوتُ عزبتنا القليلة أخيراً ستجدُ لها جيراناً جدداً، الإسكان التعاوني يَتمُّ تشييده بسرعة، والهدوءُ القديمُ الذي تغَشَّى هذه الأرض الخضراء، يُحيطُ به الزحامُ والضجيجُ ببطءٍ وإصرارٍ وهو ينمو كما يختمرُ العجينُ ويطفو حتى يتهاوى على التراب.

عزبتنا أرضٌ شاسعةٌ تمتدُ حتى آخر الأفق، حيث تطلعُ الشمس في الصباح من بحيرة المنزلة.

جدي لأمي يبعد بيته عن النيل مائة متر، يبدو وحيداً متفرداً بين أراضي البرسيم والأرز والنخيل الباسق، وأشجار الكافور والجميز والتوت والنبق.

ليس حوله سوى بيوت قليلة، أراضي شاسعةٌ تفصلُ بينها جسورٌ ضيقةٌ وقنواتٌ رفيعةٌ للماء، وعلى رأس كل رقعة زراعية ينتصبُ

بيتُ صاحب الأرض، وزريبة مواشيه، وبين كل عدة أفدنة من الأرض الخضراء يقفُ بيتٌ واحدٌ يجمع العائلة كلها.

بين بيت جدي لأمي وبيت جدي لأبي ثلاثمائة متر تقريبا، جدي لأبي فلاحٌ و صيادٌ أيضا، يمكنني رؤية قارب الصيد رابضاً على شاطئ النيل على بعد مائة متر فقط .

البَيتُ الكبيرُ، ينتصبُ شامخاً على ناصية الطريق الترابي الممتد تجاه النهر، وتتدفقُ منه في الليل والنهار النسائمُ البحرية الناعمة المنعشة في الصيف والربيع، وكذلك الرياح العاتية الغامرة الأمطار في الخريف والشتاء.

في قيلولة العصر تجذبُ عتبةُ البيتِ الكبيرِ أهْلَ العزبة الطيبين للدردشة والحكايات وشرب الشاي على الكانون حتى تغيب الشمس، وتغلق البيوت أبوابها وتجلس العائلات حول الراديو .

بعد صلاة العشاء، تنغمسُ العزبة في النوم العميق، ويعُمُّ الظلامُ والسكونُ الأرض، إلا ضوءَ القمرِ في ليالي النور وأصواتَ الكلاب والضفادع وبعض الذئاب وأصوات الجواميس وهسيس أوراق شجر الكافور وصرصرة صراصير الغيطان.

دِميَاطُ خضراءُ شاسعةٌ، تنتشرُ على أرجائها بيوتٌ قليلة، على رأس كل غيط، كل عائلة تسمي منطقتها غيط فلان.

أعرف مدرستين اثنتين فقط ، نعرف مواقيت الصلاة من الراديو فلم تكن التليفزيونات انتشرت في كل البيوت، لم تكن عندنا مساجد في عزبتنا، وكان مؤذن جامع العزبة الكبير البعيد يرفع صوته بالنداء فيسمعه الجيران القريبون من المسجد فقط، وكان الناس يُصلُّون في الغيط أو البيت، وأغلبهم يحفظون الفاتحة أو قل هو الله أحد، قريةٌ كاملةٌ بها رجلٌ واحدٌ يحفظُ القرآن.

التعليمُ ينمو كنخلةٍ صغيرة تكبرُ يوماً بعد يوم، المدارسٌ محدودةٌ، والفلاحون لا يرسلون أولادهم للتعليم، ليس هنا كتاتيب قريبة، الكل يؤمنون بالأرض وعطائها والبحر ورزقه، أما المدرسة والتعليم فهو ترفٌ زائدٌ لا يحتاج إليه البسطاء، فهو حكرٌ للأثرياء فقط.

فِكرةٌ مُظلمةٌ جداً وقاسيةٌ، أنْ يُولدَ رجالٌ ونساءٌ ويرحلون دون قراءة كتاب، أو معرفة تاريخ مدينة، حتى المصاحف تلك الأيام لم تكن في كل بيت.

سألت أستاذي محمد رجاء عن الفراعنة وعلوم الطب والفلك، كيف نكونُ نحن الآن على ما نحن عليه من جهلٍ وأميةٍ وتخلفٍ ورجعيةٍ أبناءَ هذه الحضارة؟!وكيف أصبحنا هكذا اليوم، كما يُحدِّثُنا دائماً، أمَّتُنا عالةٌ على الأمم، ما زلنا عاجزين أنْ نصنع ثُقباً في إبرة خياطة، لا ننتجُ أيَّ شيء، حتى القمح لانزرع ما يكفينا ونستورد أطناناً منه كل عام، العالم يتطورُ ويستنيرُ ونزدادُ غرقاً في الظلام والجهل والخيبة، كأننا نطلعُ ببُطءٍ منْ مُستنقعٍ كبيرٍ ونتطهرُ من

قذارته شيئًا فشيئاً فيزدادُ طِينُنا بللاً، نحن أبطال ومقاتلون أشداء على بعضنا البعض، بارعون في شراء الأسلحة التي لا نستطيع تصنيعها ثم نقتل بها بعضا، ونبني المصانع لصناعة المصاصة والعصائر.

أغلب الناس هنا أميون وفلاحون، وتبدو قريتنا كبقعة معتمة من العالم، ويبدو أنَّ العالمَ سيزولُ ونحن غارقون في الخيبة والبقاء في مقابر أمجادنا التي شاخت في بطون الكتب.

- لماذا ليست لدينا مسلات ولا أهرامات في عزبتنا يا شيخنا الجليل ؟!

- أظن أنها سرقت في العصور المظلمة! ثم ضحك وضربني على ظهري برقة وقال لي : هذه مزحة!

لكنني ظللت جاداً كأنها ممتلكات أبي، ولماذا لم تُسرق أهراماتُ الجيزة وأبو الهول والمعابد والمسلات؟!

- ربما كانت دمياط مدينة غير مهمة في ذلك الزمان ولم تنل نفس مكانة الإسكندرية ودورها عبر التاريخ، ثم من الذي يستطيع سرقة الهرم، هذا بناء ضخم وصرح هائل وليس تابوتاً لتوت عنخ آمون ولا تمثالاً صغيرا.

في صباحٍ مُمطرٍ وبينما يستغرقُ في تفسير سورة نوح عليه السلام، رفعت يدي بإلحاح وتوترٍ كأنني أجلسُ على زجاجٍ مُتكسرٍ، تجاهلني

عدة مرات لأنني قطعت استرساله أثناء الشرح وبدأ يغضب رغم اعتياده على أسئلتي المربكة.

- قف...ماذا تريد أن تقول؟!

- إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك!

- من ؟!

- نبي الله نوح عليه السلام!

- لا يستطيع أن يفعل ماذا ؟!

- أن يجمع من كل زوجين اثنين.

- أوضح أكثر هذا أمر الله إليه وقام بتنفيذه فيما تفكر أخبرني.

- نعم أمره أن " يحمل فيها " ولم يأمره أن يجمع وهنا معجزة.

- ماذا تقصد يا كامل؟!

- إنَّ نُوحاً عليه السلام لا يستطيع أن يجمع أسداً ولبؤة ونمراً ونمَرةً وذئباً وذئبةً وربما ديناصورات أيضا، لا يمكنه ذلك وليس لديه قدرة على تحقيقه.

- ولكن الله أمره أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين ونفذ أمر الله.

- نعم لكنه لم يفعل ولا يستطيع.

- كيف إذن جمع المخلوقات في السفينة؟

- هي جاءت إليه ودخلت تباعاً بنظام وخضوع وطاعة، هو فقط استمر في مشاهدة ذلك يحدث.

نظر الأستاذ لي وقال: الله وحده عالم الغيب والشهادة، ومعارفنا محدودة ونسبية.

- هل خانت امرأة نوح زوجها؟

أمسكني بقسوة من أذني وأوقفني بعد أن كان أجلسني، نهرني أنني تكلمت دون أن أرفع يدي طلباً للكلام، وأنَّبَني أنني لست الوحيد في الفصل وأن زملائي لهم حق الفهم وطرح الأسئلة، وأنني يجب أن أترك الفرصة للآخرين للمشاركة في الأسئلة والحوار، ثم حذرني من جرأتي في فهم الآيات حسب أهوائي وإدراكي القاصر، ثم أكد لنا أن زوجات الأنبياء طاهرات وأن الخيانة المقصودة خيانة في الدين والعهد.

رغم تأكيداته وتوضيحاته الصارمة في الإجابة، ظل موضوع الخيانة يشغلني حتى نهاية اليوم الدراسي و في طريق رجوعي إلى البيت بعد خروجنا من المدرسة وجدت زميلي سمير يكمن لي .السافلُ يسرقُ مني سندويتشاتي ويرهبني دائماً، وجدته ينتظر في منتصف الطريق، شمَّرَ أكمامه وألقى حقيبته الجلد الأنيقة بالكتب على الأرض، بينما أنا أحمل كيسة قماشٍ من العبك،

هاجمني دون مقدمات وطرحني على الأرض ، لكمني في عيني وفمي، مَرَّغ َرأسي في التراب حتى اختلط بدمي، رأتنا امرأةٌ كانت تمرُّ في يدها حزمة برسيم أخضر، أسرعت نحونا وفصلتنا عن بعض، وأنا أبكي وهو لا يزال يركلني بقدمه ويشتمني دون رادع، دفعته المرأة بعيداً ونهرته، وأوشكت أن تضربه لما رأت وقاحته واستهتاره وعدم خوفه من تحذيرها، ولما تأكدت من سفالته قالت له: أنت ولدٌ عديم التربية ونزعت شبشبها من قدمها وأمسكته وكادت تلطمه على وجهه لكن الجبان أسرع في الابتعاد والهرب. وأخذتني معها حتى أوصلتني لأول طريق البيت .

سألتني لماذا يضربك هذا الولد بكل هذا الحقد والشراسة ؟!

قلت لها: لم أؤذه قط ويسرق سندويتشاتي دائماً ويرهبني طوال الوقت، ويلتصق بالبنات من ظهورهن عندما تتدافعن في الطرقة للخروج إلى الفسحة!

قالت لي : لا تحزن هو قليل التربية. ما اسم هذا الولد ؟!

- اسمه سمير .

- وأنت ؟

- كامل محمد نور الدين

ظلتْ تمسحُ لي وجهي وفمي بمنديلها القماش زهري اللون، ولمَّا اقتربنا من البيت أخبرتها أنني أصبحت بأمان الآن، لكنها استوقفتني وأقعت على ركبتيها ونظرت في عينيَّ وقبلتني من خدي وقالت : مع السلامة يا كامل.

- الله يسلمك يا طنط.. هو انت اسمك ايه ؟!

- نوال.

افترقنا وأنا أكرر التفاتاتي للخلف وأتابعها حتى دخلتُ حارتنا، وهي تمضي بثقة في طريقها دون أن تلتفت، لقد خدش حياءها شعورٌ خفيٌ مُدببٌ، تصاعدَ من جسدِ صبيٍ في التاسعة، كصهد الجمر.

بعدما دخلتُ مدخل البيت خشيت أن تراني أمي هكذا أو أبي، ويعرفان أنني لم أثأر لنفسي وتعرضت للضرب، تراجعت وأسرعت للذهاب إلى جدتي سندس على بعد أمتار من بيتنا وصعدت إليها منهزماً وعندما رأتني فزعت وضربت صدرها وأنا انهمكت في البكاء.

حكيت لها ما حدث، فجأة ظهر جدي نور الدين كأنه خرج من الجدار، ربت على ظهري برفق وقال: لا تحزن سينال جزاء شروره، إن الله لا ينسى، وستأخذ ثأرك بيديك عما قريب، فكثرة شحذ الحجر يجعله ماضياً.

لم أفهم كلمات جدي لكنني آمنت أنني سأستطيع الثأر.

جدتي سندس تقول أشعاراً رائعة تنطلق من فمها كالورد وتتلاشي كالعطر، وتبقى الخيالات الجميلة تأسر عقلي لأيام، والقوافي والأنغام، وحكاياتها المدهشة التي لا تنتهي.

بيت جدتي يصنع خبزه ويربي دجاجه وبطه، أجلس معها كثيراً أمام الفرن المبني بالطين والطوب بمهارة فائقة، أتأمل اختمار العجين الذي أدارته بيديها القويتين حتى تتعرق من الجهد الشاق، وترصُّ الأرغفة التي تُشبهُ قباباً صغيرة من العجين، تدفع عدة أرغفة بعد إحماء النار في الفرن، تُلقمه أقراصاً من الروث الجاف، أو أعواداً من حطب الذرة الجافة، وأغصان شجر الكافور الناشفة، لا تتعجل في دفع العجين لصاج الفرن الملتهب حتى يتلاشى الدخان وتستوي النارُ جمراً وهاجاً، يتضخمُ قرصُ العجين ويتمدد ثم يرتفع فيشبه قبة مسجد، تصنع لنا أرغفة من البيض ونأكلها ساخنة وتشوي أكواز البطاطا البيضاء ونلتهمها ونحرق حلوقنا وألسنتنا دون أن نصبر حتى تبترد. القمح والشعير والأرز والبطاطس والبطاطا والذرة الشامية والبامية والملوخية المجففة والكثير من خيرات الأراضي في غرفة الغلال، يمنح العائلة الكبيرة شعوراً بالاكتفاء الذاتي.

انْظُرْ هناك.. ألقى هتلر قنبلة ضخمة، كانت تحكي لي بعدما خرجنا للشرفة، نظرتْ تجاه المشرق وقالت :كانت الأرض رطبة مزروعة بطاطا بيضاء، وكانت الحرب على أشدها وطائرات هتلر تقصفنا تلك الأيام، وسقطت قنبلة كبيرة فغاصت في طين الأرض

ولم تنفجر، وانقلبت الدنيا وجاء خبراء وجنود وآلات برتقالية ضخمة وفحصوا القنبلة وربطوها بالحبال ورفعوها على سيارة كبيرة، وكنا نغني فرحا :

(هتلر يا ابو برنيطة

مجنون وعاملك زيطة

وحدفت علينا قنابل

نزلت في حيضان بطاطه)

حاولتْ تنظيف ملابسي وغسلتْ وجهي ورأسي وقالت: لا تكذب أبداً وأخبر أمك بما حدث وقل لها : جدتي تقول لك لا تضربيني.

ذهبتُ مترددا ومتعجلاً كعادة صبي لا يطيق الانتظار طرقت باب شقتنا مرات متتالية، لم أنتبه أنها كانت تتحرق قلقا في الشرفة تترقب عودتي، ويبدو أنها في اندفاعها الحميم من الشرفة للباب لتفتح لي، اصطدمت أصابع قدمها الرقيقة برجل السرير، وطرطش الدم، وهوت على وجهها و روحها سُلبت منها وعادت، بينما غارق أنا في الحماقة وأطرق الباب دون ذرة من الصبر.

تحاملت على نفسها وأنا أرفس الباب بقدمي كجحش حرون، فتحت لي ثم هوت إلى الأرض، وهي تكتم الدم بخرقة بيضاء والدم ينتشر فيها بلونه الأحمر، أحسست كأن الدنيا كلها تنزف في لحظة واحدة،

صرخت وانحنيت عليها، أمي، أمي، قبلتُ رأسها ووجهها دون أن أفهم أنني سبب كل هذا الألم.

بعدما استردت أنفاسها وسكنت الأوجاع قالت : (اللهم اجعل المستخبي لطيف، يارب ما تحوجناش وما تفضحناش)

تحاملت على آلامها وقامت لتحضر لي الغداء وهي تقول : لعل أباك بخير في عمله الآن، تنهدت وقالت : ربنا ينجيك يا محمد.

مع أول ملاحظة منها للجرح الصغير في شفتي شهقت وأنا اعترفت، ولولا رسالة جدتي لها لربما ضربتني.

وأخي الأصغر يتحفز ويقول : تعال لنبحث عنه ونضربه، لكن أمي أسكتته.

جمعتنا على الغداء، ستمضي عدة ساعات قبل عودة أبي من العمل، وضعت الطبلية الخشبية في منتصف الصالة، ووضعت فوقها صينية ألومنيوم كبيرة، وغرفت لنا الأرز والشوربة بعدما حمرت الديوك الشابة التي ربتها تربية جيدة، تطهو لها السمك البلطي الصغير مع كسر الأرز والشعير وتمنحها أسماك البساريا في بعض الأيام. كانت تلفت انتباهي دائماً إلى أهمية امتلاك الإنسان لطعامه، وتقول لي بلهجة قوية :

(اللي ما يربيش ما ياكلش).

كانت تطعمنا شبعاً حقيقياً، لم نكن نتعارك على الطعام أبداً، علَّمتنا النظام والحياء والأمان والصدق، كان يمكنها أن تترك قرشاً في مكان ما، تحت وسادة، تحت مفرش الطاولة، فلا يمسه أحد منا ولو ظل هكذا للأبد.

الكذبُ أعظمُ الرذائلِ لديها، ليس هناك مبرر لتكذب عليها، كان قلبها نقياً وحدسها القوي يحاصرني دائما ويدفعني لقول الحقيقة بأمان وراحة وحرية.

فتحتُ النافذة البحرية، ونظرتُ إلى النهر في امتداده الطويل الملتوي، وإلى أشجار النخيل التي تَسدُّ الأفُقَ على الضفة المقابلة. عرباتُ الحنطور تدقُّ بسنابك الخيل على الأسفلت الجديد. قرصُ الشمس يتلكأُ في الدخول لأصيل العصر الآتي، وأنا أنقل بصري ناحية اليمين وأتأمل بتوجس قواعد العمائر الجديدة وهي تنمو للأعلى ببطء، وسألت أمي: هل ستحجبُ هذه العمائرُ عنا الهواء والضياء يا أمي؟

تنهدت بحسرة وقالت : وأصوات العصافير .

نظرتُ إليها مُستاءً ثم حملتُ كرسياً ووضعته أسفل التلفزيون لأفتحه، سألتني بحدة ماذا ستفعلُ؟ فقلتُ لها : غداً إجازة يا أمي، غداً السادس من أكتوبر.

قالت بصرامة: افتحه غداً. والآن اعكف على مذاكرة دروسك، لكنني تثاءبتُ وتصنَّعتُ النوم، وأغمضتُ عينيَّ وتوسدت وسادةً مربعة نضعها حول طبلية الطعام وادعيتُ النوم، لكنني في غمرة التمثيل نمتُ بالفعل.

استيقظت على صوت أبي فوجدتني في سريري دافئاً منعماً، ففهمت أن أمي كالعادة حملتني ووضعتني في الفراش وأبدلت ملابسي ودثرتني جيدا وأظلمت الحجرة وأغلقت الباب والتزمت الهدوء. كم أحبك يا أمي، نهرٌ فياضٌ من الحنان والرحمة، فلاحةٌ أنيقةٌ جميلةُ الخلقة، قوية البدن، كلما نظرتُ في وجهها أحسستُ أنها أميرةٌ ابنةُ سُلطانٍ، في دمائها عزةٌ وشموخٌ، لا تتصنعُ الكرمَ، صوتُها خفيضٌ كالهمسِ، لا تشغلُ بالها بالناس، في قلبها ملكوتُ الرضا منيراً كشجرةٍ ثمارُها لؤلؤٌ، ما رآها أحدٌ أو تحدَّث معها في مدرستي إلا ظنها طبيبة، أحلامها كبيرةٌ جداً، تحُاربُ الظروف القاسية حتى نتعلم.

يُؤمنُ الناسُ حولنا أنَّ مجدَ الحياة هو المال، بينما كانت تؤمنُ بالعلم، تفرحُ عندما أحصلُ على درجاتٍ كبيرةٍ وأنجحُ بتفوقٍ، وتفخرُ كلما رأت في يدي كتاباً، لم تُسفِّهْ أحلامي أبداً. كلُّ ورقةٍ بيضاءِ شَّوهَتْهَا محاولاتي الأولى في الكتابة أمسكتها بسعادة ودفعتني بقوة كي أستمر، كان حبها للعلم يدهشني وإصرارها وقتالها مع الأيام والفقر لإكمال تعليمنا أمراً عجيباً. أسَرٌ كثيرة حولنا أسعدُ حظاً وأكثر سعة

لم تهتم لتسرب أبنائها من المدراس، أما أمي فكان الكتاب وكانت المدرسة قدس الأقداس بالنسبة إليها.

كم ساعة بقيتُ نائماً، لا أعرفُ، فتحتُ عيناً وتركتُ عيناً مُغمضةً، ولمَّا رأيتُ ثمارَ الموز، اندفعتُ كالقرد من السرير إلى الصالة، دفعني أبي بكلِّ قوةٍ لأشاركهُ الغداءَ وباءت محاولاتُه بالفشل، كانت أمي تملأُ عيوننا شبعاً وكرامة، ولم يكن في العالم شيءٌ يستطيعُ أنْ يُجري لعابنا لأجله.

كنتُ أرهفُ سمعي، وهو يهبطُ سُلَّم َالبيت ليس في جيبه قرشٌ واحدٌ ويتبتَّلُ بها.

(فك عسيرها يا رب)

يزرعُ الأرضَ، يصطادُ في البحِر، يعملُ في مصانع الطوب، يحفرُ الأرض للبناء، رجلٌ تعرفهُ الشمسُ، لا يملكُ من الدنيا سوى زوجته وأولاده، قوتُ يومهِ الآتي لا يملكهُ ولا يعرفهُ، وتحت مطرقة الفقر والكفاح يُرسلُ أولاده للمدارس، ويحلمُ أن يكونوا أشخاصاً ناجحين ومُهمين، تُرهقهُ مصروفاتُ المدارسِ بأعبائها القليلة، لكنها كبيرةٌ وثقيلةٌ لرجلٍ لا يستطيعُ ادخارَ قرشٍ أبيضَ واحدٍ لأيِّ يومٍ أسود.

طِيبتهُ نَهرٌ، رضاؤهُ بالمقسومِ فوقَ احتمال البشر، إذا خابَ سعيُ يومه وعاد ولم يكسب قرشًا واحداً، أشبعهُ رغيفٌ واحدُ وأعوادٌ من السريس الأخضر المر، رأيته مراتٍ ومراتٍ ينثرُ حبَّاتِ السُّكرِ فوق

الأرز وفي نَهَمِ الرضا يتناولُ طعامه كأنَّهُ يجلسُ إلى مائدةٍ في قصر ملك.

لم أشاهده أبداً يتعاركُ مع أحدٍ، أو يدخلُ في خصومةٍ وعداوات، كأنه الطيفَ يمضي لحال سبيله، لم يمارس علينا سلطة الأب، وعندما أفعل شيئاً لا يرضى عنه لا يكلمني ولا يأكلُ معي، وعندها أنا أموتُ وأحيا من الحزن.

يَترنَّمُ بالأمثال، وكثيراً ما يرتجلُ، ابتسامتهُ الدائمةُ تُلهمني التسامحَ والأمل، وإذا جمعنا الغداءُ يومَ جُمعةٍ أو يومَ راحةٍ، يضعُ في أفواهنا نصيبه من البط أو الدجاج ويُبقي لنفسه الرقبةً والأجنحةَ ويُكثرُ من الليمون فوق الحساء، ويستغرقُ في الحمد لله الكريم، يُخوفني من الكذب ونقل الكلام، يُسمون ناقل الكلام فتاناً، ويقولُ إنَّ لله عباداً لديهم مواهبُ شيطانيةٌ في هذا الأمر يمكنهم إيقاعُ العداوةِ بين الحمار وعليقهِ!

- لهذه الدرجة يا أبي؟

- نعم وأكثر.

أسمعهُ يترنمُ في وصف الحسان، إنْ خَيَّروكَ في النساءِ اخترْ رفيعةَ الوسط!

يكره الحسد والحاسدين، يعتبرهم من شرار الخلق، قال لي: ذات يوم بينما كانوا يستعدون لإلقاء شباك صيد السمك في النيل عبر

مركبهم الصغير، إذ ظهر لأول مرة في مجرى النيل قارب صيد كبير بمحرك قوي، يشق النهر شقا كأنه يطير فوق الماء بدلال فرس نهر، عندما ظهر المركب الكبير توقفوا جميعا منبهرين وقالوا: ما شاء الله.

لكن رجلا اسمه عطية، كان مشهوراً بقدرته الخارقة في الحسد، أسرع ناحيتهم وشهق وهو يتأمل انطلاق المركب وسط النيل، وقال لهم: لو أعطيتموني قرشين يمكنني تعطيل هذا المركب الكبير، فسأله جدك ولماذا تريد تعطيله فقال عطية : سيصطاد السمك كله ويترككم جائعين. لكن الصيادين ضحكوا، ثم أعلن الحاج درويش أنه متبرع بخمس تعريفات، وبسرعة فتح عطية منديله المحلاوي القماش وجمع تعريفات و قروشا معدنية، ثم دفن المنديل في جيب جلبابه، ورفع يديه وصرخ في المركب قائلا: قف يا بعيد!

فجأة ظهرت أصوات غريبة كفرقعات وتصاعد دخان أسود، وسكنت المركب الضخمة على صفحة النهر بلا حركة.

***

لا أعرف أين يختفي الكسلُ والملل من الاستيقاظ مبكراً يوم الإجازات والجمعات، أبعدت الستارة قليلا عن الشباك الزجاجي، كان الظلامُ دامساً، قلتُ يا الله ما هذه العتمة المطبقة وعدت للنوم...

برامج كثيرة أحبها على القناة الأولى والثانية، النحلة زينة، الليث الأبيض، توم وجيري، العلم والإيمان، عالم البحار، أفلام نجيب الريحاني وإسماعيل ياسين والنابلسي، مسلسلات تنطق اللغة الفصيحة تذرف تاريخاً حقيقياً وزائفاً وبين بين.

بدأ العرضُ العسكري، أخذتني نشوةٌ، بدأتُ أسير في البيت مشية الضباط، أمي تضحك ويتورد وجهها فرحاً وتسألني هل تحلم أن تكون ضابطًا ذات يوم؟ أؤكد لها رغبتي بفرح ، كانت تقول لي : أنت رقيق القلب وحنون ودمعتك قريبة لن تصلح أبداً لهذه المهنة القاسية.

كانت أسرابُ الطائرات تنفثُ دخاناً ملوناً. فجأةً انقطع البثُ ولم أفهم ماذا حدث، مرت دقائق وحدثت ضوضاء في الحارة والشارع ودوت زغرودة طويلة، نزلت مهرولاً وأسرعتْ أمي للشرفة لتفهم.

دوى الخبر في المدينة كلها، بل في العالم كله :السادات قُتل!

تجمَّعَ الناسُ وخرجوا من البيوت تباعاً وتضاربت الأقاويل، منهم من يؤكد أن الرجل أصبح في ذمة الله، والبعض يقول أصيب، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الخبر يقينياً.

لكن الأمر الذي لم يتقين منه أحدٌ، من هي المرأة التي زغردت لسقوط الرئيس؟

العم عبده - بائع البلح - يتساءل كيف قتله ضباط وجنود؟ من وراء المؤامرة؟

يلمع في ذهنه سؤال دائم عن الكرسي الخشبي الموضوع يومها أمام المنصة، يعود للإشارة إليه متعجبا : الكرسي! الكرسي؟!

أمريكا قتلته لمنعه من إعلان خلافة اسلامية!قال الشيخ ياقوت حانقاً. تدخل الأستاذ طه المدرس وقال : الرئيس المؤمن بدأ يحلم بلقب سادس الخلفاء الراشدين، أمير المؤمنين، ليعلن مصر دولة إسلامية كما أعلنها الخميني في إيران بعد الإطاحة بملكها الشاه رضا بهلوي.

كان سيتخلص من نائبه حسني مبارك، كلام كثير عن علاقته بالمخابرات الأمريكية، السادات قال له غاضباً: الزم بيتك .

حملة الاعتقالات الواسعة طالت رجالا مهمين جدا، في سبتمبر الماضي.

الأستاذ سيد مدرس الفلسفة قال: الجماعة الإسلامية قتلته انتقاماً بسبب إهانته للشيخ المحلاوي، السادات وصفه بالكلب الملقى في السجن، و الإسلامبولي قرر التخلص من الفرعون الجديد والانتقام منه لأنه سجن أخاه.

لا. لا. بسبب معاهدة كامب ديفيد مع الإسرائيليين، وانغماسه في الصداقة والود مع الصهاينة وضحكاته ولطفه معهم كأنهم عائلة

واحدة، هل شاهدت جلسته مع جولدا مائير؟! قالها الأستاذ طه، ثم ارتفعَ الصخبُ وأفسد تداخلُ الأصواتِ العاليةِ تدفقَ المعلومات.

يا أحبابنا لم تقتله سوى أمريكا ورتبت كل شيء لذلك وأعدت الرجل البديل، ووجدت اليد التي تستخدمها في التنفيذ وتركت الجماعة تنفذ جريمة الاغتيال. قال الحاج رضوان تاجر العلف.

- ولماذا تتآمر أمريكا عليه بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد وزيارة السادات لإسرائيل وانهاء الحرب وتغير خريطة الصراع وظلت إسرائيل محتلة لفلسطين والجولان وأجزاء من سيناء لم تقم بإخلائها بعد؟!

أنهى الأستاذ سيد سؤاله ووضع ساقاً على ساقٍ وأشعل سيجارة سوبر بعود كبريت أمريكي مستورد، يمر عبر جمارك بورسعيد مع آلاف البضائع المستوردة.

- رغبة خالد الإسلامبولي في اغتيال السادات والتي غلَّفها برغبته في الانتقام لأخيه المسجون، لم تكن كافية لقتل رئيس، كل الوشائج التي ربطت مصر بالدول العربية كانت تمزقت تماماً بعد كامب ديفيد، ولكي تعود العلاقات العربية المصرية لطبيعتها كان لابد أن يخرج السادات من الصورة، العملية الكبيرة كانت بحاجة لضوء أخضر من السيد الكبير العم سام، ولابد من إرضائه وإسكاته ليكتمل الأمر، ضوء أخضر من غرفة أمريكية لغرفة عربية لأصابع الإسلامبولي ومجموعته، أنجز المهمة الخطيرة، عملية الاغتيال

فشلت بالفعل منذ اللحظات الأولى، لأن الرصاصة الأولى لم تقتل الرئيس، وكانت النتيجة الطبيعية للهجوم هي مقتل جميع المهاجمين، لكن كان واضحاً أنَّ هناك إرادة أعلى وأقوى قد حسمت الأمر وأنهت حياة فرعون جديد كما كان يصفه الإسلامبولي دائماً.

أنهى الرجل العجوز الغريب كلماته، ومضى لحال سبيله والجميع يتأملونه بدهشة وهو يستند على عصاه الجميلة التي تبدو مصنوعة من ناب فيل مزينة بحلقات ذهبية، فمهُ لا يحتوي إلا على أربعة أسنان فقط، اثنتان في الأعلى والأسفل، كما توهَّم حدسي حالة الأسنان في فمه بلا يقين بالطبع، دائماً ما يبدو الفمُ الآدميُ الذي فَقَدَ أضْرَاسَهُ في الصفين الأسفلين كسيارةٍ مَصدومةٍ بقوةٍ على الجانبين، كأنَّ الخدَّ فَقَدَ الجدارَ الذي استند عليه سنوات الشباب والقوة. الرجلُ الغريبُ عيناه ماكرتان كثعلبٍ ولحيتهُ بيضاءُ شَعْرَاتُها محدودةٌ تُشبهُ رأسَ حربةٍ منكفئة باتجاه رقبته، وفي يده اليسرى خاتمٌ كبيرٌ بفصٍّ أحمر، وكلما جاءت عيناي في عينيه أشعر بانقباض في صدري، رغم غرابة الرجل تجاهلوه وعادوا للمناقشة، لكنني أخذت أعصر ذاكرتي كعود قصبٍ لأتذكر متى وأين سمعت هذا الصوت ورأيت هاتين العينين؟ ربما في الحقيقة أو ربما في أحد كوابيسي.

الإيمان

كُنَّا ننتهي من مشاهدة فيلم الرصاصة لا تزال في جيبي ونهرول للشارع، ننزل من البيوت كل الأولاد، بدون سابق تنسيق ثم نلعب لعبة الحرب، نمسك رشاشاتنا الخشبية ونطلق الرصاص على الأعداء، نقلد أصوات الإطلاق بأفواهنا، ننقسم لفريقين ونتقاتل .

كُنَّا نكبرُ وتطولُ قاماتنا وكانت البيوتُ تكبرُ وتتكاثرُ مثلَ الناسِ، تختفي أشجارُ النخيلِ وتتحولُ غيطانُ الذُرةِ لبيوتٍ حمراءَ، الطوبُ الأحمرُ والإسمنت يلتهمان الجهات الأربع، عمائرُ الإسكان تتكاثرُ، الأرضُ تضيقُ وتبتعدُ السماءُ، حيواناتُ النِّمسِ انقرضتْ، صَارتْ الذئابُ أساطيرَ في الحكايات القديمة، انتصبتْ أعمدةُ الإنارة، زحفتْ الكهرباءُ والتلفزيونات وَغشيتنا الحضارةُ وتلاشتْ ملامحُ القرية الصغيرةِ وأصبحتْ العزبةُ مُربعاً صغيراً في المدنية .

كانت أمي ترسلني بأطباق المحشي والملوخية والمكرونة والبصارة وكحك العيد وخبز التنور للجيران القريبين، وكان الجيران لا يردون الأطباق فارغة، بل مملوءة من كل ما تم طهوه، فطير، عيش، مشلتت، قطع لحم، صدر بطة، كانت الحارة كأنها تأكل على مائدة واحدة مشتركة أحضر كل واحد مما طهاه في البيت وجاء به للمشاركة.

يتسامرون عبر الشرفات وعتبات البيوت والزيارات، يساند الجميع ..الجميع في الأحزان والمرض والمصائب، كانت الحياة

تبدو عائلية حميمية رائعة، كأن الحقد والكراهية لم تكن ولدت في تلك الأيام، وكنت أظن في عقلي أن الحقول الخضراء والنخيل وأشجار الجميز والتوت والنبق وروائح الورد والأراضي الشاسعة قد طبعت قلوب البشر بطبيعتها فكانت تصرفات الناس تجاه بعضهم البعض خضراء مبللة بالندى، دون أن يكون لظلال التدين أي سلطة أو دور في الأمر، كانت المحبة سائدة، المحبة والكرم والعطاء والنفوس المتسامحة.

لم نكنْ نسمعُ كلمةَ شيخٍ كثيراً سوى في معهدنا الأزهري الجديد، ولم أر أبداً امرأةً ترتدي نقاباً، كانت الحشمة ملاءة سوداء وبرقعاً على الوجه، ولم تكن تستقرُ في عزبتنا كلها بائعةُ هوى، لأنه لم يكن يُمكنُها البقاء وسط أناس طيبين عفويين محتشمين بالفطرة، ولولا المساكن الشعبية الجديدة لما أصبحت عناوينهن معروفة كصاحبات الرايات الحُمر في الجاهلية وزمن أفيال أبرهة الأشرم، كان الشيخ محمد رجاء يحكي لنا عن الأشرم صاحب أشهر حملة على مكة لهدم الكعبة، بعدما بنى كنيسة في اليمن أسماها القُلّيس وعندما قال له كبير مكة السيد عبد المطلب أنه يعنيه فقط أمر إبله التي سلبها جيشُ أبرهة - وكان الأشرم قد استعظم شأن عبد المطلب وجلس معه على بساط واحد - سأله متعجباً أتهتم لأمر الإبل ولا تهتم ببيت أجدادك وعماد ديانتك؟ فقال له كبير مكة : أما أنا فأنا رب الإبل وأما البيت فللبيت رب يحميه. وغضب أبرهة وأصرَّ على هدم الكعبة وجاء بأفيال ضخمة من أفريقيا وعبرت البحر الأحمر من

أثيوبيا لليمن واستهدفت الكعبة، لكنَّ الله أرسل طيوراً خرجت من البحر و جاءت في صفوف هائلة وأعتمتْ السماءُ في وضح النهارِ كيومِ وفاةِ الملكِ داود، وصوَّبتْ تجاه الجيش الكبير قذائفَ من طينٍ جُهنمي اسمهُ السِّجيلُ ودمرته بالكامل وأصيب أبرهةُ إصابات كثيرة في مناطق متعددة من جسده ومات موتاً بطيئاً، بعدما نقلوه إلى اليمن بعد سحق جيشه، سألت أستاذي هل تبقى الكعبة آمنة للأبد قال : سيجيئ رجلُ من الحبشة قبل نهاية العالم ويهدمها تماماً وينقلُ حجارتها على الجمال والأفيال ويلقيها في البحر.

فسألته هل من الممكن أن يكون من نسل أبرهة ؟!

ابتسم الشيخ ومسح على رأسي بحنان الأبوة ودعا لي وأعطاني قلما هدية.

نظرت للقلم بشفقة، ولاحظ أستاذي عدم فرحتي بالحدث الذي ملأ قلوب زملائي غيرة وحسداً، وقال: لم تعجبك الهدية؟

قلت: كل هدية منك هي جميلة يا شيخي الجليل.

نظر في عيني وقال لي: سأحضر لك هدية غداً، هدية ستعجبك.

قلت له: خذ قلمك إذا وأنا سأنتظر هديتي.

أمسكني الأستاذ من شحمة أذني وفركها برفق بين أصبعيه فتألمت، ونظر في عيني نظرة جادة تخفي غضباً وحزناً، قال: عندما بدأ الله

الخلق، خلق القلم ثم خلق اللوح المحفوظ ليكتب فيه ما كان وما سيكون.

قالت زميلتي فاتن: وهل يحتاج الله لقلم وكتاب يا شيخنا؟!

- لا يا فاتن بل نحن من نحتاج الكتاب والقلم، الإنسان سُمي إنساناً لكثرة النسيان، والعلم بحاجة لكتب تحفظه وأقلام تدونه، إن الله أراد أن يعلمنا كيف نحتفظ بمعارفنا وعلومنا، كان يستطيع الله جل شأنه أن يجعل كتبه السماوية نقوشاً خالدة على جدران معابد لا يبليها الزمن ولا عوامل التعرية، لكنه أنزل كتبه صحفاً وألواحاً، الله أراد أن تبقى كلماته في عقل وقلب الإنسان، وليس على الجدران والحجر كما تركها الفراعنة، الله قال لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن.

تعجبني هذه الفتاة، يمتلأ قلبي فرحا عندما أراها، عندما تتكلم، عندما تتنافس معي على الدرجات النهائية، كل شيء فيها يدفعني لمحبة حياتي.

وضع الأستاذ يده على كتفي وأمرني بالجلوس فعدت للفصل من رحلتي في دنيا الأحلام، لكن بدلا من الجلوس والصمت سألته سؤالا جديدا: لماذا خلق الله الإنسان؟

أمرني بالجلوس وجلس هو الآخر على كرسيه في منتصف الفصل، تنهد ثم أخرج مسبحته الفضية من جيب جلبابه الصوف الكثيف

الأنيق، كما يليق بابن عمدة، صلى على الرسول الكريم واستعان بالرب الرحيم وأمرنا بالصمت والهدوء والإنصات وقال: هذه الأسئلة أكبر من أذهانكم، وهي أكبر من أذهان علماء وعارفين، لكنني اتخذتكم أصحابا لي وأحببتكم وأحببتموني، نتناقش في كثير من المسائل، على الرغم من أن بعضكم يرهقني بأسئلة غريبة - ونظر تجاهي ونقل عينيه ناحية فاتن على شمالي- لماذا خلق الله الإنسان؟

إن الله عز وجل قال في الذكر الحكيم " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فالله خلقنا لأجل عبادته، وخلق الرجل والمرأة لتستمر الحياة وإذا عبدناه عبادة حقيقية عرفناه.

رن جرس الفسحة، فانهمك كل واحد من التلاميذ في استخراج سندويتشاته، واندفع الجميع إلى الفناء.

كانت جدتي تخبرني أنه إذا جاء رجل غريب أسفل البيت لينادي على صديق له أو زميل عمل، وصاحب البيت غير موجود، فإن الزوجة كانت تغلظ صوتها كالرجال وترد بكلمتين لا تزيد عنهما دون أن تظهر نفسها: غير موجود.

صوتك صار غليظا! قالت أمي، ولم يمر وقت طويل واكتشفت من ملابسي الداخلية أنني صرت رجلا.

صوتك صار غليظا! كنت أسمعها كثيراً على المقهى، كلما فتحت نقاشا أو طرحت كالعادة أسئلتي الثقيلة التي لا تجد الإجابة الشافية.

في حفل عيد الأم في السنة الابتدائية السادسة، أديت ببراعة دور أدهم الشرقاوي، كان التلاميذ مصفوفين في الفناء وسمير ينظر لي بشرر وحقد دفين من بين الجموع، قلت لنفسي إن المواجهة الأخيرة الحاسمة سوف تقع قريبا، ومع إعلان نتيجة الامتحان النهائي، سيهاجمني سمير!

ترقبت ذلك الهجوم واستعددت لذلك اليوم جيدا، وأنا أفكر في خيانة بدران.

ظهرت النتيجة، أنا من الثلاثة الأوائل، أما سمير فلديه دور ثان في عدة مواد وربما يرسب.

بعدما تفرقنا وهنأتني فتيات كثيرات وبعض الأولاد، ذهبت في طريقي إلى البيت، نسيت عدوي وشره، فاجأني متربصاً لي عند نهاية سور المبنى الملتصق بمعهدنا!

لم أصدق أنه يحمل في يده مطواة، أنا أكره رؤية الدم ورؤية السلاح ترعبني، فكرت في الهرب والجري بأقصى سرعة حتى أصل للمقهى وأحتمي بأقاربي وأهل المنطقة، لكني تذكرت كلمات جدي، نظرت يميني وشمالي، لمحت عيني غصن شجرة كافور غليظ في سمك ذراعي لكنه أطول مني، اندفعت كالبرق وأمسكت

الغصن، كان مكسوراً بشق جانبي جعله كالخنجر، أمسكته كالحربة، كأنني مقاتل في فيلم سبارتكوس.

شعر بالخوف وغلبه تردد قوي وتسمر في مكانه، كان يمكنني أن أهدده وأنسحب بهدوء في حماية غصن الكافور، لكنني تذكرت جرائمه في حقي، ودون إدراك مني لطبيعة ما أفعله طعنته بين ساقيه، صرخ صرخة كعواء كلب وسقط على الأرض يدفع بقدميه التراب كخروف مذبوح، والمطواة ملقاة بعيداً وهو يتلوى ويعوي.

صرخ وتوسل، انتفضت واقفا وتركته وانصرفت.

لا أجيد التشفي ولا أعرف قسوة الانتقام، كنت مشفقاً عليه وقلبي يتمزق لأجله، لكنه غادر وخائن كما عرفته لسنوات.

صعدت سلم بيت جدي وأنا أسأل جدتي عنه، فأخبرتني أنه يسقي الجواميس، نزلت وذهبت مسرعا ولما رآني فرحاً وحكيت له ما كان، عانقني وقال لي : أرحت قلبك.

أعطاني قرشاً ألومنيوم جديداً، قال لي : لقد خلقك الله لتكون شيئاً آخر، أفضل من هؤلاء الأشرار، فلا تضل الطريق.

.

اذهبوا وعودوا ميتين

رصيفُ المقهى احتل مكانة عتبة البيت الكبير في زمن الغيطان الخضراء، أنصتُ باهتمام كبير لحكايات المحاربين القدامى من أهل الحي والزوار والضيوف من المحاربين القدماء، أستمع لتفاصيل البطولات والتضحيات التي حدثت، حكى لي حسين المصري جندي المدفعية، جارنا أنه كان ضمن كتيبة مدفعية على شاطئ القناة الغربي، واصطفت المدافع لدك حصون خط برليف، وأمطروا خط المواجهة بالقذائف الثقيلة، وبدأ العدو يرد، وأصابتهم دانة مدفع وانفجرت بقرب مدفعهم، ولم ينتبه حسين لإصابته، وظل مع زملائه يطلقون حمم المدافع على طول خط المواجهة، حتى نفدت الذخائر، وفتح الأبطال الثغرات المتعددة في الساتر الترابي، وأمطرت الطائرات المصرية خط المواجهة على طول الضفة الشرقية لقناة السويس، ومواقع القيادة والسيطرة في سيناء، ونجح العبور ولاحت بشائر النصر في الساعات الأولى قبل أن يحل ظلام السادس من أكتوبر، لاحظ حسين ثقلاً وألماً في قدمه ولزوجة، ولما بدأ يتفحص قدمه صعقته المفاجأة، فقد كانت قدمه شبه مقطوعة طوال فترة القصف، وعندما أدرك ما حدث لقدمه هوى على الأرض فاقداً للوعي ونقلوه للمستشفى، وظلت أثار العملية الجراحية في قدمه لآخر يوم في حياته.

كانتْ حَارتُنا مليئةً بالمُحاربين الذين شهدوا نصرَ أكتوبر العظيم، لكني لم ألتق سوى بمحاربين اثنين فقط نجيا من هزيمة يونيو عام سبعة وستين وناجٍ واحدٍ من معركة شُدوان.

الأول صديقي المقرب ضابط الاحتياط محفوظ البدراني، مدرس التاريخ عاشق الثقافة والكتب، وأول من أهداني كتاباً عن نكسة يونيو، حكى لي مشاهد محزنة تعتصر القلب، سألته ذات مساءً ماذا حدث هناك في سيناء يوم الهزيمة، غامت عيناه بالدمع الدامي وتنهد قائلا:

لقد هربنا، كنا أكثر من ألف وخمسمائة مقاتل مدربين جيداً، تحت قيادة الشاذلي، لم يكن ممكناً أن نستسلم للذبح أو الدفن أحياء بالجير أو الرمال،على يد عدو خسيس وجبان، دفن المئات من جنودنا الأسرى أحياء، فرشوا المئات على الرمال وداستهم الدبابات، ضربوهم على مؤخراتهم كالمساجين الأشقياء ونزعوا ثيابهم وأهانوهم قبل قتلهم.

بعد ظهر الخامس من يونيو لاحظ الشاذلي أنه لا يوحد في سماء سيناء سوى طائرات العدو، كان الموقف غائماً والأخبار المغلوطة عن انتصارات كاذبة لجيشنا تندلع من الراديو كدخان أسود، تابع القائد إذاعة العدو وبدا له واضحاً أن هزيمة كبيرة لحقت بجيشنا، حاول عدة مرات الاتصال بالقيادة دون فائدة فقرر الاندفاع بقوة في الاتجاه المعاكس.

كنا كتيبة دبابات ومعنا قوات صاعقة ومظلات وفكر الشاذلي بجرأة وعبقرية أن يندفع إلى فلسطين وليس إلى ضفة قناة السويس.

عبر بنا مسافة عشرين كيلو متراً ثم تعمقنا داخل فلسطين لمسافة خمسة كيلو مترات وعسكرنا بين جبلين في صحراء النقب وعرفنا طريقنا لبئر ماء عذب.

المؤن شحيحة والطيران الإسرائيلي يحوم حولنا لكن يعجز عن إصابتنا أو يفكر في خيارات لا نعرفها.

وفي ليل اليوم الثالث انسحبنا بسلام ووصلنا للشاطئ وعبرنا الضفة.

قرار الانسحاب الذي أصدره عامر أهدر دماء الآلاف وضاعت أرواحهم سدى دون دخول معركة، اصطادتهم طائرات اليهود بقنابل النابالم والرشاشات الثقيلة وأحرقتهم في الصحراء المكشوفة، نحن بدأنا التوغل في سيناء، صنعنا عرضاً عسكرياً وأرسلنا القوات والحشود، لكن وصولك إلى ساحة المعركة مبكراً لا يعني أنك ستكون الفارس الأول، أشعلنا حرباً دعائية دون استعداد ودراسة ودفع الجنود حياتهم ثمنا لطيش سياسي، كنا ننسحب منهزمين، والعدو لم يرحمنا، استغل الفرصة وقتل خيرة شبابنا، كنا في حفل شواءٍ كبير، جثث الجنود كانت تنتشر على الرمال في كل مكان، محترقة الذراعين والقدمين والرأس، العدو لم يرحمنا ، لم ينج إلا القليل ، طائرات السوبر ميستر والميراج كانت تقوم بطقوس

احتفالية أثناء تعقبنا ونحن ننسحب كخراف حاشدة بالآلاف في صحراء سيناء المكشوفة، في اليوم المظلم، يوم المذبحة، يوم هربنا من هناك، جائعين، ظامئين، منكسرين، نحمل عار الهزيمة والانكسار.

هل تعرف ما الذي هزم خمسة جيوش عربية ؟ عندما تعرف حقيقة ما جرى ستفهم أن نصر أكتوبر أعظم كثيراً مما تظن، وأن هزيمة يونيو وراءها أسرار مخزية جداً ومريرة وصادمة.

على مقهى الحي يجلس دائماً محاربون قدماء، يلعبون الدومينو والطاولة ويشربون الحلبة والينسون أغلب الوقت، ليس لديهم حكايات سوى ما حدث في سيناء منذ دهمتهم الهزيمة وحتى عادوا إلى هناك للثأر.

تقربت إليهم برقة وأدب، يدفعني الفضول لأعرف، أجلس بالقرب منهم، أشجع اللعبة الحلوة، وعندما يدب الملل وينتهي اللعب ألقي بالأسئلة كالجمرات المتوهجة فيتدافعون في الإجابات ويقصون أعجب الحكايات.

أكبرهم سنا هو حسين المصري، كهل طويل القامة، حنطي البشرة، يبدو أكثر حيوية ونشاطاً من شباب كثيرين، أب لولدين وبنتين، انتقل إلى مدينتنا الهادئة من السويس الباسلة، بعد قصفها وتهجير أهلها بعد هزيمة يونيو واستقر به المقام في مدينتنا العاملة، وفتح محل ملابس، وألحق الأولاد بمدرسة طه حسين.

الثاني هو محفوظ البدراني، رجل قوي البنية، متوسط القامة، وجيه، رزين، لا تخفي وسامته على عين، مدرس تاريخ وصديقي، قربت الكتب والمعرفة بيننا، هو من حارة البركة وهي حارة شهيرة تتوسط قلب دمياط القديمة، أرمل ولديه ولد واحد معار للسعودية منذ سنوات طويلة ولم يزر مصر منذ سنين، ويرسل لأبيه الذي تجاوز الخمسين نفقة شهرية دائمة، ادخر منها الأستاذ محفوظ مبلغاً جيداً في مكتب البريد الكبير في ميدان البوسطة بوسط البلد.

محفوظ حارب في اليمن، لعدة أشهر قبل انسحاب الجيش المصري منها، ونقلوه من اليمن لرمال سيناء ليسقط مع رفاقه تحت رحمة الغدر الصهيوني وقنابل النابالم وطائرات المستير والميراج، ونجا من الموت بمعجزات كثيرة .

الثالث هو عبد الغني داود، صاحب مقهى صغير، تشعر كأنه جمل يتهادى يسبقه ظل ضخامته إليك، كأنه من نسل الألمان، جميل الملامح، أزرق العينين، وجهه كزهرة ياسمين، كان جندياً في الفرقة الرابعة مشاة، تم تجنيده في حرب الاستنزاف في تسعة وستين، وكان يملك شجاعة نادرة، وحكى لي حكايات عن عمليات قنص وأسر لجنود صهاينة، وهجومات ليلية وعبور للضفة الشرقية والعودة بنشوة النصر في أحلك سنوات الهزيمة.

الرابع هو إبراهيم شبرون، منجد مراتب، لا ترى شعرة بيضاء في رأسه الأعزب، ولا تعرف له عمراً، كأن الزمن توقف في عامه

الثلاثين رغم اقترابه من الخمسين، فنان في صبغ شعره وشاربه، مدمن كرة قدم ومتعصب للزمالك، يعيش الحياة بالعرض فقط، كان جندياً في الدفاع الجوي، حكى لي قصصاً رائعة عن سام ستة وسام تسعة، وهي الصواريخ التي أسقطت الطائرات الإسرائيلية وأفقدت إسرائيل توازنها وتفوقها العسكري الذي تغنت به طويلاً.

الخامس هو منير عدنان وهو متقاعد برتبة لواء وهو الناجي الوحيد في مدينتنا من معركة جزيرة شدوان، رجل شديد، قوي، بنيانه الرياضي كأبطال الملاكمة، أب حنون، وكل ذريته بنات، يبدو وجهه كطائر جارح، وعيناه كصقر تشعان ذكاءً ومكراً ودهاءً.

أما الوحش الكاسر كابتن سيف ضرغام بطل الصاعقة المفتون بالسلاح الأبيض وعمليات الإنزال الليلي الخاطفة في حرب الاستنزاف وأكتوبر فكان يسبب لي صدمات دائمة في وجهات نظره القاسية وطبيعته الحازمة الصلدة كالصوان .

سيف ابن بحر، حرفته بناء سفن الصيد من الأخشاب والأشجار، وهو صياد ماهر وسباح برمائي كأنه سمكة قرش وصانع شباك محترف، يغزلها بيديه، ويكتب خطوطاً بالألوان الزاهية على المراكب التي يبنيها ويصنعها باقتدار ويرسم عروسة البحر والدلافين بعد طلاء السفن والمراكب، قريته مشهورة وتحمل لقب عائلته، يناديه الجميع كابتن سيف، ابنته الوحيدة أخذها البحر، ويجد

مواساة كبيرة في رسم ملامحها في كل الوجوه التي يرسمها على جوانب مراكب الصيد.

في ليلة ماطرة من ليالي شهر طوبة البارد، كان المحارب القديم محفوظ البدراني يجلس وحيداً واجماً صامتاً في ركن خافت الإضاءة من المقهى، بين يديه كتاب، ألقيت عليه السلام وجلست ، طلبت كوبين كبيرين من مشروب السحلب.

حاول التملص والاعتذار لكني واجهته بعبارة حاسمة خيرك سابق وأنا مثل ابنك.

أخذتنا الحكايات بعيداً حتى واتتني الفرصة لأسأله ما الذي حدث في سيناء في يونيو ١٩٦٧؟ وكيف يمكنني التصديق أن تنهزم كل هذه الجيوش العربية من مصر والأردن وسوريا والعراق وفلسطين أمام الصهاينة ؟!

تنهد المحارب القديم وقال بحسرة: الانهزام.

لم يهزمنا إلا هو وروح الاستسلام وأخذ يحكي لي باستفاضة حقيقة ما جرى يوم الخامس من يونيو سبعة وستين وما تلاه من أيام سوداء عصيبة دامية حصدت آلاف الشهداء من خيرة شباب العرب.

رفع الكتاب أمام عيني وقال هنا كل شيء، هنا الحقيقة المرة المذهلة، ووضع أصبعه في جانب رأسه كفوهة مسدس!

كان الكتاب بدون غلاف، وتطوع محفوظ لتغليفه بورق مقوى كما يحدث في المكتبات الكبيرة عندما يبلى غلاف كتاب، أخذت الكتاب من يديه لأتبين ما هو ومن مؤلفه، لكن صفحات كثيرة ناقصة من البداية والنهاية.

قلبت السحلب وقدمت له كوباً، وسألته هل تريد الملعقة؟

ابتسم وقال :لا.

استغرقت في التهام الجوز والزبيب والسوداني وأنا أتلذذ بطعمه ورائحته المميزة.

رشف أول رشفة من كوبه وطقطقت حبات الفول تحت أضراسه وقال : البداية لم تكن في سيناء ! البداية كانت في اليمن!

دخلنا في مواجهة عقيمة في اليمن، كان قراراً خاطئاً، بريطانيا وإسرائيل ودول أخرى وقفوا جنباً إلى جنب ضد مصر على أرض اليمن السعيد، بدأنا التواجد هناك بفرقة واحدة وبلغ عدد جنودنا خمسة وخمسين ألف جندي مات نصفهم هناك، تخيل، سقط خمسة وعشرون ألف جندي وضابط مصري في اليمن بسبب قرار خاطئ، كانت إسرائيل تدعم قوات الإمام أحمد في اليمن بالسلاح والذخائر، بدعم وتعاون من بريطانيا وإيران ودول أخرى، ويتدرب الطيارون الإسرائيليون على الطيران لمسافات طويلة، ودرسوا قدرات

الجيش المصري الوليد ونقاط ضعفه، إسرائيل استعدت جيداً لحرب يونيو ولم يكن قرارُ الحرب عشوائياً ولا دعائياً.

عاينت ودرست هزائم وانتصارات وتكتيكات الجنود المصريين في اليمن، رأت كيف يقتلُ العربُ بعضهم بعضاً وتسقطُ الأخوةُ والعروبةُ تحت فوهات البنادق! كانت اليمن مستنقعاً للقوات المصرية، قسمتْ ظهرَ مصر وأنهكتها وجعلتها فريسةً مُهيأةً لأيِّ هجومٍ قويٍ مدرُوس.

عندما صدرت الأوامر لقواتنا بالاندفاع إلى سيناء، لم نكن مؤهلين للحرب، ولا مدركين لحقيقة ما يجري، كانت أمريكا وفرنسا وبريطانيا وإسرائيل ودول أخرى تسعى لتحطيم ناصر وكسر ظهر مصر وتدمير جيشها.

- لا أصدق أن عشرات الآلاف من القوات اندفعت في صحراء سيناء المكشوفة بدون خطة مدروسة ولا حماية جوية ولا وسائل اتصال حديثة.

- كان القرار خاطئاً مثل قرارات كثيرة خاطئة كالتورط في اليمن وطرد القوات الدولية من سيناء وإغلاق مضايق تيران.

كان ناصر يتصرف كإمبراطور قوي قادر على تحدي العالم لكنه في الحقيقة لم يكن عالماً بحقيقة الأمور وحجم قوته ومن معه ومن عليه.

قبل هجوم الطائرات الإسرائيلية على مطاراتنا العسكرية وتدميرها بالكامل وردت إشارة مشفرة من مركز الرادار في عجلون بالأردن تفيد أن إسرائيل بدأت هجوماً جوياً وكانت الشفرةُ هي عنب.. عنب، والتي تلقاها ضابطٌ مصري بعدما كانت الطائرات الإسرائيلية تضربنا في العمق في بني سويف والأقصر.

وعندما نفذت إسرائيل خطتها بنجاح في تدمير قواتنا الجوية ومطاراتنا عدا مطار العريش، لتستخدمه فيما بعد، بدأت العملية البرية الواسعة، ضد قواتنا في غزة ومنها لسيناء.

كان يمكن لقواتنا القتال وإيقاع خسائر فادحة في الجانب الإسرائيلي في حرب برية واسعة، لكن قرار الانسحاب المهين الذي اتخذه عبد الحكيم عامر أهال على رؤوسنا وحل الهزيمة والانكسار قبل أن يحدث بمعناه الحقيقي.

سيظل التاريخ يلقي باللوم على ناصر أنه لم يقم بإبعاد عبد الحكيم عامر مبكرا جدا، كان جوهرُ الكارثةِ أنَّ " ريسين في المركبِ " وهكذا غرقت.

كانت هناك رغبة محمومة لكسر ظهر مصر وتدمير جيشها وسحق عبد الناصر.

إسرائيل لم تكن وحدها أبداً لحظة واحدة، كانت مدعومة من دول الاستعمار القديم ومن دول أخرى أرادت هزيمة مصر ودفعت فاتورة تكاليف الحرب.

إسرائيل لم تكن متفوقة علي الجيوش العربية بالسلاح وأنواع الطائرات، رغم وجود الفارق الكبير بين طائرات الميج الروسية وطائرات الميراج الفرنسية أو الفانتوم الأمريكية، فقد استطاع طيارون أبطال في حرب الاستنزاف التي تلت الهزيمة من إسقاط الميراج والفانتوم بواسطة الميج الأقل قدرة وتسليحا وكفاءة حتى أن أحد طيارينا العباقرة أسقط طائرة فانتوم ونفدت ذخيرته وخزان وقوده وهبط بطائرته الميج على أسفلت الطريق العام، ولم يكن الفرق في الدبابات، ولا في الخطط العسكرية ولا الدعم الهائل الذي قدمته فرنسا وبريطانيا ودول في الخفاء.

ولا خبرة الطيارين اليهود التي اكتسبوها خلال الحرب العالمية الثانية، وحرب الثمانية وأربعين والستة وخمسين!

كان الفارق في شيء آخر!

- ما هو هذا الفارق ؟!نشرب قهوة، وناديت القهوجي أن يعد لنا فنجانين بن مضبوط، لكنه أشار للقهوجي ..سادة ..سادة.

- هل تعرف ماذا كان يقول قائد القوات الجوية اليابانية للطيارين الانتحاريين أثناء معارك الحرب العالمية الثانية ضد الحلفاء وخصوصا الأمريكان؟!

- ماذا يقول؟!

- كان يصرخ فيهم قائلاً: حاربوا بأيديكم فإذا قطعت أيديكم قاتلوا بأرجلكم، فإذا قطعت أرجلكم قاتلوا بأسنانكم! فإذا سقطت أجسادكم قاتلوا بأرواحكم، اذهبوا وعودوا ميتين!

كان اليهودُ يُقاتلون لآخر جنديٍ وآخر رصاصةٍ وكنا نحنُ ننهزمُ ونحن ما نزال أقوياءً وقادرين على النصر لكننا انهزمنا من الداخل قبل أنْ يهزمنا العدوُ وتركنا سلاحنا وعتادنا وذخائرنا لم تُستخدم، لو قرأت الملف الخاص بالغنائم التي حصل عليها الصهاينة من جيوش مصر وسوريا والأردن ستصاب بذهول كبير، أرقام لا تصدق.

تخيل، رسالة ناصر للأسد في سوريا هي التي منحت موشي ديان الضوء الأخضر لضرب سوريا واحتلال الجولان، لقد منحنا أعداءنا أكثر مما حلموا به في أعظم أحلامهم بسبب انهزامنا المخزي غير المفهوم.

العرب كانوا ينتظرون حدثاً كبيراً وتدخلاً قوياً من الاتحاد السوفيتي، وبينما كنا في مصر وسوريا ننتظر أنْ يُظهرَ الدبُّ

الروسيُ أنيابه ويَنهي الحربَ قبل وقوعها، كان اليهودُ يؤمنون أنَّ الاتحاد السوفيتي يعوي أكثرَ مما يَعضُّ.

إسرائيل لم تتوقف عند هزيمة الجيش المصري واحتلالها لسيناء، بل وصلت بها الجرأة لمحاولة احتلال بورسعيد، وقصف الإسماعيلية والسويس وعمليات إنزال على الطرق في العمق المصري على سواحل البحر الأحمر وخطف جنود وموظفين ومدنيين كأسرى.

لم أذق طعم الراحة أبداً إلا بعد انتصار أكتوبر١٩٧٣، رغم لذة النصر مازالت في قلبي غصة دامية كلما مرت ببالي أحداث الهزيمة، في اللحظات العصيبة يسقط الجميع ويبقى الله معك.

- ونعم بالله، لكن لماذا يسمونها النكسة!

- هذا تزييف للوعي لقد كانت هزيمة مخزية وجريمة في حق الآلاف من شبابنا الذين بلعتهم صحراء سيناء محترقين، الحقائق الكاملة تظهر في نهاية الطريق يا صديقي.

- هناك أمر أريد أن أفهمه.

- ما هو؟

- هنري كسينجر وضع أكثر من ثلاثمائة طائرة شحن كبيرة في خدمة إسرائيل ونقلت أمريكا إليها آلاف الأطنان من الأسلحة

المتطورة التي لم تستخدمها أمريكا نفسها ورغم هذا التفوق العسكري الهائل انتهت الحرب بعملية الثغرة ثم مفاوضات الكيلو مائة وواحد، ما الذي منع إسرائيل من ضرب مصر، والاستمرار في الحرب بعد حصولها على دعم هائل غير محدود من أمريكا.

- إسرائيل لم ترتدع بسهولة كما تظن، لكن سقوط أكثر من ثلاثة عشر ألف قتيل إسرائيلي في الأيام الأولى من الحرب قلبت الموازيين، لم تكن جولدا مائير لتسمح بخسارة جندي آخر، كانت ردود الأفعال داخل المجتمع الإسرائيلي عنيفة جدا بعد تسرب أخبار القتلى اليهود، لأن حرب يونيو لم تخسر إسرائيل فيها سوى تسعمائة جندي وهي تحارب في سيناء والجولان والحدود الأردنية والضفة الغربية والقدس، ثم تخسر ثلاثة عشر ألف قتيل في أيام معدودة في سيناء، كان الأمر كارثيا، موشي ديان فكر جديا في استخدام الأسلحة النووية الإسرائيلية، لكن مائير رفضت الفكرة، خوفا من انتقام عربي وإسلامي واسع سيؤدي لا محالة لزوال إسرائيل، كانت تظن العرب بنفس القوة والعزة التي تملكها هي نفسها كامرأة حديدية، وعندما قررت القيادة العامة للقوات المسلحة سحق أرئيل شارون وقواته التي اندفعت من ثغرة (الدفر سوار)، هدد هنري كسنجر السادات أن قنبلة نووية سيتم إسقاطها على مدينة مصرية تعدادها مليونا نسمة، ملفات أكتوبر وحقائق الحرب كبيرة جداً، الزمن كان يتمدد بشكل خرافي، والأيام المعدودة للحرب كانت كأنها سنوات من القتال، والتفاصيل مرعبة، عندما شاهد موشي ديان

مخلفات معركة المزرعة الصينية في الصباح، والتي دارت ليلا بين دبابات مصرية وإسرائيلية أصابه ذهول ورعب لازمه لنهاية حياته، دبابات يا كامل تتلاحم في القتال لمسافة قريبة جداً لأقل من كيلو متر أحيانا، الموت أمام الموت، ماسورة الدبابة تكاد تكون أمام الماسورة الأخرى لقرب مسافة التلاحم، كان مشهداً مُرَوِعاً أوضح لموشي ديان أن مصر هذه المرة جاءت لتحرق وتنتقم وتنتصر.

- هل كنت خائفاً من الموت؟

- أبداً كنت أنتظر الحرب كما أنتظر مدفع الإفطار.

- كنت ستحارب لاسترداد أرضك؟

- لا. كنت أنتظر الانتقام، إن هدفنا كلنا هو الانتقام لشهدائنا في ٦٧.

- تقصد أن هذه الحرب الدامية لم يكن هدفها تحرير سيناء؟

- لا. هدفنا جميعا هو الثأر كنا نتلهف للانتقام من اليهود وإذلال إسرائيل.

- لكن إسرائيل متطورة عسكرياً وتدعمها أمريكا وبريطانيا وفرنسا هل كنت مطمئناً لقدرة الجيش المصري على كسب الحرب.

- لا. كنت مطمئناً أننا سنملأ بيوت إسرائيل بالأيتام والأرامل ونكسر أنف موشيه ديان ونرى انهيار جولدا مائير وقد فعلنا ذلك يا كامل.

- أمريكا لم تترك ذلك يحدث بسهولة وصنعت الثغرة ودعمت إسرائيل بشكل مفضوح وعلني، كسينجر نفسه تحدث أن ماء وجه إسرائيل الذي حفظه لها في (الدفر سوار) لم تحلم به جولدا مائير ولا ديان.

- الله أكبر من أمريكا، وما النصر إلا من عند الله، ما فعلناه في أكتوبر سيظل درساً مرعباً لليهود إلى الأبد، وأن مصر سوف تعود دائماً في أي وقت للثأر والانتقام ومن يستغل ضعفها اليوم سيدفع الثمن غاليا غدا، مصر صعيدية حرة يا كامل.

- يدهشني حبك الهائل لمصر، رغم أنها نسيتك وأهملتك أنت وكل المحاربين القدماء، لا تكريم ولا معاشات استثنائية ولا أي تقدير يليق بتضحياتكم الكبيرة.

- حب البلد يا كامل لا يرتبط بالأخذ والاستيلاء والحصول على غنائم وفرص وثروات، هو حب غريزي غير مفهوم، أشبه ما يكون برجل يصيب عامود الفقري بأذى ويمزق ثيابه وهو يزيح شجرة من طريق الناس، الحياة معوجة وفاسقة يا صديقي ولو أصبحنا كلنا مثلها في دناءتها وقذارتها لاحترق العالم، أحيانا أتوهم أن الله يترك الحياة تستمر بسبب وجود أشخاص طيبين يمكنهم العطاء والتسامح والتضحية.

هذا الكتاب هدية لك، هيا بنا فقد أشرقت الشمس.

خرجت من المقهى حزينا غارقا في الأفكار والتخيلات، أرعشني رذاذ الماء المتقاطر على وجهي للمطر الناعم، رفعت وجهي لأعلى، كانت جدتي تجمع الملابس والجلاليب والسراويل القطن والطواقي القماشية البيضاء، أشارت لي أن أصعد فصعدت، سألتني لماذا أمشي غارساً عيني في الأرض، صامتاً ولا أغني كالعادة، ابتسمت لها وقلت لا شيء يا نينا.

أحضرت لي كوب لبن بالحلبة وطبقا به قطع قراقيش مصنوعة من الدقيق واللبن والملح والسمن البلدي، وأخذت أقضم جزءً منها ثم أغمسها في الكوب لتتشرب اللبن ثم أضعها في فمي فتذوب.

- تسلم ايديك يا نينا، قراقيش حلوة جدا.

- بالهنا والشفا يا حبيبي مطرح ما يسري يمري .

جلست وفتحت الكتاب لم أملك صبراً حتى ذهابي للبيت، صفحة وراء صفحة وتبللت الصفحات بدموعي وأخذت أنتحب كطفل يتيم مات أبوه وأمه وأخوته أمام عينيه في قرية فلسطينية هاجمها الصهاينة وعصابات الهاجاناه المسلحة، التي صارت جيش الدفاع الإسرائيلي بعد إنجاز المهمة وإرهاب أهل فلسطين بالقتل والترويع والتهجير.

- ما لك يا ابني ليه بتبكي؟

- أقرأ عن هزيمة سبعة وستين يا نينا.

جلست بجانبي وقالت: اقرأ وأشركنِ معك.

ما تزال جدتي تصحو مع الشمس، الكهرباء والتلفاز لم يغيرا من طبيعتها أي شيء، في المغيب تنجز كل أشغالها وتطبخ وتخبز وتنظف، تضع رأسها على الوسادة وتترنم بالأشعار

(في البحر لم فوتكم في البر فوتوني

بالتبر لم بعتكم بالترب بعتوني).

أسالها عن التبر والترب، تتنهد وتريني قرطها الذهبي ثم تذكرني بالتراب وحقيقة الإنسان.

قالت : ذات صباح باكر في موسم الأرز اصطاد جدك قرموط كبيراً من قناة صغيرة بعد نضح مائها، ولما جاء به حياً للبيت لاحظت أن على ظهره فوق قفاه كتابة تشبه الكتابة الخضراء بماء النار على أكتاف بلطجية المولد، وأخبرت جدك أنه يبدو طلسماً سحرياً لأذية رجل أو امرأة، ظللت أحك الطلسم بحجر فخار أسود أستخدمه في تنعيم الكعبين، والقرموط يتلوى ويقاوم وينزف القليل من الدماء، حتى زال الطلسم تماماً، وعندئذ طلبت من جدك أن يطلق القرموط في النيل، فأخذه وألقاه في النهر فانطلق القرموط في أعماق الماء، وعاد جدك إلى البيت حزيناً على هذه الوجبة الدسمة التي ألقاها بيديه في الماء وهو يتمتم : مشورةُ الست تُؤخرُ.

بعد مرور شهر تقريباً، كانت فتاة مريضة بمرض عقلي تسكن على مقربة، في الغيط المجاور، شاهدناها ذات صباح ترتدي فستاناً جميلاً وحذاء وتسير بسلامة وفرحة كأي إنسانة طبيعية لم تمرض من قبل، يومها آمنت أن الأذى المطلسم فوق رأس القرموط كان يخص هذه الفتاة المسكينة ولكن الله صرفه عنها.

كانت جدتي لأمي إذا فقدت شيئا أخبرتني وما هي إلا لحظات حتى أجده، وكانت تقول لي : فيك شيء لله.

جدتي رفيقة، امرأة عبادات وصلوات وحكايات، أتوهم أنها تضيء في العتمة كالمصباح، ربما لأنها حسناء بيضاء كالبدر وتلمع دائما كحبة لؤلؤ، كل شيء حولها نظيف جدا مهما كان بسيطا، لا أشبع من حكاياتها أبداً، صبت لي كوبا من الحلبة وأظهرت لي تفاحة وموزة كأنما أتت بهما من الجنة من مكان خفي لا تراه الأعين.

- احك لي عن أحوالك، لون وجهك داكن! أحرقتك الشمسُ ويبستَ وأصبحت كعبد حبشي، سأطلب من جدك حسن أن يذبح لك عدة حمامات لك ولأخوتك. توقف عن الجلوس في الشمس ليسترد وجهك لونه القمحي.

مرت لحظات صمت تتفرس وجهي فيهن كأنها تقرأ في قاع فنجان بن، تنهدت وسألتني سؤالاً مفاجئاً.

- انت بتعمل حاجة غلط يا ولا ؟!

- أبداً والله، المذاكرة تَهد الحيل.

- الله يخيبك...أنت عمرك ما كذبت، مصر غيرتك بسرعةٍ في مشوار واحد، قرأتَ لي الفاتحة في الحسين زي ما وصيتك ؟

لم أتجرأ على هذه الكذبة قلت لها نسيت والله يا نينا، إن شاء الله أول ما أوصل مصر سأقرأ لك الفاتحة أمام المقام الشريف.

- مين اللي واخد عقلك؟ لسة بتمشي مع بنات؟

أردت الرد متعجلاً، وأنا أرتشف الحلبة وأمضغ حباتها المرة باستمتاع، فقفزت حبة لمدخل حلقي فلفظها لسان المزمار، وأخذت أكح وانقطعت أنفاسي واحمر وجهي ونفرت عروق وجهي ورقبتي وكدت أموت.

ظلت تضربني على ظهري وأمسكت زجاجة الماء وملأت لي كوبا لأشرب، وطلبت مني أن أنطق الشهادتين، وهي تدعو على من يتحدث في سيرتي بسوء، لكنني أخبرتها أنني شرقت وسقطت حبة حلبة في حلقي وكادت تمر في مجرى التنفس وتقتلني، التقطت أنفاسي وسرحت أفكر، من السهل أن يموت ابن آدم بسبب حبة حلبة أو حبة أرز تعلق في حلقه، وتذكرت حب العزيز كاد يقتلني عشرات المرات ولا أتوب عن شهوة أكله أبداً ناشفاً ومبللا، يا لنا من كائنات ضعيفة وهشة، صدقت جدتي البني آدم ليس فيه غير لسان!

سمعنا وقع أقدام على السلم، قالت: جاء جدك.

قمت مسرعاً وفتحت له الباب، بدا في هيئته الطويلة بعينيه الخضراوين وشعره الأصفر كملك من ملوك الجان كما أتخيلهم في حكايات نينا رفيقة.

عانقني وقبلني ورحب بي ثم فتح حافظة نقوده وأعطاني ورقة خضراء فئة عشرين جنيها، قلت له : شكراً يا جدي وأردت رد يده موضحا لقد كبرت وصرت أعمل وأكسب.

ابتسم وقال لي : خذها وإياك أن ترفض رزقا ساقه الله إليك.

وجلس على أريكة عريضة في الصالة ووضع أكياساً من الورق المقوى، تفوح منها روائح التفاح اللبناني والموز الصومالي.

كان محباً للحياة وأنيقاً ووجيهاً، رغم أنه يكدح طوال اليوم ليبيع الفاكهة في محله الجديد بأرض حلمي الأعصر بمدخل المدينة.

قامت جدتي بتحضير الغداء وأصرَّ أن آكل معه، لكنني اعتذرت بقوة لأنني تغديت بالفعل، وتقبل ذلك مني بأسى وامتعاض فقد كان كريماً جداً، وكان يستحق اللقب الذي أطلقه عليه الناس: حسن النزيه.

فتحت شباك الصالة ونظرت إلى البيوت التي لا يحصيها العدد، وقلت: تتذكر يا جدي كنت أرى مشارف قرية شطا والديبة

كالضباب غارقة في الشبورة الصباحية، وكان النخيل أكثر من أعداد الناس والأراضي الخضراء تمتد لآخر البصر، من أين جاءت كل هذه البيوت يا جدي؟

تنهد جدي وغلبته عبرات حزينة، وقال: الأرض الخضراء دخلت زمام المباني وبيعت بالمتر، ولم يعد أحد يزرع ولا يقلع، بعنا التراب بالسراب، أنفقنا الفلوس الحقيرة وأضعناها وبنيت هذا البيت الجديد، واستأجرت المحل وتاجرت بمبلغ صغير وصرنا أفندية.

- تصور يا جدي أنا شخصياً صدقت ما قاله الناس.

- ماذا يقولون ؟

- يقولون أنك وجدت في عمق الأرض وأنت تحفر للبيت الجديد، قربة مملوءة ذهبا من جنيهات لويس التاسع ملك فرنسا عندما غزا دمياط واحتلها الفرنسيون عاماً كاملاً.

- هذا زمن بعيد جداً، عاشه أجداد أجدادنا منذ ستة قرون وأكثر، ولا نعرف من الذي دفن قربة الذهب، لكنه كان فلاحاً بلا شك، وكان يبدو متعجلا حيث ملأ قربة اللبن بالجنيهات الذهبية، ثم سدها بالطين ودفنها في الزريبة، كانت قربة واحدة يتيمة، أغلب كنوز لويس التاسع فقدها في قرية ميت الخولي عبد الله، أثناء هزيمته الساحقة قبل وقوعه في الأسر.

وعرفت أن بعض أهالي قرية الشعراء وجدوا كثيراً من هذا الذهب.

- كم جنيها وجدته في القربة يا جدي؟ ألف أو أكثر!

- تسعة! فقط تسعة لا أكثر.

- ذلك يعني أن أحد الأشخاص كان يأخذ منها ويعيد دفنها؟

- ربما، عندما وجدتها كانت مغلقة بالطين على لفة من القش الكثير المدسوس بجوف القربة، يعني آخر شخص دفنها لم يكن فيها سوى الجنيهات التسعة.

- يا حسرتاه ضاعت أحلامي في شراء سيارة فيات هباء، وضحكنا وجلسنا نشرب كوبين من الشاي الذي ملأت رائحته البيت كله.

تذكرت صديقي المرحوم نصر، ورائحة الشاي البديعة على كانون النار أمام بيتهم في حديقة الجوافة والليمون، كان أكبر منى بعامين، فلاح نقى بسيط طيب القلب كريم الأخلاق وأصيل المعدن.

لم يكن أبداً صبياً في الثانية عشرة كما يبدو للناس، كان رزينًا وناضجًا وبشوشًا وكريمًا جدًا، لا يمرُّ يومٌ يجيء فيه من قريته السنانية دون أن يعطيني هدية من خير الأرض، بلحًا رُطبًا، حبات مانجو، جوافة، ليمون، ما يأكله في غيابي يأتيني بمثله في اليوم التالي، الصديق الحقيقي يرقى لأكثر من أخ بل هو أقرب، كان نورانيًا تمامًا كما يُقالُ للناضجين المختلفين مبكرًا : ولدٌ ابن موت.

بدأ يلاحظ أنني أتنبأ بأشياء صغيرة قبل حدوثها وبدأ يتشبع بفكرة تصديقي والتسليم إلى أن الأمور التي تحدث معي حقيقية.

كان صوتٌ يُضيء في رأسي ويخبرني بالأمور، وكانت الأحداث تقع، وكنت أنا ونصر شاهدين .

" سنذهب في مشوار طويل، وسنتعب من حمل الأخشاب على أكتافنا، وسنجد في ناصية بيت تحت الشرفة، ثلاثة جنيهات، وسنتشرى قرصي مشبك ومكرونة وهريسة، ونأكل ونستمتع**!**"

ضحك بعفوية وقال : احلم يا صديقي الأحلام مجانًا.

كنا نعمل في ورشة واحدة، من بين الورش الجديدة التي بدأت تنتشر في دمياط وتتكاثر، الورش والمدارس تنتشر معا في قرية تحاول أن تصبح مدينة، أطفالٌ تسربوا من المدارس جمعتهم الحرف المتعددة، وأطفالٌ لم يدخلوا مدرسة أبدًا، وأطفالٌ سيمرون ذات يوم أمام هذه العتبات المغبرة بنشارة الأخشاب وقد صاروا أطباء ومهندسين ومحامين ومعلمين ورجال أعمال، كانت الورش مدارس حياة وتجارب وتأهيل، لن تصدمك الحياة بقسوتها وواقعها المتلاطم، مثلما يحدث معك كطالب مدرسة زيَّفوا لك المناهج وأسموا الأشياء بغير أسمائها وعلموك صفحة واحدة من التاريخ، وعندما تكبر وتعي ستكتشف أن مدرسة الحياة أكثر رحابة وواقعية من مدرسة الكتب والدروس، وأن التاريخ مكتوب دائما في صفحتين متناقضتين والحقيقة صفحة ثالثة، سيكتشفها من يبحر ويقرأ ويعرف.

تساءلت لماذا لا أرى صاحب الصوت الذي يخبرني بأحداثٍ ستقعُ بعد قليل ؟لما لا يظهر لي؟ وتذكرت سؤالي لأمي هل يمكننا رؤية الملائكة؟!

أخبرها أنني أرى صقرًا ذهبيًا في منامي، و أن صوتا يملأ رأسي ويرشدني إلى حيث أجد الأشياء، مبلغا من المال، سلسلة من ذهب أو خاتما مطمورا في الطين، أجده وأنا أحفر الأرض بحثا عن دُودٍ شراقي نصطاد به البلطي. ولم يكذب هذا الصوت أبدا مرة واحدة.

لم أكن أعرف أن فتنة مغرية تتسلل إلى دمائي من ثغرة صغيرة، ثغرة الاعتزاز بالنفس وتزكية الروح، رغم سفاهة نفسي التواقة إلى الحرية والانفلات وارتكاب الأمور التي تورث الندم، كيف لا تُغرقني الفتنةُ وأنا أسمعُ أصواتَ الملائكةِ داخلَ نفسي، في منطقةٍ فوقيةٍ ليست في العقل وبالطبع ليست في القلب، إنها أصواتٌ تترددُ في الفؤاد! وأين يمكنُ تحديد مكان الفؤاد في جسد آدم؟ حيث الروع الذي يتلقى النبوءات والإحساسات الشفافة الخارقة التي نسميها حاسةً سادسةً للتوقف عن التفكير فيها وغرابتها.

رغم تنبؤاتي الصغيرة لم أستطع مشاهدة صديقي نصر يسقطُ صريعًا بالموتوسيكل تحت عجلات سيارة مسرعة، يقودها شاب أهوج طائش من عائلة الغربالي التي تملك الأفران والخبز والدقيق!

اشترت له أمه سيارة فارهة ليدهس بها شابًا طيبًا، قدر هذا أم عبث؟!

كنت أتساءل لو أنني رأيت الحادث قبل وقوعه هل كنت أستطيع تغيير المستقبل؟!

المرات الكثيرة التي رأيت الأحداث تقع فيها قبل حدوثها لم تمنحني أبدا مساحة زمنية أكثر من ثانيتين، أنظر إلى رجل يصعد نخلة عالية ليجمع بلحها الذي طاب واستوى، وفجأة أرى قدميه تخذلانه، وظهره يفقد القدرة على دفع الحزام الذي يحيط إليتيه، ويحفظه متوازنا في حالة دفع عكسي، يضغط بأصابع قدميه على درج النخلة، ويضغط بمؤخرته على الحزام الملتف حولها، وعندما يريد الارتفاع درجة أخرى، يشد بيديه الحبلين ثم يفلتهما وينقلهما لدرجة أخرى في حركة خاطفة كبهلوان محترف، رأيته يسقط قبل سقوطه الفعلي بثانيتين، وقبل أن أفتح فمي بكلمة، هوى إلى الأرض.

ثانيتان زمنٌ قصيرٌ لتحذيرِ شخصٍ ستقعُ لهُ كارثةٌ.

تذكرتُ شاباً جباراً مغروراً بقوته، يتباهى بجسده الرياضي الطويل العريض المتناسق، وأسرته الغنية ووالده السياسي المشهور في مدينتنا الصغيرة، كنت أتسكع على شاطئ البحر في الصباح بمصيف رأس البر ورأيت قارئةَ وَدَعٍ تفرشُ منديلاً على الأرض، تحت أقدام ذلك الشاب وهو يسترخي على كرسي مداد من الخشب والقماش السميك، أخذتْ تقرأ له الطالع عبر قراءة خطوطٍ وهمية ومرئية في باطن يده، وهو يضحك ويستهتر ويحدث أصحابه بسخرية عن المرأة العرافة المخرفة، كانت بدويةً سمراء، في

أنفها قرطٌ ذهبي كالحلقة، وآثارُ حِجامةٍ متكررة على جانبي رأسها، ووشومٌ خضراءُ، ويبدو أنه أهان كبرياءها وكرامتها فاستفزها، عندئذ ثقُلتْ شفتاها، وتوتَّرَ جفناها وارتعشت رموشها بشكل غريب، وبدت كأنها تغيب في دنيا أخرى، والشاب يضحك ويدخن ويضرب بيديه على فخذيه، ويلطم جبهته في هستيريا من التحقير والسفالة، لكنْ فتحت المرأةُ عينيها فجأةً ونظرت إليه بعينيها العسليتين المشوبتين باخضرار معتم وأخبرته بثقة أن فأراً صغيراً رُبَّمَا يقضى عليه قريباً وأنَّ شمسَ حياته أوشكت على الغروب.

ضحك الشابُ بغرورٍ، وحاول إخفاء تَوتُّرهَ ونظرة الهلع التي ارتسمت في عينيه وقال لتغيير موجة الصدمة التي أخرست الجميع :فأرٌ صغيٌر، ها ها ها ها !

وكيف يمكن لهذا الفأر أن يقتلني ؟!

قالت: لا أعرف !

قال لها: (بطلي تخاريف يا ولية) ثم ركلَ الرمل بقدمه فأهاله بقوة على منديل المرأة فأصاب الرملُ عينيها وصدرها ثم انتصب في كبرياء وهو يُعنِّفُهَا بكلماته : لماذا لم تَقرئِي هذه اللحظة؟

بعد خمسة أعوامٍ سقطَ فأرٌ من شُرفةٍ، كان الشابُ القويُ يجلس على مقهى السنترال وسط البلد، على الرصيف الذى يُطلُ على الطريق الرئيسي، سقط الفأرُ من الشُرفةِ في كوب الشاي، انتفض الشابُ

فَزِعَاً وتحرك نصف متر فقط فأصبح في مرمى القدر، جاء شابٌ وسيمٌ في صدره سلسلةٌ ذهبيةٌ مندفعاً بسرعة عالية بسيارته البي إم، من رحم ميدان سرور وبلغ نقطة الالتقاء أمام المقهى فصدم الشاب فقتله فورا، واندفع الفأر المبتل بالشاي الساخن ونزل من ثُقبٍ صغير في بلاعة صرف صحي.

يوم الزلزال

وصلتني بِطاقةُ التنسيقِ عبَر البريدِ، ظللتُ أتَفحَّصُها بفرح، الختم رائعٌ ومبهجٌ، قسم الصحافة والإعلام، المجال الدراسي الذي أحببته، الحلمُ الصغير في عينيَّ عظيمٌ كالهرم في عيني أمي وأبي، كأن نجاحنا فرحةُ إطالةِ عُمر، وبهجة حياة لآبائنا. الثاني عشر من أكتوبر١٩٩٢، شعرت أن الأرض تشاركني فرحتي وتتراقص معي، كنت أضع ورقة بيضاء على مائدة الطعام وأرسم مستقبلي بقلم رصاص، رغماً عني مشى القلم على الورقة وصنع خطاً متعرجاً ثم استقام قبل انتهاء المساحة البيضاء.

تعجبتُ ولم أتوقف كثيراً أمام ما حدث، وقلتُ : زَلَّةُ قلم.

فجأةً شعرتُ أن ثلاجتنا الجديدة تميل للأمام وللخلف بلين وبطء ثم استقرت ولم تتحرك ثانية.

مرت دقائق، سمعت ضوضاء وهرجاً في الشارع، كنا وقت الصلاة، خرج الناس من البيوت والمقاهي والمساجد وقالوا: زلزال.

تهاوت مآذنٌ، تَهدَّمتْ البيوتُ القديمة على رؤوس سكانها الفقراء، أحياءُ القاهرة القديمة أكثرَ الأماكن تضرراً، سقط أكثرُ من ثلاثمائة بيت وتضرر أكثر من مئتي مسجد، فقد أكثر من خمسمائة إنسان حياتهم، الزلزال لم يدم أكثر من نصف دقيقة، وتسبب في تشريد خمسين ألف إنسان، وزرع الهلع والرعب في قلوب سكان القاهرة

جميعا، وظل هاجس الزلزال المرعب حاضراً في ذهني منذ لحظة نزولي من القطار لأرض قاهرة المعز.

كُلَّيتي أمام مسجد الشهيد الإمام الحسين رضى الله عنه، تبدو المدينةُ وحشاً لا يملكُ ذرةَ رحمةٍ واحدة، الأخلاقُ تبدو مثل خرافةٍ، كلمةٌ فارغةٌ من معناها، مشهد مقتل الحسين، السهم الذي أصاب فمه ليمنعه شربة ماء أخيرة، جرأة أكثر الناس شراً على قتل ابن بنت النبي، الحسين الذبيح في أرض الكرب والبلاء، لَعنةُ تلك الدماء الطاهرة تُلاحقُ هذه الأمَّةَ إلى الأبد، أخذوا بنات بيت النبوة أسرى حفاة لقصر يزيد، (ما نالت سيوف الله من عدو الله)، تتجسدُ العبارة أمامي كأفعى عملاقة، أتذكر المختار الثقفي وحرب الانتقام والثأر، ((الأيامُ دُوَلٌ)).

الله - جلَّ شأنهُ - يدفعُ الناسَ بعضهم ببعض، يضربُ الظالمين بالظالمين، ويضربُ الطيبينَ بالظالمين ليدخلهم في تجربة، ويضرب الظالمينَ بالطيبين لينتقم منهم، حسابات كثيرة يصفيها الملك فوق أديم الأرض، انتقامات قاسية تُسقطُ ملوكاً وتُزيلُ عُروشاً وتحرقُ أمماً كاملة، ترفعُ بعض الناس أزماناً ثم تخسف الأرض بهم، فراشاتٌ آدميةٌ تحترقُ في ومضة برق، السهامُ أصبحت قنابلَ نووية، هلك ربع مليون إنسان في دقائق ((هيرو شيما))، عجيبةٌ هذه المفردة، لا تُغادرُ ذهني أبدا، كأنَّها سُميت لقدرٍ محتوم، قدٌر لم

يُفرِّقْ بين بريءٍ وقاتلٍ، بين رضيعٍ وقطةٍ، خُرافةٌ كبيرةٌ أنْ يُحَاولَ الإنسانُ فَهْمَ الله.

في اليوم الأول، شعرتُ بغُربةٍ كبيرة لفلاح طيب ليس ابن أرض وزرع بل ابن مدينة صغيرة في جوهرها قريةٌ ريفية بسيطة غارقة في العرق والعمل والكفاح، لم أكن أعرف شوارع القاهرة ولا عناوين الأماكن التي سأذهب إليها لاحقا، المدينة الجامعية، جريدة الجمهورية، نادي القاهرة الرياضي، مقهى العجاتي، ومقهى زهرة البستان.

ركبت أول تاكسي لي في العاصمة، طلبت منه أن يأخذني إلى المدينة الجامعية في مدينة نصر، كنت ركبت الأتوبيس من الحسين ونزلت قبل محطتي بمحطة واحدة، ركبت مع السائق من أمام سنترال صغير، لاحظ لهجتي الغريبة وعلى الفور سألني أنت دمياطي ؟ قلت بفخر : نعم!

قال : أحسن ناس.

ظل يسير وينتقل من شارع إلى شارع ويسأل بعض البوابين، ذهب بي إلى مدينة البحوث، وإلى آخر الحي العاشر، مر وقت طويلٌ وأشفقتُ على الرجل من عناء البحث والعمل، والسير في الحر الشديد وقلت لنفسي : أكل العيش صعب جدا.

بعد ساعة تقريبا أوقفني أمام بوابة وقال لي : هذه هي المدينة وعلى استحياء وخجل وأدب منه طلب مني أربعين جنيها !

بدون أن أنطق أعطيته المبلغ وشكرته وأنا مستاءٌ جداً لأن المبلغ كبيرٌ بالنسبة لظروفي وحالتي الرقيقة.

عرفتُ شوارعها وعرفتني خلال أسبوعين، أردت إجراء مكالمة هاتفية أرضية لأطمئن أمي وأبي، كنت أتصل بهم من سنترال الحي السادس في مدينة نصر، وكانوا يتصلون بي على هاتف المدينة الجامعية، عندما خرجت من السنترال، تمشيت في النسيم العليل قبيل المغرب، كانت المسافة بين السنترال وبوابة المدينة الجامعية دقائق معدودة، ظللت ألوي عنقي وأنظر وأتأمل كل شيء في الطريق، غلبني الضحك والغيظ وقلت لنفسي: يا له من سائق شيطان، خدعني وأضاع وقتي وسلب نقودي بدون حق !

حُلمٌ أمْ عِلمٌ؟

صوت أمي يتردد كالصدى المتكرر في عقلي الباطن: ماذا حدث في قلابشو؟!

سألتها سؤالاً غريباً لا أعرف من أين قفز إلى ذهني في برزخ النوم.

- هل يمكن أن أرى الملائكة ؟

- كم عمرك اليوم؟

- سأتم العشرين أول العام الجديد.

- هل تذكر يوم سقوطك في الحفرة ؟

- نعم أتذكرُ جيداً عندما أخرجني منها الرجلُ العجوزُ ذو اللحية البيضاء و أعطاني مسبحة، رائحته الطيبة لم تفارق أنفي بعد وصوته ما يزال في رأسي وأذني.

- هل تتذكر الآن أين الحفرة ؟

- نعم قبالة شجرة النبق العتيقة في فناء دار ست فهيمة، هناك في أطراف الحي، في الأرض المزروعة أرزا.

- وأين المسبحة الكهرمان ذات الحبات التسع والتسعين التي أخذتها من الشيخ العجوز؟

-ها هي معي، لكنها انفرطت في فراشي هذا المساء، وحباتها تضيء بنورٍ أخضر رهيف وهامس.

- هل تتذكر من الذي دفعك فأسقطك في الحفرة؟

- نعم. الكبشُ الأسودُ ذو القرنين، الذي تملكه الست فهيمة، زوجة محسن بائع البلح.

- وهل تلطخت ثيابك عندما سقطت فيها؟

- نعم ووجهي وفمي.

- هل أنت واثقٌ من هذه الحكاية ؟

- نعم وها هي المسبحةُ مُنفَرِطةً في فراشي والندبة في جبيني!

- لكنك أخبرتني أنك سقطت في الحفرة وأنقذك الشيخ وأخذت المسبحة في المنام!

و عندما استيقظت كانت المسبحة في يدك والندبة على جبينك كأنَّ عُمْرَهَا أربعون سنة! وفي الصباح ذهبنا معا إلى شجرة النبق ونظرنا في الحفرة!

- نعم !

- وماذا وجدنا هناك؟

- مصحفي الصغير!

- وكيف استعدت مصحفك الصغير من الحفرة العميقة ؟

- الشيخ العجوز أعطاني إياه!

- ومن أين جاء الشيخ ؟

- لا أعرف لم يكن بالمكان سوى عصفور أخضر على شجرة النبق، زقزق وطار، ولمَّا كَلَّ بصري من تتبعه في السماء، جاء ضوءُ الشمس في عينيَّ وأصابني دوارٌ، فتحتُ عينيَّ ووجدت أمامي شيخاً بلحية كالنور وأعطاني كتابي.

شربنا الشاي بعد الغداء وهي عادة أساسية في حياتنا، ثم سألتني عما جرى يوم الرحلة، لكنني أخبرتها أنني رأيت حلماً وأريد أن أقصَّهُ عليها.

قالت : خيرا إن شاء الله، ماذا رأيت ؟!

رأيت أنني وقعت في الظلمة على وجهي!

كنت معي أصابك الفزع، كان خوفك هائلا، جذبتِ يدي وسمعتك تقولين (وقعت على الصالحين).

- من هم الصالحون يا أمي؟!

- أكمل الحكاية وسوف أخبرك وتخبرني!

كنا عائدين من بيت جارتنا أم شادي، أعطتني قطعة هريسة غارقة في السمن، البندق المطمور فيها أثار لعابي، كانت يدي معلقة في يدك ويدك الثانية تحبك الملاءة السوداء على جسمك، كان الوقت بعد الغروب، أمسكُ في يدي قطعة الحلوى، وعندما وقعت على وجهي، عجنتُها في راحتي بالتراب والحصى، كنت مستسلماً للحزن والبكاء وأنت تنفضين التراب عن قميصي الأبيض على ضوء اللمبة الصفراء شحيحة الضوء المتسرب من مدخل بئر سلم البيت وضوء البدر المضيء في السماء، كانت قطعة الهريسة أمام عيني على الأرض، حاولتُ التقاطها، نهرتني وقلت لي: لم تعد من نصيبك!

بكيتُ بحرقة، لم أتذوق منذ زمن حلوى الهريسة، وأنتِ أكدت لي بيقين تام أن الله لن يحرمنا من الهريسة.

صعدنا إلى شقتنا، كنت حزيناً وتعيساً لأنني فقدت قطعة الحلوى، أشعلتِ وابور الجاز، وضعتِ حلة الماء عليه، وبينما يسخن أكلنا خبزاً وجبناً وخساً، وشكرنا الله، حممتني بيديك في الدفء الذي غمر البيت من صهد نار الوابور، صففتِ شعري وتفحصتهِ شعرةً.. شعرةٍ ومفرقاً مفرقاً بحثاً عن حشرات القمل والصئبان، وإذا وجدت واحدة منهن وضعتها على ظفر الإبهام وضغطت بظفر إبهام اليد الأخرى عليها فتنفجر بقعةُ دمٍ صغيرة.

راجعت دروس المعهد، ثم رافقتني إلى فراشي ودثرتني جيدا وقلت لي: تصبح على خير.

تداخلت في بعضي وضممت ركبتيَّ إلى بطني وتقوستُ تحت البطانية، تذكرت قطعة الهريسة ودمعت عيناي ونمت.

جاء صقرٌ ذهبيٌ وَحلَّقَ فوق رأسي، صرخ لجذب انتباهي، انتبهت وأنا أرتجف خوفاً من هيئته، كان ذهبياً بَّراقاً به بضعُ ريشات سوداء، طاف فوقي ورفرف ثم تهاوى ببطء حتى أصبح فوق سريري، اعتدلت، استندت بظهري على شباك سريري، كنت خائفاً، لا أفهم ماذا يريد مني، عاجلني وألقى في حجري قطعة هريسة، ضرب الهواء بجناحيه وانطلق.

أمسكتُ قطعة الحلوى وأنا مغمورٌ بفرحة كبيرة وسعادة، كانت طرية غارقة في العسل والسمن وعليها فستق أخضر وبندق غائص فيها، أخذت آكل وأتلذذ وأستمتع بمذاقها وأنصتُ لصوت تهشم البندق تحت أضراسي وقرقعة الفستق وهو يتكسر ويذوب في فمي، كانت قطعة كبيرة بحجم كفك يا أمي، فكرت أن أستبقي قطعة لأجلك وأبي وأخي، تركتها بجواري على البوفيه، لكن بعد دقيقة واحدة قمت إليها وأكلتها وعدت للنوم.

في الصباح أخبرتك أنَّ صقراً ذهبياً جاءني في المنام وأعطاني قطعة هريسة كبيرة، طلبتُ أنْ تسامحيني لأنني أكلت القطعة التي استبقيتها لك ولأبي.

ضَحكتِ وقلتِ لي: ما تزال تحلم بالهريسة أعدك أن أشتريها لك قريبا.

قلت: لا أحلم يا أمي لقد أكلت الهريسة في الليل، انظري لقد اتسخت الوسادة ويدي ندية بالعسل والسمن !

نظرتِ إلى البقع في الوسادة ثم بسطتِ يدك والتقطت من فوقها حصاةً صغيرة، تَفَحَّصْتهَا ثُمَّ شَممتِهَا وتذوقتها وقلتِ لي : هذه بقايا حبة بندق !

قالت أمي بفرح: (النبي سعيد وأراضيه بعيد).

اللقاء الثاني

مَرَّ شهرٌ، جرفني الاشتياق كالسيل العارم، اشتقت لتيسير، تذوقت شهد الحرام واستعمرني الإدمان الجديد.

قلتُ لياسر: قلابشو أوحشتني، أريد المجيء، ضحك ونظر لي بمكر وقال متهكما: قلابشو أم المرأة الجميلة التي سرت وراءها وكدت تموت بسببها وضربتك الشمس؟!

قلت: متعة الصيد والهواء المنعش والمناظر الخلابة وجمال الطبيعة والأرض، ومنظر ثمار البطيخ الناضج والخيار وبساطة الناس وحياتهم التلقائية!

قاطعني بنظرة كالخنجر قائلا: وروث الجواميس والناموس والذباب والروائح القاتلة !

قلت - متجاهلا إدراكه لحقيقة الخداع الذي أنسجه كشبكة عنكبوت - : أريد أن أجيء معكم يوم الجمعة.

قال : جهز نفسك.

قلت : سأشتري عدة جديدة.

أمي وأبي رفضا تماماً فكرة ذهابي إلى قلابشو مرة أخرى، وباءت محاولاتي بالفشل، أخذتْ أمي عدة الصيد الجديدة، البوصة و الحقيبة التي بها السنانير والقبعة والغمازات والخيط وقطع

الرصاص المثقوبة بحجم الحمص، ولاصق الأمير القوي والمدية صغيرة.

أغلق أبي الباب بالمفتاح والترباس ونام الجميع وادعيتُ أنا أيضا النوم، عندما ملأ السكونُ شقتنا المتواضعة ذات الغرف الثلاث، وصوت الشخير هو الدليل القائم على أن النائمين أحياء وليسوا موتى، تسللت من الفراش الذي يشاركني فيه أخي وارتديت ملابسي في العتمة، حبست أنفاسي وفتحت باب الشرفة بهدوء، وأغلقته خلفي بفانيلا قطن قديمة حشرتها بين درفة الباب وحلقه الخشبي وضغطت بقوة وصمت، مشيت لنهاية الشرفة وصعدت على سورها الواطئ، تدليت بهدوء للتعريشة المنصوبة بين بيتنا وجارنا، مشيت بحذر حتى نهايتها ثم قفزت بثقة على كومة كبيرة من الرمل.

أصبحت في الشارع نظرت إلى شرفتنا في الطابق الأول وأنا أتعجب كيف تبدو من الأرض بلا رهبة ولا هيبة؟ بينما وأنا أنظرُ من فوق سورها إلى تحت، وجدت الأرض بعيدة ومخيفة وتخلت عني الشجاعة للقفز رغم أنها مسافة أقل من ثلاثة أمتار.

صعدت سلم البيت مرة أخرى لأرتدي حذائي من أمام عتبة الشقة، نزلت بهدوء وغادرت بئر السلم إلى الشارع.

ذهبتُ مُسرعاً في سكون البيوت والحارات إلى بيت ياسر، في منتصف الطريق لفت انتباهي رجلٌ عجوز يمشي ببطء في الشارع الذي دخلته للتو، بدت هيئته لي من بعيد كأنني رأيته من قبل، ما

الذي أخرج هذا العجوز في هذا الوقت المتأخر؟ ربما اختار طريقا طويلا لتزداد حسناته، لمعت عصاه التي تشبه بياض سن الفيل بحلقات كالذهب، ارتعد جسدي كله، توقفت مكاني وهزني الخوف، كنت أسير خلفه سير الناقة على الرمل بلا صوت، استدار فجأة وابتسم لي، بدا وجهه العجوز طيبا وجميلا ومحبوبا، ألفت عيناي هيئته الطيبة، لكن كل شعرة في جسدي رفضت الاستئناس به، يا ربي هذا العجوز في كل مكان وكل زمان! زادت رعشة جسدي، رفع يده اليسرى لأعلى ملوحا بالسلام، استعذتُ من الشيطان ودخلت شارعاً آخر أكثر إضاءة، توقفت عن التفكير في العجوز الذي يظهر فجأة في الزمان والمكان دون تفسير، وفي عمق الحيرة التي أغرق فيها، فاجأتني مجموعة كلاب تحتفل بأنثى، تحاصرها في منطقة البنايات الجديدة التي لم يعمرها البشر بالضوضاء والضجيج وهتك خصوصية المخلوقات الأخرى.

تذكرت حادثة قديمة، في ليلة مقمرة، كنت عائداً أنا وأخي من الورشة التي نعمل بها في إجازة الصيف يوم خميس، تأخرنا حتى منتصف الليل، اليوم الصابح جمعة، يمكننا الاستيقاظ متأخرين، كنت أتحدث عن الله وعن النجوى وعن المعية، لم يزد عمري يومها عن الحادية عشرة وأخي أصغر منى بعام " أنا وأنت لسنا وحدنا الآن، إنَّ الله معنا، كنت أشرح له ما تعلمته في المدرسة.

كنا نمشي في الأرض التي زرعها جدي في الماضي، والتهمتها الجدران الإسمنتية والبيوت، مصرف الماء العذب أصبح طريقاً ممهداً بالحجر الأبيض وبقيت مرحلة القار الأسود، أشجار الكافور اختفت، الساقية وشجرة الجميز لم يعد لهما أثر، رائحة الريحان والعطر شان تلاشت تحت رائحة دخان النرجيلة، شجرة النبق العالية أصبحت مقهى شعبياً، النخيل العالي الذي أكلنا منه البلح الأصفر الشهي، لم يعد يثمر، وكلما بيعت قطعة أرض للبناء، قُطعت الأشجار والنخيل، وبدا العمران كسيل أحمر غامر يسحقُ في اندفاعه المتوحشُ الحياة الخضراء.

توقفتُ أنا وأخي أمام المشهد، حلقة واسعة من الكلاب في ضوء القمر، الكلبة الأنثى عالقة بغير قدرة على الفكاك من عشيقها، والكلاب تشاهد، ويتطوع كلب أو اثنان لممارسة العنف ضد الكلبة بالعض أو سحبها على الأرض من ذيلها أو النباح عليها بقسوة وغضب وإشهار للأنياب.

قلتُ لأخي : اثبت!

لو ركضنا ستعرف الكلاب أننا خائفان وسوف تهاجمنا على الفور، اثبت وتشجع وحافظ على هدوئك حتى نعبر هذه المساحة الصغيرة بسلام.

دبَّ الخوفُ في قلب أخي ولم يبده لسانه ولا يداه، أسلم نفسه للخوف فانطلقت قدماه في الأرض السابحة في ضوء القمر.

لَمْ تَكُنْ الكِلابُ لتتجرأ على مُهاجَمَتِي لوْ ظَلَّ أخي معي، منتظم النبض ومنتصب العزيمة، ركض وتركني، اندفعت كل الكلاب مرة واحدة اتجاهي عدا العاشقين، لم أملك أي اختيار سوى الركض، ركضت، مضت دقيقة أو أقل، قال الصوت الذى يجيئني من الداخل : قف !

رغم أنني كنت ضعيف الإيمان وقفت .

قال : التفت واصرخ فيهم سيفرون من أمامك مرتعبين!

صرخت، نشرت أصابعي وذراعيَّ وصرخت صرخة متشنجة مجنونة.

تجمدتْ أقدامُ كل الكلاب في لحظةٍ واحدة، شعرتُ أنَّ كياناً هائلاً بطول نخلة عالية يخرجُ من جسدي ويتشكلُ بالضباب في نُورِ القمر كهيئة رجلٍ عملاقٍ بقرنين ، فرتْ الكلابُ من أمامي في رعب خفي لم أفهمه، نهق حمار عم يونس المربوط في وتد جوار بيته وظلَّ يرفسُ وينهقُ ويقفز حتى خلعَ الوتدَ من الأرض وانطلق كأنَّ أسداً يُطاردهُ.

واصلت السير حتى وصلت أمام بيت ياسر، الشباك الأرضي مضاء، ناديته بصوت خفيضٍ، فتح وقال لي : تعال اصنع لنفسك عدة خيوط للصيد.

جلسنا بهدوء في غرفته وتعلمت بسرعة تركيب السنانير في الخيط، كنا نغزل الخيط حول ذراع السنارة بطريقة المشنقة تماماً ثم نُحكمُ الخيطَ بقوةٍ بجذبه من طرفيه حول رقبة السنارة الحديدية، نركب سنارتين بين كل واحدة مسافة خمسة سنتميترات، جهزنا كل الأشياء وحملت حقيبتي الجديدة وعدة صيدي وبوصتي الجديدة ومستلزمات رحلتي التي اشتريتها بالأمس وتركتها عنده.

مررنا على السبيلجي الفوال واشترينا سندويتشات فول وطعمية، واتجهنا إلى مقهى كركر المضيء بالنيون على مرمى بصرنا القريب بجوار كوبري المدينة الخرساني العلوي.

أفطرنا وطلبنا الشاي وأشعلنا سيجارتين كليوباترا، نظر القهوجي إلينا متحسراً وأعاد لفَّ الخرطوم على بُوري المعسل لأننا أصحابُ كِيفٍ آخر.

توافد الصيادون، بعضهم أراه لأول مرة وبعضهم كان معنا يوم قلابشو .

ألقى صيادٌ، السلام، طلب الشاي والنرجيلة، سألنا هل نحن معه على ذمة ميكروباص مهران القشاش؟!

قال ياسر: نعم .

سأل ثانية وهو ينظر لي هذا هو العريس الذي كان معنا منذ أسابيع ؟!

قلت بحدة : نعم أنا ورفعتُ ساقاً على ساق.

قال : (تنور الدنيا) عليك أن تحترس من ضربات الشمس.

فهمتُ ايحاءه الخبيث ولم أعقب.

ركبت خلف السائق وانطلق الميكروباص كالعادة بعد أن تم العدد، قرأنا فاتحة الكتاب وغمر القرآن أركان السيارة من الداخل عبر الراديو وانطلقنا إلى قلابشو.

وقف القشاش على رأس المصرف الذي كنا عليه وقال : الأسماك أصبحت قليلة هنا، في الجمعة الماضية لم نصطد صيداً مُرضِيَاً، وسمكة هذا المصرف رائعة وقد جربناها كلنا، اليوم يمكننا تجربة مصرف جديد، لكن لا أضمن أن تكون أسماكه جيدة ومتوفرة مثل هذا المصرف المبروك الذى نهلنا منه أسماكا كثيرة حتى أنهكناه فلم يعد به إلا الأسماك الصغيرة التي تخرج من النار بأعجوبة.

ما رأيكم ننزل هنا أم نجرب مصرفا جديدا ؟!

انقسم الصيادون لفريقين، البعض قال: نُجربُ مصرفاً آخر والبعض قال : الذي نعرفه أفضل من الذي لا نعرفه.

نزلت أنا وياسر معهم على مصرفنا الذي عرفناه من قبل، وانطلق الميكروباص ببقية الرجال.

فتحت بوصتي الجديدة، لست منشغلاً بالصيد والسمك والذباب، جئت مرتديا نفس القميص والبنطلون ربما تنساني تيسير فَيَسْهُلُ عليها التذكُرُ. ياسر يتحدث، لم أنصت لكلماته وبحجة السعي وراء صيد جيد ابتعدت عنه، ناداني مُحتداً لا تذهب بعيداً هل نسيت ما حدث من قبل؟!

أشعلتُ سيجارة وقلتُ له : لا تخف دع الأمر لصاحب الأمر.

ارتفعت الشمس ولم تظهر المرأتان، أخذت أتلفتُ كل عدة دقائق في كل الاتجاهات، ولا أكاد أصطاد شيئا، نبهني ياسر أن أركز في الصيد كي لا تذهب رحلتي سدى، قلتُ له : لقد عملت حسابا لذلك إن لم أوفق سأشتري من زملائنا في الميكروباص.

ظللت أبتعد عنه ونحن نسير ببطء، حتى بلغنا انعطافة تُحولُ وجهتنا من الغرب إلى الجنوب، ادعيت أنني بحاجة إلى خلاء، تركت البوصة والعدة وأخذت زجاجة الماء، نزلت إلى الأرض المنخفضة المليئة بالحشائش، تجولت ببصري وصوبته في اتجاه الكوخ، والعشة البعيدة التي صدر منها الدخان وانطلق منها الكلب، لم أجد أي أثر للمرأتين .

قررت الذهاب إلى العشة متسللاً من وراء الأحراش والحشائش، ترددتُ كثيراً وتذكرتُ المشكلة السابقة، تعاظم خوفي لكن رغبة قوية بداخلي دفعتني للسير فمشيت إلى قدري بإرادتي الحرة.

قلت أركض مسرعاً إلى الكوخ وأعودُ مسرعاً قبل أن يقلق ياسر والثلاثة الذين معه لغيابي، ركضت، شعرتُ أنَّ أحداً يركضُ بجواري يستطيع أن يسبقني لكنه لا يريد، نظرت جهة كتفي الايسر، شعرت بصهد جسد ساخن وروح قريبة أتحسس أنفاسها في أنفي، أحسستُ روحي تنسحبُ مِني إلى الأسفل، استعذتُ بالله وقلتُ: لا يظهرون في الشمس، رأيتُ طيفاً ذهبياً يظهرُ ويتلاشى، يبتسمُ لي ابتسامة فرح، كان طيف أنثى، صرفت بصري ونظرت أمامي، توقفت لألتقط أنفاسي، نظرتُ يساراً ويميناً، لم يكن هناك أحد، شربتُ جرعة ماء وحمدتُ الله، أصبح الكوخ قريباً، اندفعت راكضاً، شعرتُ بالطيف كأنهُ يُريدُ وضعَ قُبلةٍ على خدي، التفتُ مُرتعباً، انفرجت شفتان كالفراولة وظهرتْ أسنانٌ بيضاءُ كاللبن ونطقَ لسانٌ كالورد كلمة (العواف)

وقعتُ على وجهي وامتلأ فمي بالتراب وانشقتْ شفتي وسال دم.

تأوهتُ وأنا أتوجعُ، زجاجةُ الماء اندفعت عدة أمتار واختفت بين الحشائش، اعتدلت وقعدت على الأرض ووضعت يديَّ على ركبتيَّ الممددتين بعدما مسحتُ فمي المترب النازف في طرف قميصي، نظرتُ إلى الأرض والندم يخنقني على ما فعلته بنفسي، شعرتُ بيد ناعمة تهبطُ على ظهري برفق وحنان، من ناحية كتفي الأيسر، حولتُ بصري فوجدت تيسير بجواري، نظرت لي بعطف وقالت : تعال معي.

دخلنا الكوخ توهمتُ أنني أشاهدُ أحداثاً عِشتُها من قبل، بكل التفاصيل الصغيرة، أنا أعرف هذا المكان وسرير الأقفاص والقش، قلتُ: هل التقينا هنا من قبل يا تيسير ؟!

ابتسمت وهي تصب الماء على يديي لأغسل فمي ووجهي وقالت : الذي حَدَثَ بيننا لا يمحوهُ مَرُّ السنين يا كامل!

ضربت وجهي بالماء وانتفضت مرتعباً، قلتُ لها: ستدخل تغريد علينا بعد قليل، وسيأتي كلبٌ ورجلٌ أسودان!

قالت بثقة :تغريد من ؟! لن يأتي أحد! أنا أعيش وحيدة هل نسيت حكايتي يا كامل؟

سألتها مندهشا وتغريد! المرأة القصيرة التي كانت معك في لقائنا الأول؟

قالت تيسير مندهشة: اسمها صبيحة ولا تعيش معي هنا بل في عشتها الخاصة هناك عند التلة العالية.

شعرت بالخوف من تيسير، نظرت حولي وحاولت أن أتذكر ما جرى ذلك اليوم، تخيلت أشياء مرعبة.

جمعت شتات أفكاري، قدمت لي تيسير لبنا في صحن فخار، اعتذرتُ: لا أشربُ لبن الماعز، ضحكت بدلال وقالت: ما تزالُ شفتاك عالقتين على فخاري!. قلتُ لها : يا تيسير أنا في حيرة وقلق

وأريد أن أعرف ماذا جرى هنا يوم التقينا، لأنَّ رأسي مشوشةُ الأفكارِ ولم أعدْ أعرفُ الحقيقة من الأوهام.

اقتربت وعانقتني وقالت : أنت حبيبي، هذه هي الحقيقة.

وماذا جرى يا حبيبتي يوم التقينا أول مرة؟

- أنت شربت لبن الماعز وأكلت بطيخة صغيرة وغفوت في صدري كطفل، وأنا غفوت معك، وعندما استيقظت ونظرت للشمس كنا قرب الظهر، لقد نمت ساعتين أو أقل، لكنني لم أجدك وتعجبت للقفص المقلوب الذي وضعته أنت تحت شباك العشة وقفزت منه ولم تخرج من الباب.

- نعم قفزت من الشباك بعدما هجم الرجل الأسود علينا أنا وأنت وتغريد، وحدثت معركة بينكم بالمناجل.

- لا شك أنك رأيت كابوساً رهيباً وأنت نائمٌ بقُربي دفعك للهرب من الشباك كالملموس.

- كابوس! وتغريد والرجل؟ يا حبيبي اسمها صبيحة وعندما تركتني يومها لم ترجع وأنا كنت معك وحدنا.

- وزوجك يا تيسير؟

- لقد أخبرتك أننا وجدناه مقتولاً ومُعلقاً بحبلين بين شجرتين تنتصبان على ضفتي المصرف العمومي الكبير.

- ومن الذي قتله يا تيسير؟

- إنه ثأرٌ قديمٌ كان في رقبة أبيه ورغم هروبهم إلى هنا وإنشاء حياة جديدة ومرور السنوات لم يسلم من الانتقام.

"تيسير"، نطقت اسمها بصرامة و أمسكت يديها بقوة وأنا أنظر في عينيها ثم سألتها متوسلاً: الأمور اختلطت في رأسي ولم أعد أعرف حقيقة ما جرى هنا في لقائنا الأول، إكراماً لله أخبريني ماذا جرى؟

- لم يجر شيء، ثم وقفت وابتسمت ووضعت يديها على بطنها وقالت: لقد وهبتني شيئاً عزيزاً منك، وعاهدتني على الزواج.

يا لها من مصيبة، حدثت نفسي وأنا ذاهلٌ، هلوساتي عبرت من السراب إلى وهج الحقيقة.

في حضرة الأنوثة تسقطُ همومٌ كبيرةٌ لبعض الوقت، وجمال تيسير أنساني العالم، مرت ساعتان أو أكثر وقلت لها : حان الرحيلُ، لن أستطيع البقاء أكثر يجب أن أذهب الآن، أخرجتُ حافظتي وفككت عقدة الكيس النايلون عندما وضعتها بداخله خوفاً أن يتلفها البلل، أعطيتها ورقة مثنية داخل كيس نايلون مغلق بإحكام، قلت لها: هذا عنواني بدقة وهاتف البيت، عندما تستطيعين المجيء لا تترددي ، وأنا سأحاول المجيء كل يوم جمعة، جذبتها في حركة رومانتيكية من فتحة جلبابها. أتمنى أن نبقى معاً للأبد، سأذهب الآن .

قالت بتعاسة: لا شيء يمكنه تعكير صفائنا الآن، لا شيء يفرقنا اليوم، ابق معي .

قلت: لا يمكنني ذلك يجب أن أعود، أمسكتْ يدي ووضعتها على بطنها وابتسمت لي وهي تخبرني أنها تملك شيئاً عزيزاً مِنِّي الآن، وأنَّ القمرَ أتمَّ دورته، وأنها تُحبني وستعيشُ لأجلي وأجل ابننا أو ابنتنا، نظرتُ إليها وعانقتها وادعيت الفرحة، قلتُ لنفسي: يا لها من مصيبة عظيمة!

تماسكتُ وأخفيت هلعي الذي تعكرت له عيناي ثم عانقتها عناق الوداع وقبلت يديها وبطنها وأنا أقسم لها أنني لن أتخلى عنها أبدا وأنني سوف أنقلها للحياة معي حيث أعيش.

خرجتُ مسرعاً، قفزتُ في المصرف، عبرتُ الماء المحموم بحرارة الشمس وركضت حتى وصلت إلى ياسر بهيئتي المبتلة الغريبة !

سألني ماذا حدث لك، كيف تبللت هكذا؟

ألَّفتُ له حكاية على الفور، أخبرته أنني بينما كنت أقعى في الخلاء، ظهر نِمسٌ أسود من بين الأحراش، هاجمني فجأة فأرعبتني المفاجأة وسقطت، ركض خلفي وهربت منه وقفزت في الماء وعاد من حيث ظهر وانصرف لحاله، واضطررت لتنظيف جسمي وملابسي في المصرف لأني فقدت الزجاجة في المطاردة ولم تكن لتكفي أصلا!

ضحك ياسر ضحكات عالية شامتة وقال : تستأهل !

سمعنا آذان الظهر في قلوبنا ولم تسمعه الأذن البشرية، نظرت للشمس في السماء تكاد تتعامد فوقنا، قلتُ لياسر: يبدو أنه الظهر، لقد مرَّ الوقتُ، سيأتي الميكروباص بعد قليل، علينا أنْ نستعدَ للرحيل.

مشينا حتى صعدنا من الأرض المنخفضة إلى الأسفلت الذي بدا أعلى خمسة أمتار من المصرف، بحثتُ في الأرض الشاسعة عن الكوخ، انتبهت أنه يمكنني أن أراه من هنا ولم ألحظ ذلك الأمر من قبل، رأيت الكوخ منتصباً في وهج الشمس من بعيد لكنه كان في جهة الشرق وليس كما توهمت أنه في الجنوب طيلة الوقت.

أحببتُ أن أرى وجه تيسير الجميل عبر هذه المسافة البعيدة، بدا الأمرُ مستحيلاً وقطعَ ياسرٌ رحلتي الطيفية قائلاً: إلى ماذا تنظر ولمن تبتسم ؟!

سحبتُ نفساً عميقاً من الهواء العليل الذي جاءنا من أشجار الكافور العالية الكثيرة وقلت : أبتسم لتيسير.

امتعض السائق لهيئتي القذرة المبتلة وتأفف منزعجاً، وتغامز الصيادون وسألوا عما حدث، فأخبرهم ياسر عن النمس، قمت بتغيير الموضوع ، وقلت أريد أن أشتري أسماكا .أريد وجبتين .

نسى الرجال بللي وهيئتي وتسارعوا فيما بينهم، من يسبق الآخر ليبيع لي .

نام الجميع كالأموات في رحلة العودة، بينما أنا غارقٌ في آثار حلاوة القُبلة ودفء الغرام، تذكرتُ الجنين وجريمتي، أعدت ظهري للوراء وثنيت ذراعيَّ على صدري وانزلقتُ على مقعدي لأستريح أكثر لكن روحي قفزت إلى حلقي عندما شاهدتُ القشاش سائق الميكروباص يستميتُ بيديه على عَجَلَةِ القيادة وهو مستغرقٌ في نومٍ عميقٍ والسيارةُ تَسبحُ في رحمة الله.

أشتاتاً أشتوت!

أنهيتُ الوضوء، دخلتُ غرفتي، بسطت سجادة الصلاة على الأرض، نويت الصلاة، تشكَّلَ وجهُ تيسير أمامي على حائط غرفتي الأبيض، استعذت بالله من الشيطان، استغفرت، جرت دموعي وأغمضتُ عينيَّ، ركعتُ وسجدتُ وقمتُ، فتحتُ عينيَّ في التشهد الأول تشممتُ رائحتها معي في الغرفة، فسلمتُ، وأنا ألطمُ وجهي.

دخلتْ أمي وأنا أبكي وأنوحُ وضعتْ يدها على رأسي وشهقت:

- ابني ؟!

(اسم النبي حارسك وصاينك)، ماذا بك أخبرني، عذ بالله من الشيطان الرجيم، استعذت وألقيت رأسي في صدرها وانهمكت في البكاء .

كنت أريد أن أحكي لها، لكن لم أستطع أبدا.

خفة دم أبي وتهكماته الساخرة كانت تنسيني حزني لبعض الوقت، وعندما أستغرق في الصلاة بالليل تبتل السجادة من دموعي المنهمرة، وأنا أتساءل : حُلمٌ أمْ عِلمٌ ؟! وبعدما قطرتْ تيسير اليقين في فمي كالحنظل أعتمتْ الحياةُ أمام عيني.

كانت أمي تُشعلُ الفحمَ حتى يصيرُ جمراً متوهجاً في مقلاة ألومنيوم قديمة، تنثر البخور الجاوي ولبان الدكر، ويتصاعد دخان أبيض

رائحته مميزة، تصنع العرائس الورق تملؤها بالثقوب ب إبرة الخياطة، وترقيني من شر أعين الحاسدين، ومن مس الشياطين، وأنا منهمك في مضغ قطعة لبان ذكر أستعذب مرارتها في فمي، وأقول لنفسي: تذوق المر.

كانت تعيش في مواجهة دائمة مع شيطان تتوهم أنه يريد الاستحواذ على عقلي وقلبي وجسدي، تحكي لي قصة النبي أيوب، الذي احتمل المرض ثماني عشرة سنة، دون أن يطلب من الله الشفاء وأن الشيطان طلب من الله أن يأذن له في التسلط على أيوب فأصابه بمرض غريب، وقتل أولاده وأحرق أراضيه وماشيته، قاطعتها متسائلاً

- الشيطانُ يَطلبُ من الله والإنسانُ يَمتنعُ ؟ما أغرب الإنسان يا أمي!

كانت تتمنى أن تحج البيت أو تعتمر، والحلم البعيد عن يد امرأة فقيرة لا تملك من متاع الدنيا سوى أبنائها وعافيتها، يزداد ابتعاداً يوماً بعد يوم.

كان في ساقها جُرحٌ عجيبٌ لا يبرأ منذ سنوات، وكانت تدعو الله أن يشفيها بعدما عجز الطبيب والدواء، وذات ليلة نامت طاهرة بعد أن صلت العشاء، ورأت في المنام امرأة صالحة، أخذتها من يدها وقطعت بها الأرض، لم تصدق أمي أنها تطوف بالكعبة وتقبل الحجر الأسعد، وعندما شربت من ماء زمزم، أمرتها المرأة

الصالحة أن تغسل جرحها بالماء الطهور، وعندما استيقظت في الصباح، لاحظت أن الجرح الأسود المؤلم، عاد بلون بشرتها الحنطي، ولم يمر شهر حتى لم يعد لهذا الجرح أثر.

كنت أمازحها قائلا: يا ست الحبايب يا بركتنا يا غالية، زرت النبي يا غالية! وكانت تحمد الله وتشكر فضله العظيم.

وكنتُ أردِّدُ على مسامعها آية الأعاجيب والفتوحات(ولو أنَّ قُرآناً سُيرتْ بهِ الجبالُ أو قُطِّعتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى) وأحكي لها عن أسرار الولاية وعطاءات الله الخاصة لبعض عباده.

في تلك اللحظة تسربت رائحة احتراق الأرز على النار، فتركتني أمي وهرولت لإنقاذ حلة الأرز من الاحتراق.

***

الشمس تزول!

توضأتُ للصلاة وخرجتُ لأصليها في المسجد هرباً من وجه ورائحة تيسير.

صوتُ الإمام القارع أجبرني أن أسرح في الصلاة، عبرت معه فاتحة الكتاب بصعوبة وقلت وراءه آمين، وارتسمت أمام عينيَّ صورةُ تيسير في موقع السجود، ادعيت أنني أنزفُ، وضعت منديلا على أنفي، خرجت من الصف، مشيت مسرعاً باتجاه البيت في حالة

حرج كبير، كأنني لا أرى، صدمتُ رجلاً عجوزاً، كدتُ أسقطه، أمسك يدي بقوةٍ لا تناسبُ كرَّ السنوات على جبينه، اعتذرتُ له لكنه ظلَّ مبتسما كأنه فرح لرؤيتي، تجاوزته وأنا أتساءل أين رأيتُ هذا الرجل صاحب العصا البيضاء كسن الفيل وأربعة أسنان في فمه؟!

تجاهلت الأمر، صعدت إلى البيت وأسرعت إلى الحمام .

- لقد أصبحت تطيلُ المكوث أثناء الاستحمام! قالت لي لتعلمني أنها ليست غافلةً عن أفعالي السرية وأخبرتني أن لوني الأصفر وتعكر بياض عيني المستمر لا يحتاج براهين !

قلتُ لها لأستفزها لتعيد على مسامعي حكاية قديمة (عفاريت تتحول إلى أرانب، معاهدة صلح، جِنِّيةٌ تستحم في حمامنا!)

قالت غاضبة : لن أحكي لك حكايات مرة أخرى، لكنني قبلت يديها واعتذرت لها وظللت أستحلفها حتى أجلستني بجوارها على الأرض وقالت : اليوم كان من بدايته مليئاً بالشر، فبينما كانت الفتيات يتزاحمن على مضخة الماء العمومية، لاحظت أن أباظة الأعزب الشائب يفتحُ مجالاً للحديث مع عزة وسميرة واعتدال، بدأ يساعدهن في ملء الأواني بالماء ومن ثَمَّ يرفعُ الإناء ليضعه على رأس الفتاة أو كتفها حسبما اعتادت أن تحمله، وأثناء ذلك يحدثُ احتكاكٌ ماكِّر يمكنُ أنْ يرتقي للاحتضان، ولما جاء دوري أخبرته أنني لا أريد المساعدة، لكنه بسماجته المعهودة حاول مساعدتي رغماً عني، كنتُ أعرف أنه جاء لأجلي وكل هذه الأفعال لأجل

لفت انتباهي وحدي، كنت في الثانية عشرة، لكن كنت قوية كفرسة جامحة، هويت بسطل اللبن على ركبته اليمنى، ثم رفعت السطل عاليا وهويت به على رأسه عندما انحنى صارخاً ممسكاً بركبته ، لم تفزعني صرخاته ، ولا الفتيات المائسات اللواتي أردن الدفاع عنه، ضرباتي القوية الموجعة أرقدته كالجثة الهامدة في الوحل، عبرت على جسده بقدمي وملأت سطلي بالماء وانصرفت إلى البيت، عبرت الجسر الترابي الفاصل بين الغيطان المزروعة بالذرة ، وطرقت الباب المفتوح، ودخلت ولم أخبر أحدا بما جرى .

جدتك نظرت في وجهي وقالت لي: ضربت أباظة!

لم أكذب وقلتُ : نعم هذا ما كان ، وسألتها من أخبرك يا أمي؟!

قالت: أخبرتني العصفورة! وأدارت حبات المسبحة في يدها فتضوعت رائحة المسك النقية والتمع صليبٌ ذهبي صغيرٌ على رسغها الأبيض، سألتها متعجباً أي صليب ؟!

قالت: يدفع عني الشياطين، أباظة نال جزاءه الرادع، أبوك لن يتركه.

بيت جدك كان على حرف المصرف القادم من نيل دمياط حتى عمق الأرض الممتدة حتى مشرق الشمس، بين باب بيتنا وشاطئ النهر ثلاثمائة خطوة، كانت متعتي في عدهن.

كان جدك في شبابه جندياً وسيماً أخضر العينين أشقر الشعر طويلاً كنخلة، كريماً للغاية وحصل على لقب (النزيه) من جميع الناس، تولى حراسة الكوبري المعدني الذي يصل ضفتي النيل، الذي أنشأه الإنجليز بعد إخماد ثورة عرابي واحتلال مصر.

وقع في حب جدتك من أول نظرة لما رآها في طنطا مع أمها، وجاء بها النصيب لتعيش في دمياط وتنجب رجالا ونساء .

كانت الذئاب تطوف بالأراضي الواسعة في الليل، وأحيانا في الليالي المقمرة.

كان هناك ذئبٌ أبيض يهوى اصطياد المعزات الصغيرة، لا تكلفه مجهوداً ولا عراكاً دامياً، وكثيراً ما أفشلَ كلبُ جدك الأسود خططه في سرقة صغار مواشي وماعز أبي، كان على الذئبِ إذا أرادَ الحُصولَ على نَعجةٍ للغداء، أنْ يقتُلَ الكلبَ الذي يَحْرُسُها أولاً، الذئابُ ذكيةٌ جداً وكانت تعرفُ أنَّ الكلبَ يقفُ حائلاً بينها وبين صيدها الذي تتربصُ به، الذئبُ يكرهُ الكلبَ، لأنَّه ينبحُ وعندما ينبحُ يظهرُ الناسُ أو صاحبهُ والكلبُ في حضور سيده يُحسُّ بالأمان ويصبحُ أسداً.

نبتت الكراهية في قلب الذئب واستفحلت ، فقد طالت ليالي الجوع عليه حتى غامر بحياته وبدأ يسرقُ الإوز والبط كالبشر.

في ليلة باردة مقمرة وغمام المتقطع، بعد منتصف الليل جاء الذئب الأبيض، وقف على الضفة الأخرى من الجسر، ارتقى تلة طينية محترقة كالفخار، أطلق عواء امتلاك الليل، خرج كلبنا الأسود ونبح عليه.

نزل الذئب عن التلة، تقيأ كأنه أكل فريسة مسمومة، نام على ظهره وتمرغ، تشجع الكلب وخدعته المكيدة، عبر الجسر فوق المصرف واندفع في حماسه الطائش، هجم على الذئب، لكن الذئب عاجله بعضة قابضة على محاشمه وانتزعها ثم قبض على شفته السفلى حتى مزقها تماماً، وبعدما أصبح عاجزاً عن العض، قبض الذئب على حلقه وقتله. لقد رأيت المعركة.

حزن أبي حزناً كبيراً على كلبنا المغدور، أصرَّ على الثأر، لم يكن يبلغ الخوف قلبه أبداً، اعتاد على حمل السلاح الناري الأميري أيام حراسة الكوبري، طبنجة ضخمة، كنت أشعر بثقلها في يدي، عندما يسمح لي أبي بحملها، طلبت منه أن يعلمني إطلاق النار، ضحك وقال: أنت شجاعة بدون سلاح فما بالك إذا حملت هذا السلاح الغادر؟!

الرصاصات النحاسية تجذبني لتأملها ولمسها، ينظف أبي الطبنجة ويعيد تعبئة الرصاصات بها، يخبرني أنها أمانة وعهدة ومسؤولية كبيرة، يشرح لي كيف تنطلق الرصاصة وتتحول إلي مقذوف من النار يلتهب أكثر عند اصطدامه بالهواء، يخترق جسد الضحية، فإذا

أصاب القلب أو الرأس يموت الإنسان فوراً، تنهد وحكى عن سيدة أصابها طلق ناري في رأسها ولم تمت، أنقذها الأطباء ولم يفهموا كيف نجت.

قبل لقاء أبي بالذئب لم يكن يملك سوى خنجره القديم، وكلما أحضر لنا حلوى الملبن أخذ قالبا منه في جيبه على أمل أن يلتقي الذئب الأبيض ذات ليلة.

عندما تواجها نظرا لبعضهما البعض كخصمين متكافئين، أخرج أبي قالب الملبن وألقاه إليه، الذئب كان يعرف أبي، ويعرف رائحته، الذئابُ تشمُ جيداً وتسمعُ جيداً وصوتُ عوائها يدوي في الحقول البعيدة، كان الذئبُ حريصاً ومحتاطاً، لكن لم يكن خائفاً، نظر لأبي بتحدٍ وقوة، كشَّرَ عن أنيابه البارزة المضيئة كخناجر، لمعت عيناه الذهبيتان، تقوَّسَ ظهرهُ، أخفض رأسه للأسفل كرمح على وشك الطعن، فتح ساقيه الخلفيتين كمقاتل يستعد للمبارزة، تراجع أبي للخلف عدة خطوات، وبدا ساكناً، تَشمَّمَ الذئبُ قالبَ الملبنِ الكبير بحجم طفلٍ نحيلٍ مولودٍ، ككوز ذرة شامية، كيوم وُلدتَ أنت، لعق الذئبُ قالب الملبن بلسانه فأعجبه، التقمه وبدأ يأكله، علق بين أسنانه، أدخله في حيرة ولعب وانهماك شغله عن أبي، خلع عباءته برفق، نظر الذئبُ إليه وتوقع الشر، ظهَرَ الغضبُ في عينيه كهلالين من الدم، أظهر أنيابه المرعبة وزمجر، لكن غروره الكبير منعه من الهرب، طوح أبي العباءة على جسد الذئب، سحب الخنجر

وألقى بنفسه فوقه فحاصره داخل العباءة، طعنه عدة طعنات حتى سمع صرخة الموت، لفَّهُ في العباءة وحمله كفارس مهزوم وعاد به إلى البيت، شق بطنه وأخرج كبده، وأكل منها قطعة نيئة، وأمر أمي أن تطهيها بالبصل والزبيب والفلفل وأكلها كاملة، وَعلَّقَ جثة الذئب على شجرة التوت أمام البيت لثلاثة أيام ثم اختفت دون أن نعرف من أخذها .

- يا له من ذئب شجاع يا أمي كان يستطيع الهرب!

- كان مقتنعاً أنه سيهزم جدك في أي معركة لذلك خسر!

الثقةُ العمياءُ بالنفسِ تُهلكُ صاحبها أكثرَ الأحوالِ يا ابن بطني، أنت رأيت السمام كيف يقتل الكلاب الضالة برصاصة بندقيته، طلقة واحدة ينقلب الحيوان المسكين مكانه ويحرك قدميه للحظات ويموت، سمعت أنه قتل ذئباً في أرض اللبانين وهو يهرب من عدة كلاب ليلاً في ضوء القمر، وقف الذئب شامخا ونظر إليه بقوة، لكنَّ الذئبَ لمْ يَعرفْ قدرْ الرصاصةِ وغدرَ البندُقية.

- كأنك كنت تحبين الذئب؟

- الذئبُ لديه نخوةٌ وشرفٌ وكبرياءٌ وشجاعةٌ، الذئبُ شجاعٌ في كل الأرض، لكنَّ الكلابَ تمتلكُ الشجاعةَ فقط تحتَ أقدامِ أسيادها وفي حمايتهم.

- حدثيني عن العفاريت التي حملتيها في حجرك؟ ما شكل العفاريت يا أمي؟

- أخبرني أنت عما جرى في قلابشو ؟

- لم يجر شيء طاردني كلبٌ أسودُ وهربتُ منه وسقطتُ في مصرفٍ وكدتُ أغرقُ .

- كلبٌ أسودُ أيُّهَا الكذَّابُ، لقد قال ابن عمتك أنك مشيت وراء امرأتين تجمسان السمك لمسافة بعيدة حتى فقدوا أثرك.

ووجدوك على الطريق مغشياً عليك وحولك عمال ترحيلات وأحضروك للمستشفى أنسيت؟

- آه يا أمي لا أعرف هل هو حلم أم واقع، عقلي مشوش ولا أعرف هل حدث ما حدث أم لم يحصل أصلا؟!

- وماذا حدث ؟

- سأخبرك عندما تخبرينني عن العفاريت .

- ما عفريت إلا ابن آدم، أخذت الغداء لجدك في الغيط عند آذان المغرب، أضرب له البيض في القشدة وأنضجه كما تحب أنت الآن، يعشق البلح العجوة بعد تحميره في السمن البلدي، ويعشق الحمام ، أكل وشبع وحمد الله، ألحَّ عليَّ أن آكل معه لكني أتغدى مع جدتك قبل العصر بساعة كعادتنا، كنت أحب أن أراه وهو يمد يده عالياً

إلى القلة الفخار على شجرة النبق، وأنا أسمع صوت زغردة الماء وهو يتدفق من ثقوبها إلى شفتيه، وينساب الماء البارد على رقبته وصدره، كأنه أعظم رجل في الدنيا، استأذنته ورجعت إلى البيت، توهمتُ أن أحدا يسير ورائي التفتُ لكن لم يكن هناك أحد إلا القمر البدر في السماء العامرة بالنجوم، الذرة أعواده عالية تملأ الليل هلعاً وقلقاً وكُلَّمَا تمكَّنَ الخوفُ من قلبي نظرتُ إلى أبي جوار الساقية ، تحت العريشة المحتمية بشجرة النبق، في ضوء مجمرة النار في القصعة الصاج، يُداعبُها النسيمُ دون أن يُطفئ شعلتها المرهفة، وكلما خَفُتتْ وضعَ لها قضبان ذرة جديدة جففتها الشمس.

أكملتُ المسير مطمئنة وعندما أصبحتُ في حرم شجرة الجميز الكبيرة كبيتٍ ، رأيتُ الأرانب تقفز وتلعب في ضوء القمر وتأكلُ الجميز الشهي الناضج الذي استوى فتهاوى إلى الأرض، قلتُ : ما شاء الله ! أرانب بيضاء وسوداء! وضعتُ الصينية على الأرض وحاولت الإمساك بأرنبٍ فلم يهرب مني، عندئذ جعلت حجر جلبابي كإناءٍ عميقٍ وأخذتُ أمسك بالأرانب حتى ملأتُ حجري، ثم أقعيت على ركبتي وحملت الصينية بيدٍ واحدة ووضعتها على رأسي ثم وقفت وواصلت المشي إلى البيت، لم أشعر أنني أحمل شيئاً ثقيلاً كأنَّ حِجري هواءٌ، كنت أسير كالفراشة المندفعة في النسيم، وصلتُ بيتنا فطرقت الباب بظهري، التقتني جدتك في الطرقة بين باب الشارع وباب الشقة الأرضية سألتني : ماذا تحملين ؟!

قلت : أرانب بيضاء وسوداء يا أمي وجدتها تحت شجرة الجميز!

جدتك صرخت ولطمت صدرها ووقعت في الأرض.

ظللتُ طريحةَ الفراش عدة أسابيع، حَلَّاقُ الصحةِ عَجَزَ عن معالجتي من الحمى الغريبة التي ظلت في جسدي، الشيخُ مروان الكفيف جارنا قرأ سُورَ قرآنٍ كثيرة، الحاجةُ مريم عملت لي حجاباً وأمرت أمي بعمل (تبييته بعد تبييته) وقدمنا قرابين، ذبحت أمي ديوكاً سوداءً وطلت وجهي وبطني بدمها الساخن، أشعلت شموعاً ووضعتها مع حلوى وحمص ولبن وعسل وفول سوداني وملبس وورد أسفل السرير، لليالٍ كثيرةٍ رأيت الموت بعيني لكن الله أنجاني.

بعد فطامك بعام، رأيتُ كأنَّ امرأة عريانة تمشي في صالة البيت باتجاه الحمام، ضوء لمبة الجاز الوحيدة التي تُضيء شقتنا هذه وهي ما تزالُ طوباً أحمرَ لم تجعلني أشك أنني أنظر بعينيَّ إلى امرأة عارية فائقة الجمال، شعرها الذهبي يغطي ظهرها كله ويستر عجيزتها تماما. كنتُ أرضعُ أخاك ضياء، لم أنطق بحرف، تجمدتْ عيناي عليها وصوتُ أنفاسي يتسارع ونبضات قلبي تنتفض ورعشةٌ تهز جسمي كله، قالت لي بلهجة واضحة (أغمضي عينيك عني) كنتُ متيبسةً ككوزِ ذرةٍ تَحمَّصَ في الشمس، كنتُ مشلولةً لا أستطيعُ تحريك أصبع أو رمش، فوهة اللمبة الجاز أخذت تفيضُ (بالهباب) كمدخنة فرن كبيرة، الدخانُ الأسودُ ظلَّ يتعاظمُ حتى أظلمَ البيتُ،

عندما أفقتُ لم أجد ضياء على صدري، أخذتُ أفتشُ في أركان البيت كالمجنونة وأنا أبكي (يا رب يا رب)، ظللت أبكي وأتوسل، طلبتُ السماح، نحيبي الهادرُ هزَّ حيطان الشقة دون أن يسمعني أحد، فتشتُ تحت السرير، بحثت عن أخيك في الحَمَّامِ، فتحتُ الدولاب درفة.. درفة وأخرجتُ ثيابي وثياب أبيك، ولم أجد لأخيك أثراً، قعدتُ على الأرض وأخذتك في حجري وأنا أبكي وأملي في ربي لم ينقطع، بعد ساعة أو ساعتين، الدخانُ تلاشى، وذابتْ العتمةُ، سمعتُ صوتَ بُكاءِ أخيك باهتاً وضعيفاً، تتبعتُ الصوتَ، وجدتُ ضياء محشوراً بين كتفِ الدولاب والحائط، أخرجته برفقٍ ضممتهُ في صدري وظللتُ أُقبِّلهُ وأبكي وأنا آخذُ أنفاسه في أنفاسي قبل أنْ أهوي إلى الأرض ساجدةً لله .

- لماذا خطفته المرأة الجميلة ؟

- كانت جِنِّيةً وليست امرأة !

- جِنِّيةٌ آها ..قلتُها وأنا أهرشُ في رأسي مندهشاً وتساءلت : هل تشبه هذه الجنيةُ أحداً تعرفينه يا أمي؟! ربما كانت قرينةً لامرأة كانت قريبة منك ؟! ثم ضحكتُ ساخراً وأنا أكررُ أشتاتاً أشتوت!

أتعرفين يا أمي كنت أسمع الممثلة ماري منيب، تقول هذه العبارة أشتاتا أشتوت في أحد أفلامها، وعندما استغرقت في القراءات، عرفت أن المشعوذين يصرفون العفاريت بقراءة سورة الزلزلة، وعندما يصلون لقول الله: يصدرُ الناسُ أشتاتاً، يكررون الكلمة

مرات عديدة، أشتاتاً.. أشتاتاً.. أشتاتاً، لتتفرقَ العفاريتُ وتعود من حيث جاءت.

نظرتْ أمي لي نظرةً مليئةً بالدهشة والذهول وبدا عليها الارتباك والاستغراب الشديد، سرحتْ في سؤالي واستغرقتْ في تفكيرٍ عميقٍ ، رفعتْ وجهها للسقف وتنهدت وقالت لي:

لم يسألني أحدٌ أبداً هذا السؤال ولم يخطر لي ببال !

لكنْ يُمكنني الآن أنَّ أتذكَرَ أنَّ هذه المرأة كانت تُشبهَ امرأةً تعرفني وأعرفها لسنوات طويلة قبل أن يقع الحادث !

- أيُّ حادثٍ يا أمي ؟!

تنهدتْ وثبتتْ عينيها على نقطة ثابتة في الحائط وقالت : فريال... رحمها الله.

ثم التفتْ لي ونظرتْ في عينيَّ بعتابٍ وألمٍ وقالت ساخرة: أنت تتوهمُ أنَّ الظلامَ كفيلٌ لستِر أفعالكَ حيثُ لا يراكَ أحدٌ، لكنْ عليك أنْ تعرفَ أنَّ هناك كائناتِ كثيرةً يُمكنُها أنْ ترى في الظلام.

أدهشني كلامُها العجيبُ ووجدتُني ألحُ عليها أنْ تَصِفَ لي صديقتها فريال !

نظرتْ لي وضربتني على فمي بقسوةٍ مزيفةٍ وقالت: أغلق فمك. وقم نظف قذارتك واستحم .

توقفتُ عن الذهاب إلى قلابشو كأي نذلٍ جبان، واستبدلتُ المكان، أذهب إلى طريق بورسعيد وساحل عزبة البرج والنيل، كنت أشعر بالحنين إلى تيسير وأشتاق إليها وتقهرني الرغبة فيها، لكني لم أكن رجلاً بما يكفي لأتحملَ مسؤولية جريمتي .

قَبلَ أنْ يَغشَّانَا النورُ

كانت جريئةً جداً وكنتُ جباناً جداً، أنا شجاعٌ عندما أكونُ خفياً عَنْ أعْيُنِ النَّاسِ، ناسياً بوعي صَارمٍ أو بعبثِ الطيشِ قُدرةَ الذي يَرى كلَّ شيءٍ حتى التواء دودةٍ في بطن حجرٍ.

كلَّ مساءٍ في الثامنة، أنتظرُهَا ثم أسيرُ قريباً منها وتشتبكُ الأصابعُ، في اليوم الرابع من خروجنا معا إلى الكورنيش أعطتني قطعة شكولاتة صغيرة، الحبُّ أنفاسٌ وكيمياء وروائح، نفورٌ وانجذابٌ، وكما تفعلُ رائحةُ الموز في أنفاس الآدميين، كانت قطعةُ شكولاتة رخيصة وجيدة بجوز الهند، تُشعلُ ملحمةً لدقائق.

كنا نسير كعادتنا أمسكتني سلمى من يدي وعبرت بنا الطريق وفي شارعٍ صغيرٍ معتمٍ بجوار كشك فواتير مياه مغلق، شبَّت على أصابع قدميها واقتربت... كُلُّ التفاصيلِ تَبهتُ في ذاكرةِ العِشقِ إلا اصطكاكَ الأسنان وعناقَ الألسنة.

مرتْ ثلاثةُ أيامٍ، لم تجدني في عملي في محل البقالة الصغير، لم أكن في انتظارها كالعادة، سألت وعرفت من ياسر أنني مريض .

في صباح الجمعة جاءت إلى بيتنا ومعها تفاح وموز، التقتها أمي في بئر السلم، كانت ترتدي جيبة قصيرة وسترة من نفس القماش وأسفله قميص أحمر دم غزال، سألتها أمي ماذا تريدين ؟

قالت: أريد رؤية كامل !

سألتها ماذا بينك وبينه ؟

- أحبه ويحبني

- لكنه فقير لا يملك شيئاً وأمامه دراسة لم يكملها ؟!

- يملك مستقبله وأنا أؤمن به يكفي أنني أحبه وهو أيضا يحبني.

- ألا تخافين من هذه الجيبة القصيرة أن ينكشف لحمك، وأنت تصعدين أو تهبطين ؟!

ضحكت سلمى ضحكة ماجنة، كانت جميلة وجذابة ومتناسقة وتملك جسدا بديع التفاصيل، سحبت أمي (المقشة البلح) من ركن على بسطة السلم وضربتها على عجيزتها فهربت مذعورة، امتلأ الشارع بالمشاهدين، وأنا في سكرات الحمى لا أعرف ما الذي يجري في مدخل البيت، سمعت الضوضاء والأصوات لكن لم أكن أستطيع رفع رأسي.

سلمى هربت والخبر انتشر وصعدت أمي للبيت ولم تخبرني بشيء، عندما تعافيت عرفت الخبر من الشارع، أردت أن أتقمَّصَ شخصيةَ الرجلِ الناضجِ الآمرِ وأدخل مع أمي في معركة لتأديبها على تجاوزها في حق حبيبتي الجميلة، لكن أمي أخبرتني أنني يمكنني الحياة مع بنات الجن والإنس بعيداً عن بيتها الطاهر، وقالت لي : هذه الفتاةُ لا يُمكنُهَا أنْ تَحفظَ عِرضَ رجُلٍ.

كنتُ أتعجبُ كيف تعرفُ أمي الفتاة الصالحة من الفتاة المستهترة؟!

تعرفها خلال دقيقة واحدة، من مشيتها وحركتها ودبة قدمها على الأرض، كانت تعلمني: الفتاةُ التي تُظهرُ لسانها وهي في الشارع أو حفل زفاف أو بين العامة، ستكون فتاة وجهها مكشوف ووقحة، و الفتاة التي يرتفع صوتها بالضحكات حتى يسمعها الناس في آخر الحي سترفعُ صوتها أيضاً في لحظاتٍ أخرى.

قلتُ لها: أخبريني عنها !

هذا هو الوقت المناسب، صديقي عامر أخبرني أنك كنت تنادين سلمى أثناء ضربها في لحظات غضبك ب فريال !

من هي فريال ؟!

- رحمها الله، لا يجوزُ على الميتِ سوى الرحمة، هي في دار الحق ونحنُ في دار الباطل، لا يمكننا الحديث عنها الآن.

- لا بأس يا أمي الحبيبة، لكن لماذا ناديت سلمى باسم فريال؟!

- كُلُّهُنَّ يُشبهنَ بَعْضاً فِي لَحَظاتِ الضَعفِ.

- ماذا تقصدين ؟!

- ماذا بينك وبين سلمى؟! أنت تعرف ما أقصده يا ذيل الكلب، قم من جانبي لعنة الله عليك، تطهر واستغفر واتق الله في نفسك، تذكَّرْ أنك ستدخلُ قبراً ضيقاً.

- ماذا كان شكل فريال ؟

- لن أخبرك بشيء.

قبلت يديها وعانقتها واعتذرت لها وتوسلت لها أن تخبرني، قالت : كانت جميلة، جميلة للغاية، شعرها كسنابل ذهبية، ضفائرها الكثيرة المتعددة الصغيرة كسنبلات القمح، كانت أُمُّنَا تنفقُ وقتاً طويلاً في إعدادها!

- أمك؟!

- نعم أمي، كانت فريال البكرية بيننا!

- لم أسمع هذا الكلام من قبل.

- الآن قد سمعت .

- كيف ماتت ؟

- ماتت وهي تلد، لم تتجاوز الرابعة عشرة يومئذ، كنا كناقر ونقير، كأننا عدوتان، في خناقٍ وعراك مستمر، تكرهني بدون أسباب مفهومة وكنت أشفق عليها، لحظات الصفاء والمحبة بيننا كانت قليلة معدودة، كان الشيخ زكريا يسمينا قابيلة وهابيلة، ويقولُ لي: أشرسُ العداواتِ عداوةٌ بين أختين.

تزوجتْ مُبكراً من رجلٍ لا تحبُّهُ، أكبر منها بثلاثين سنة، لم أقصد أنْ أشي بها وحبيبها عند أبي، كانا حبيبين طاهرين لم يلمسا

بعضهما أبداً، ربما قبلة خاطفة، وكانت تلك خطيئة، ليس مثلك أنت وصاحباتك المائسات، ظلت تعتقد أنني السبب في التفريق بينها وبين عفيف، مات بحسرة قلبه عليها، ألقى نفسه في هويس النهر وجرفه الماء وانتشلوه قبالة كفر حميدو متورماً ونهشت الأسماكُ لحمه وفقأت عينيه، لم تحتمل فريال الحياة بعده، نزفت يوم الولادة كأنها تتشهى الرحيل ولم نستطع إسعافها ولحقت به.

رحمهما الله كانت قصة عفيف وفريال حديث العزبة لسنوات طويلة.

ماتت وهي تظن أنني دمرت حياتها وحرمتها من حبيبها.

انهمرت أمي في النحيب والبكاء، ضممتها في صدري وطيبت خاطرها: لا تحزني لم تكوني سوى طفلة وقتها، ولم تقصدي إيذاءها بالطبع.

أمي ضربت سلمى ونسيت اليوم والواقعة، لكن سلمى لم تنس شيئاً .

أبي رجلٌ كادحٌ ثروته هي عمله اليومي وعافيته، إذا لم يذهب للعمل يمكن أن نبقى بلا طعام حتى نموت جوعاً ، مهنته شاقةٌ جداً، كما فعل أجددانا في قناة السويس، يحفر الأرض بالجاروف والفأس، بعد رسم مخطط البيت أو العمارة بالجير الأبيض، ثم يبدأ أبي وجدي وفريق الحفر في تهيئة الأرض وحفرها بشكل هندسي لتأسيس الجدار، وعندما يبدأ النجارون في تشييد الأخشاب ونصب حديد التسليح قبل صب الخرسانة عليه، ينتهي عمل أبي المرهق

الشاق، سنوات طويلة قبل دخول الحفارات العملاقة لمدينتنا، وعندما جاءت الآلة، انقطع أكل عيش آلاف الرجال.

كنت أعمل أنا وأخي لتخفيف العبء الثقيل، وكانت أمي تربي البط والدجاج، وبيضة فوق بيضة تصبح قميصاً جديداً أو مصروفات العام الدراسي الجديد، كنا فقراء كادحين لا نملكُ مدخرات من أي نوع، وليس لدينا ممتلكات ولا موارد سوى أنْ نعمل لكي نعيش، لم يكن ممكناً أن نموت جوعاً أبداً، لأنَّ هدايا الله كانت تجيءُ دائماً في الوقت المناسب، عندما يكتملُ اليأسُ.

كانت تيسير تخطرُ ببالي أحيانا، لكنَّ جمالَ ودلال سلمى أنساني تيسير.

طيشُ الشباب! عبارةٌ قبيحةٌ ومخزيةٌ ومزيفةٌ، منذ متى كانت الجريمةُ طيشاً؟ نُخرِّبُ جمالَ الحياة بوقاحتنا وجرأتنا ونخوضُ في المحرمات ببلاهة صبيانية كأنَّ الأعراضَ لعبةٌ، والأرحامَ استراحةٌ لكلِّ عابرٍ.

لم أكن أطمح لأكثر من التنزه مع سلمى على شاطئ البحر، أو اختطاف قبلة عابرة، في شارع جانبي معتم، لا أريدُ تكرار الجريمة، ليست كل مرة تسلم الجرة كما يقول المثل.

كانت دمياط مدينة هادئة، السيارات الفارهة بها معروفة بلوحاتها المعدنية وأسماء أصحابها، فلاحون وحرفيون وعمال بسطاء، تبدلت

حياتهم من الكد والعناء إلى الطفرة، فأصبحت المقهى محل حلويات كبير، وصانع الأحذية صاحب مصنع، والنجار صاحب مصانع ومعارض ونسى الناس أصولهم الفقيرة، وامتلأت بلد الفلاحين الفقراء بالهوانم ورجال الأعمال .

المدينة التي يشقها طريق واحدٌ محاذ للنيل، لا يمكن أن يزدحم بالسيارات، كانت الساعة العاشرة تُعتبر وقتاً متأخراً، في مناطق عديدة من المدينة، والبيوتُ الواطئةُ تُغلقُ نَوافذهَا في الليل.

كانت سلمى تريد امتلاكي وانتزاعي من حضن أمي ولا يهم ماذا يحدث بعد ذلك، حربٌ أزلية بين امرأتين! ولم تكن تملك وسيلة لتنفيذ ذلك سوى شيء واحد، جميل وناعم وحنون وعطر ولا يقاوم.

لم أخبرها أبدا عن تيسير، ربما لست مؤمناً بحقيقة ما جرى ولم أصدقه! أو أنني أفتحُ لنفسي طاقةَ خيالٍ لأهربَ من جريمة طيشٍ في لحظةٍ شبقةٍ.

الكورنيشُ كان ملاذَ العاشقين الفقراء، والأماكنُ المعتمةُ في مداخل العمارات السكنية، في لحظات المساء الهادئة، حيث يُمكنُ سرقة قبلة وعناق، وكثيراً ما يُفتحُ بابٌ فجأةً أو يُضاءُ مِصباحٌ فنجري بكلِّ قوةٍ هرباً قبل أنْ يغشانا النورُ .

غرامُنا الرومانسي كان محدوداً ومقيداً، لأننا لا نملكُ مكاناً نلتقي فيه بخصوصية وأمان! ولو توفَّرَ الوكرُ للملذةِ هل أمتلكُ الجرأةَ لتكرار مأساة الأمس؟

التبست الأمور في ذهني وتحيرتُ من كلمة تيسير، ثم إشارتها إلى بطنها والثمرة التي تكبر في غياب غارسها .

توهمتُ في لحظاتٍ كثيرةٍ أنَّ شخصاً مماثلاً لي في كل شيء يشاركني حياتي، يأكلُ معي، يتحركُ ويجيء، يعشقُ بالنيابة عني أحيانا، يرتكب أفعالاً تُغرقني في الندم، خرافاتٌ كثيرةٌ تحكيها الجداتُ لنا عن المسِّ والشياطين، ومنذ هاجمتني الكلاب تلك الليلة، صار البعض يتعاملُ معي كممسوس. يسكنني شيطانٌ مَاردٌ، أتمزَّقُ بين صوتين، يتحدثان لي من أعماق نفسي، تغلبني رغباتي فأتبعها مسلوب الإرادة.

أتيهُ كالدراويش، أتبتَّلُ في المحاريب، أتنقّلُ بين أبواب الرضوان، أنتصبُ قائماً في الليل، أطمحُ في القرب والمكاشفة، أستمسكُ بالعروة المقدسة، تغلبني خديعةُ نفسي، أستشرفُ الفتنة حيث تمرُّ، أبني قصراً على الرمال أشيدهُ هائلاً، ثم أدخلُ في تجربة ، فأذهب في الذاهبين!

كالضبابِ والدخان، مَسَّني بين الغفوة واليقظان، وضعَ يدهُ على قلبي، خِدرٌ كاملٌ سيطرَ على جسدي، أصابني شللٌ تامٌ، وما زلتُ أحاولُ أن أنتفض.

كانت ليلةُ السبت تحملُ لي هاجساً مرعباً، سأتعرض لأذى، أعجز أنْ أدفعه عن نفسي وأنا نائم!

بدأتُ أنتبه أنَّ شيئاً غريباً يحدثُ، تلك الليلة، عندما أستغرق في النوم، أتقلَّبُ في الفراش إلى جانبي الأيسر، أشعر بقشعريرة ورعشةٍ ترجُّ جسدي، كأنَّ غمامةً سوداء غطت ظلام الغرفة بإعتامِها الهائل، عندها أشعرُ بوجودِ كائنٍ غير مرئي معي، أدخلُ في صراع مع شيءٍ لا أراه، يجثم فوق صدري، يخنقني، أشعر كأنما يزدادُ الظلامُ إعتاماً في الغرفة، أسمع طنيناً خافتاً كطنين بعوضة مرهقة، عندما يلمس جسدي بعد استغراقي في النوم تتجمدُ أطرافي كشللٍ مؤقت، لا يمكنني الحركة أو الدفاع، وتضربني كوابيس ثقيلة، مرات كثيرة أنتفض، أجمع أصابعي كملاكم، أسددُ لكمةً قوية لوجهٍ قبيح مخيف، وعندما أستيقظُ أجد أثر قبضتي على شباك السرير، حفرت به حفرة، أو أفسدَ دمُ يدي طلاءَ الحائطِ الجيري.

سلمى أدخلت نفسها في معركة مع أمي وتريد كسبها، لم أكن أنا نقطة الجاذبية لديها ولا هدفاً، كنت أشبه ما أكون بلقمة تُمضغُ وتُبصقُ .

صرت أنا وهي حديث الناس، وأصبحت خاتماً في أصبعها، أدمنتُ وجودها في حياتي وأصبحت أعيش على غرامها المستعر، وبداخلي ينمو تردٌ كبير في الارتباط بها، كنت مليئاً تجاهها بالهواجس.

كنتُ أتوهمُ أنني حبيبُها الوحيد، لكنْ عندما زلَّ لسانُها وقالت لي : أنا أحبك يا مجدي!

شعرتُ أنَّ لوحاً زجاجياً تهشَّم في أوردتي.

لم تكن بي رغبة لعقابها، كانت بداخلي رغبة لأعرف.

أدمنتُ الاستماع لحكاياتها مع عشاقها الآخرين وهى أدمنت حناني وراحتها النفسية واطمئنانها وإحساسها بالأمان وهي تحكي لي كل شيء يحدث في حياتها الخفية وكيانها.

كنت أستنير بحكاياتها ولا أشعر بالغيرة لوجود عشاق آخرين لها ، لأنَّ ما بيننا ليس سوى غرامٍ بدائي، أولهُ شهوةٌ وآخرهُ زهدٌ ومللٌ، كنتُ مفتوناً بالمعرفة واطلاعي على أسرارٍ تبدو بسيطةً وتافهةً لكنها ليست كذلك.

ذاتَ يومٍ بكتْ في صدري وناحتْ كيمامةٍ فقدتْ أليفها، أخبرتني عن حبيبها الذي فَقَدَتْهُ إلى الأبد .

قلتُ لها: رَحِمَهُ اللهُ. قالت: لم يمت بل تزوج! اختار فتاة غنية وباعني بعد سنوات غرامنا المحموم، بكت في صدري وبللته دموعها.

كانت كلما رأت قميصي مفتوحاً تُغلقهُ وتقولُ لي : لا تسمح للبنات بالمشاهدة، تلطمني على خدي بدلال ثم تترك أحمر شفاهها على

الفانيلا الحمالة البيضاء خلف كتفي بنعومة ورقة، كرسالة بين محاربتين شرستين وتسلمت أمي كل الرسائل.

هددت حبيبها الغادر بهدم ليلة عرسه على رأس عروسه الثرية، إن لم يسمح لها برؤية سرير العرس قبل أن تمسه امرأة أخرى قبلها.

كنتُ أخدعُ نفسي وأخدعها، لم أفكر للحظةٍ واحدةٍ في الزواج منها، كأي شابٍ مستهترٍ أستمتعُ وأتسلى، وعندما فاجأتني أنَّ عريساً جاهزاً سيتقدمُ لها، أخبرتها بحقيقة عجزي عن التقدم لخطبتها ، وغنيتُ لها الأسطوانة القديمة التي يجيدها كل الشباب المستهتر.

دوتْ الزغاريد وارتدت في أصبعها دبلة خطوبة لشابٍ غيري.

الملاءة الحمراء

جلستُ على المقهى، طلبت فنجان بن، أخبرت الأصدقاء أنني سأسافر إلى القاهرة خلال يومين.

- خيراً إن شاء الله لماذا السفر؟ سألني محفوظ.

- وصلتني بطاقة التنسيق يوم الزلزال وسألتحق بالجامعة قسم صحافة.

- ظننتك ستحقق حلمك وتلتحق بالكلية العسكرية؟

- للأسف هذا غير ممكن لأسباب كثيرة، بنيتي الجسدية الضعيفة وظروفنا الفقيرة أفسدت هذا الحلم.

- لا تحزن يمكنك أن تخدم وطنك في أي موقع.

- نعم أستاذ محفوظ معك حق.

- كيف وجدت الكتاب؟

- قرأتُه معكوساً.

- ماذا تقصد؟

- سأروي لك كيف قرأتُه.

- وأنا أسمعك باهتمام.

في الساعة السادسة من صباح الخامس من يونيو وقف موتي هود بين طياريه نفس الوقفة التي وقفها قائد سلاح الجو الياباني في الحرب العالمية الثانية وبكل قوة وحزم وثقة وإيمان قال بصوت رخيم:

((((إنَّ أرواحَ أبطالِ إسرائيلَ تُرافقنا إلى المعركة وعلينا أنْ نستمدَ قوتنا مِنْ يشوع بن نون والملك داود والمكابين ومقاتلي ثمانية وأربعين وستة وخمسين لنضرب المصريين الذين يهددون سلامتنا واستقلالنا ومستقبلنا.

طيروا وحلقوا نحو العدو وبعثروه في طُولِ الصحراء وعرضِها حتىَّ تعيشَ إسرائيلُ آمنةً في أرضها لأجيال))))

وفي تمام السابعة وعشر دقائق أقلعت ست عشرة طائرة قاذفة من طراز ماجستير فوغا فرنسية الصنع من مطار حتزريم لإعطاء إشارة مضللة بأنها طلعة تدريبية روتينية وبعد عدة دقائق كانت في سماء إسرائيل أكثر من مئتي طائرة ميراج وأوراغان وميستر مارك وسوبر ميستر وفاتور وفوغاس من مطارات هاتزريم ورامات ديفيد وحتزور واندفعت على ارتفاع منخفض أقل من عشرين مترا باتجاه البحر الأبيض كأنها تشق البحر نصفين طولياً باتجاه الغرب ثم استدارت باتجاه الجنوب ودخلت المجال الجوي المصري فوق رشيد والبرلس وانقضت على المطارات الحربية

المصرية في أكثر من ثمانين موقعا في فايد وكبريت وأبو صوير وبورسعيد وألماظة وبني سويف والأقصر.

أُقْسِمُ لك أستاذ محفوظ أنني ظللت أتأمل خريطة الهجوم وأتساءل باستغراب وحيرة.

- تتساءل عن أي شيء يا كامل؟

- الطيارون الإسرائيليون التزموا الصمت التام لا اتصالات ولا كلمات فقط إشارات بالأيدي.

- صحيح

- وكانوا يحلقون على ارتفاع خمسة عشر مترا.

- صحيح

- ورادارتنا في ذلك الوقت لا يمكنها اكتشاف هذه الأسراب ومنظومة سام 2 عاجزة عن اعتراض هذه الطائرات.

- ماذا تريد قوله؟

- مناورة الطائرات الإسرائيلية لغرب البحر المتوسط لمسافة واسعة خلق في ذهني تصوراً عجيباً.

- ما هو؟

- الأسطول السادس الأمريكي كان قريباً غرب قبرص أليس كذلك؟

- نعم معلومة صحيحة.

- لقد بدت لي المناورة الواسعة في عرض البحر فرصة ذكية لاندماج الطائرات الأمريكية ضمن الهجوم.

- هذا ممكنٌ جداً وناصر نفسه وجَّهَ هذا الاتهام لأمريكا وبريطانيا كما حدث من قبل في ستة وخمسين.

- طبعا التشكيلات الإسرائيلية الثانية استدارت وعبرت النقب وخليج العقبة وضربت مواقع كثيرة في سيناء والعمق المصري، وما تزال فيديوهات وصور القصف متاحة للجميع.

- نعم شاهدنا العديد من البرامج الوثائقية نشرتها البي بي سي ومحطات أخرى.

- لقد تخيلت شيئا مختلفا وحلمت أحلام يقظة كانت في أيدي العرب يومها لكن لم تتحقق.

- أي أحلام يا كامل؟

- موقع الرادار الإنجليزي الحديث في منطقة عجلون بالأردن رصد الطائرات الإسرائيلية في اللحظات الأولى وتابع رصدها وهي تستدير من عمق البحر غربا باتجاه مصر وسيناء.

- للأسف هذا ما حدث.

- الضابطُ الأردنيُ سلَّمَ الشيفرة - عنب...عنب - والتي تعني الحرب قامت، للجنرال عبد المنعم رياض في عمان الأردنية وأرسلها رياض لوزير دفاع مصر شمس بدران.

- فعلاً للأسف الشديد.

- دعنا نتخيل ونتوقف قليلاً. إسرائيل أطلقت سلاحها الجوي كاملاً لمهاجمة مطارات مصر الحربية.

- نعم معلومة صحيحة.

- وأصبحت إسرائيل مكشوفة لأي قوة بسيطة يمكنها تدمير مطاراتها ومفاعل ديمونة وموانيها.

- كان من السهل تغيير كل النتائج بهذا الاكتشاف .

- هل تعرف يا أستاذ محفوظ أين تكمن الفجيعة؟ لقد كان القادة الإسرائيليون يتوقعون حدوث هذا الحلم الذي تخيلته بنسبة كبيرة جداً، تصور كانوا ينتظرون اجتياحاً عربياً كاسحاً للأرض المحتلة لكننا كنا نتثاءب ونرتعش وننهزم قبل دخول المعركة، وبعدما دمرت إسرائيل طائراتنا ومطاراتنا الحربية، وقصفت مواقع سورية وعراقية، اندفعت قواتها البرية باتجاه سيناء وبدأت عمليتها الشرسة الملاءة الحمراء، ورغم الهزيمة التي بدت واضحة في الساعات الأولى من خمسة يونيو، كانت القوات البرية المصرية قادرة تماماً على إيقاع خسائر مرعبة في صفوف القوات البرية الإسرائيلية،

رغم وجود الطيران الصهيوني المتفوق، وقصفه المتكرر للمدرعات والفرق المصرية المكشوفة في سيناء، ثم جاء قرار الانسحاب ليحول الجيش المقاتل إلى قطعان من الخراف في حفل شواء كبير.

مَثَلٌ أعْلَى

الجامعةُ بدت لي، كشابٍ ريفي مثل حُلمٍ، الفتياتُ تنهمرُ على بوابة الدخول بجامعة القاهرة كشغالات النحل، كنت أعرف أنني لن أرى هذا المشهد أبداً في كليتي بالحسين في جامعة الأزهر، لذلك قبلت دعوته لاصطحابي معه لنزور المقام العظيم! نمكث عدة ساعات ثم ننصرف، لحديقة الحيوان، للمقهى، للكلية حسبما يستقر الطيش.

كان من أجمل شباب الجامعة، كما كان أجمل طفل في المعهد، وكنا نحسده على سحره للبنات وقدرته على إيقاع الجميلات في غرامه، لم أكن أنتبه من قبل لوجود شباب جميل مليء بالحسن كالإناث، وكنت أضبطُ نفسي غارقاً في التفكير في تفاصيل ثروت الناضحة بالأنوثة، كان أبيض ممتلئاً متوسط الطول، ناعم البشرة، جميل الخلقة، بعينين كحيلتين، طويلة الأهداب بدرجة عجيبة وغزيرة جداً، تُضفي على عينيه حالةً من الإغواء والجاذبية، وفمه مرسوم بشفتين مؤنثتين، كان يعشق ارتداء البنطلونات الضيقة، وكان لديه بنطلون أبيض ضيق، وعندما يرتدي بنطلونه الأبيض يُحدثُ انقلاباً في الجامعة ، مشاعر شيطانية شاذة وقميئة تكبر، لا أحد يعرف من أين تجيء وتغشي القلب؟ وتعليقات واعترافات مرعبة لطلبة أسوياء، يقيمون الليل ويغرقون في الخشوع والبكاء أثناء التلاوة والصلاة.

كنت أشعر بداخلي من خلال تصرفاته ومشيته وصوته وحركات يديه ونعومته الطاغية وجسده الناعم الطري المرن أنه مختلف تماماً عني وعن الشباب الآخرين، كنت أحس أنه يعشق نفسه ويربط بينه وبين إلهام جاهين الممثلة الجميلة في نقاط تشابه كبيرة ويتحدثُ عنها دائماً بسعادةٍ وبهجةٍ كأَنَّهَا مَثَلُهُ الأعْلَى.

...

ثروت اختفي فجأة وانقطعت أخباره وتوقف عن المجيء للجامعة، ولم يعد يقيم في المدينة الجامعية، ثم أصبح حديث المدينة عندما ظهر في التليفزيون سعيداً وفخوراً أنه تَخلَّصَ من ذكورته وأصبح امرأة حقيقية وأسمى نفسه إلهام بعد عمليات جراحية متعددة باهظة التكاليف.

عندما قابلت إلهام في أحد المولات عرفتني لكنني لم أعرفها ، كانت أنثى حقيقية في ملابسها الأنيقة، بنطلونها الجينز الملتصق الأسود، البلوزة البيضاء الحريرية، الشعر المفرود على الكتفين، الكحل في الرموش الطويلة ونظرة العينين القادحتين، العدسات اللاصقة، أحمر الشفاه الأنيق، العطر المستفز، الخطوة المتهتكة تحت الكعبين العاليين، واليد المثنية بميوعة وهي تُعَلِّقُ حقيبة يد أنيقة، مَنْ إذن يُمكنهُ معرفة أنَّ هذه المرأة كانت رجلاً؟!

لقد بقيت علامتان !عاموده الفقري والصوت !

- كامل وحشتني موت

فتحتُ فمي ونظرتُ في عُمقِ الكهفين ونزلتُ من المحجرين إلى أعماق روحه، قلتُ : لا يمكن... ثروت !

اشتعلت جمرتان تحت إبطي، شعرتُ كأنني ألهثُ، اقتربتُ وصافحتُها وبصوتٍ خفيضٍ وضعتُ فمي قُربَ أذنها مستفهماً : ثروت ؟!

قالت : أنا اسمي الآن إلهام .

ثلاثة أعوام تغيرت أمور كثيرة، سألتني عن أحوالي فتنهدت وقلت لها حكاياتي كثيرة، أضعت الحب وهزمني الشعر، وأتردى في دوامات الصحافة كسكير لا يعرف أين يسكن.

قالت : أنت تعرف أنني أعشق الاستماع إليك، ابق معي حتى أنتهي من الشراء ثم نذهب لتناول العشاء، أنت ضيفي الليلة.

- أين تسكنين يا إلهام ؟!

- الزمالك

- دعينا ننهي هذا التسوق لأنني جُعتُ جداً .

ضحكت ونظرت لي بحنين لم يخفت بداخلها رغم تعدد عشاقها، وقالت : ستأكل حتى تشبع وتنام منهكاً وعضت شفتها، واستدارت على ساقٍ واحدة، أعطتني ظهرها ودبت بالكعبين العاليين على

سيراميك الأرضية، ومشت أمامي وقالت لي : هيا بنا لنشتري ما نحب.

اشترت لحوماً ودجاجاً وشكولاتة ومكسرات وحلوى وكافيار وبيتزا وخرجنا، ركبنا معا سيارتها المرسيدس السوداء، وانطلقنا، الأشجار الخضراء المتنوعة حول سور الفيلا أراحت نفسي فهدأ توتري، نسيمٌ عليلٌ وروائحُ فُلٍّ وياسمين تعبقُ في المكان، انتبهتُ أن عيني لمحت وجهَ رجلٍ عجوز يقفُ تحت شجرة ضخمة، في يده عكاز أبيض كسن الفيل ويبتسم لي بفرحة، انقبض قلبي ومرقت السيارة ولم أنظر ورائي.

استقبلنا الغفير بحفاوة، دخلت السيارة الفيلا، وأصبحنا وحيدين، طلبتْ من الخادمة تجهيز العشاء، أخذتني من يدي وصعدنا للطابق العلوى عبر السلم الداخلي.

- أوحشتني جداً، ما أخبار الصحافة ؟

- كالعادةِ نحنُ ننشرُ الأخبارَ للناسِ ونُخفِي عنهُم الحَقَائقَ، أنا جائعٌ جداً جداً.

- يا قلبي حالاً.

تخففتْ من ملابس التنزه وجلستْ بجانبي، لم يمر وقتٌ طويلٌ وأخبرتنا مدبرةُ المنزل أنَّ العشاءَ جاهزٌ، جلسنا متقابلين وكلما

مدت يدها بقطعة دجاج لتدسها في فمي برقة، عادت رجلاً في عينيَّ.

قالت احك لي :ما أخبار مغامراتك؟ وغمزت.

وجدتها فرصة للتسلية وإضاعة الوقت، كانت بداخلي رغبةٌ قويةٌ للانسحاب، كائنٌ ما، قويٌ جداً، ألصقَ قدميَّ بالأرض.

...

...

كانت ليلةً سيئةً جداً، تحممتُ في اندلاع الفجر وخرجتُ إلى الشارع تنهمرُ دُموعي وأنا أعضُّ على شفتي وصوت آذان الفجر يعبر صفحة النهر ويجيئني من كل مكان فيميتني ويحيني.

مَرَّ مِنْ شجرةٍ إلى شجرةٍ كطيفٍ لم أتبين ألوانَهُ وماهيته، صرخَ صرخة أعرفُها، نظرتُ يميناً ويساراً، لم أره، مشيتُ حتى عبرتُ النهرَ، اخترقتني النسائمُ الناعمةُ وهي تُنبتُ العالمَ من رَحِمِ النقاء والأمل، ساقتني قدماي، بللتْ دموعي {المُوكِيتْ} الأخضر وأنا أتلاشى في سجدتي الطويلة ، وقمتُ للصلاة مع القائمين.

خرزة زرقاء

لم تستطع دمياط بجمالها وبحرها وأجوائها الثقافية وناسها الطيبين غَسلَ روحي من الكآبة.

ولمَّا عُدتُ إلى القاهرة بعد أسابيع لم أغادر المدينة الجامعية أسبوعاً كاملاً، لائذاً بالمصحف وسجنت نفسي بين ضفتيه، العازب أشبه ما يكون برصاصةٍ طائشة لا ينفدُ البارود المشتعل بداخلها، رصاصةٌ لا ترتعشُ عندما تخترقُ قلباً، فكلما استطاعت أن تنطلق تحصد العديد من القلوب، وتصنع العشرات من الثقوب وتسقط الضحايا.

صرخ صوتُ الحياة في رأسي، و يوم الأحد ذهبت إلى الكلية.

طلب مني أستاذ الإعلام الكاتب الصحفي العجوز دكتور ممدوح علوان أن أزوره في مكتبه بجريدة أخبار الصباح، بعدما التقيته في الطريق للمكتبة ، دونت العنوان في ورقة، وأثناء الغداء في المدينة حدثت المشكلة اليومية أريدُ فَصَّ الصَّدرِ لأنني لا آكلُ الوِرْكَ، وترتفع الأصوات مع الطباخ العنيد حتى يتنازل لي طالب زميل عن فص الصدر ويقبل ورك الفرخة.

انتهيت من الغداء وأنا أتلذذ بالفاصوليا التي لم أحبها إلا في المدينة الجامعية كما أكلت القلقاس لأول مرة، تذكرت كلمة أمي: بلاش إمارة.

تحممتُ وتعطرت وغسلت أسناني بسيجنال تو حتى نزفت لثتي دما، وأطلقت زخات من عطر وان مان شو في فمي وأغلقت الغرفة ونزلت.

أنزلني الأتوبيس بعيداً عن مقر الجريدة وظللت أسأل حتى وصلت سيراً على الأقدام.

سلمت البطاقة الشخصية وأظهرت بطاقة الكلية وصعدت السلم، فاصطدمت بها، قلت لها :

- آسف

- لا بأس، حصل خير، عما تبحث هنا؟!

- أريد الأستاذ ممدوح.

أشَارتْ إلى مكتبه وقبل أن تتركني دفعها الفضول للتعرف على شخصيتي، كنت أنظر في عينيها بثقة المؤمن من قدرته على التغرير بها، وكانت تجدُ في عينيَّ ووجهي شيئاً تحبه، كانت في الثانية والأربعين وحيدة وعزباء كما عرفت لاحقاً منها، منصبها الكبير في المؤسسة الصحفية الكبرى يمنحها بهاء ورهبة ومنع الكثيرين من الكلاب الضالة من الدوران حولها، عندما اصطدمت بها على باسطة السلم، كانت الخرزة الزرقاء، تلمع تحت قميصها المفتوح، كانت طويلة، قمحية، ندية ناعمة رغم سنواتها الأربعين، وسوست لي نفسي: عذراء .

سألتني ماذا تريد منه ؟!

أخبرتها أنني كاتب وصحفي ناشئ، أدرس صحافة وأسكن في مدينة نصر، أعجبها الخبرُ وسَرَّها فطلبت مني أن أمر بها بعد الانتهاء من جلستي مع الأستاذ،

كان مكتبها بين عشرات المكاتب المكتظة بالنساء، والمحررات، سألتني إن كنت أعرف نادي القاهرة، قلت: نعم، قالت : سأنتظرك هناك في السابعة.

أنهيت غدائي، تحممت جيداً، أزلت لحيتي الخفيفة أساساً، وضعت مزيل العرق، تعطرت، بخخت في فمي زخات عطرة، ارتديت ثيابي وذهبت، دخلت من البوابة كالتائه، سألت عنها، كانت تجلس بين مجموعة كاتبات في أنتريه جانبي، قدمتني للمجموعة، طلبت لي فنجان شاي، ثم انتحينا جانباً وتحدثنا، سألتني عن كل تفاصيل حياتي.

تهكمت عند معرفتها بمدينتي الشهيرة بالبخل (تشرب شاي والا انت مش كييف.. تتعشى والا تنام خفيف) وضحكنا فهي مقولة شهيرة جدا عن شعب مدينتي الساحلية، أخبرتها عن سنواتي العشرين، دراستي في قسم الصحافة والإعلام، حبي للشعر والقراءة، حياتي الكادحة، أسرتي الفقيرة، كانت تنصت باهتمام لكل كلمة، دعتني لتناول العشاء، قبلت.

ركبنا سيارتها الحمراء...وكانت سيارة جيدة.

...

مديحة فرحت معي وضحكت معي وعادت صبية مراهقة معي وضعفت معي.

كانت تقول لي إن حنان العالم كله فيك، وتتمايل بدلال وتناديني بابا، عاهدني أن تبقى معي، لا تتخلى عني مهما حدث، ليس لي أحد في الدنيا غيرك يا كامل، أنت الفرحة الوحيدة التي أخذتها من الحياة، راهنت نفسي عليك، لا تكسرني يا كامل.

كان كلامها يخيفني ويشعرني بأمانة ضخمة في رقبتي، فارق السن بيننا لم يكن حاجزاً، بل كان جنة لي، وجدت فيها الحبيبة والصديقة ودفء أم صبية، تعلقت بها وتعلقت بي، صارت بهجة حياتي مديحة، وصرت أنا عالمها الدافئ الممطر.

صرنا زوجين سعيدين، وتعرفت على صديقاتها المقربات، خاصة ميسون.

لم أنفق عليها جنيهاً واحداً فلم أكن أملك شيئا لأنفقه، تفرغت لها تماما، كانت تخبرني دائما أن الحياة لحظة والسعادة قصيرة، وأن السعادة لا تقاس بالأيام والسنوات، بل بحلاوة اللحظة وندرتها وجمالها، وأنَّ العالمَ لا يُساوي ساعةً واحدةً يعيشها الإنسانُ مع شخصٍ يحبهُ بنقاء وشفافية، علمتني العشق، وعلمتها التهور

والحرية والانفتاح على الدنيا، سقيتها قطرة عسل فاشتهت قرص الشمع.

ليس لها أحد سواي، منذ أكثر من عشرين سنة لم تزر بلدتها الجميلة طنطا، كانت يتيمة وعمتها احتضنتها وأنفقت عليها حتى تخرجت من كلية الإعلام جامعة القاهرة وعملت بالصحافة، ولما ماتت عمتها انقطعت صلتها بأخيها الوحيد الذي دهسته الأيام وهموم العيال وأجبرته زوجته على التهام نصيبها في الميراث، ولم تحاول أبداً أن تدخل نزاعاً حول غرفة ومحل في بيت قديم، ونسيت طنطا وما فيها .

هادم اللذات جاء في هيئة تذكرة سفر، فرصة العمر التي انتظرتها مديحة طويلاً، جاءت الآن بعدما صرنا معا، رغم احتياجي لها روحاً وجسداً شجعتها على السفر إلى ألمانيا، أعرف وهي تعرف أنها لن ترجع إلى مصر إلا بعد سنوات طويلة، هي عاشقة للغة الألمانية، وحققت نجاحات مشهودة في الترجمة من الألمانية للعربية والعكس، امرأة جميلة وجذابة، تحمل سحر مصر القديمة وستنجح وتمكث لسن المعاش، طبعا بمشيئة الله إن لم يحدث شيء خارج الحسابات العادية.

حاولت اقناعي بالسفر معها، لكن سفري معها كان أشبه بالمستحيل، أسرتي الفقيرة بحاجة إليَّ، وتعلق أمي بي وتعلقي بها جعل سفري

للقاهرة عذابا لها ولي، فكيف ستحتمل سنوات غربة طويلة، ودراستي الجامعية، كانت الحيرة تصدمني بقوة وتلصقني بالأرض.

مديحة سافرت، لكنها لم تستطع اخفاء قلقها بسبب التناغم والألفة التي تنمو بيني وبين صديقتها ميسون، ولأن الناس مهوسون بالانشغال بالآخرين، ونقل الأخبار مجاناً بنيةٍ شريرةٍ أو بريئة، كانت كل دقيقة أتحدث فيها مع ميسون، كل ضحكة، كل نظرة عين، تصل لمديحة أولاً بأول.

في الشهر الأول كانت تسألني عن ميسون بحجة اطمئنان صديقة على صديقتها، رغم أن الاتصالات كلها تجري عبر هاتف أرضي بالجريدة.

بدأت نبرة الأسئلة تتغير، وتحمل نكهة الشك والاتهام، غيرة في مكانها الصحيح، فقلب المرأة أقوى بصيرة من قلب الرجل.

وعندما جاءت لحظة الانفجار، قالت لي: أعرف أنك لن تستطيع أن تعيش بدون امرأة أكثر من شهرين، وأنا متأكدة أنك لن تترك ميسون تضيع من يدك، لقد رأيتها في عينيك.

رغم تحويلي للحوار القصير إلى مزاح سخيف، كانت نبوءة مديحة أكثر قرباً للحدوث.

نزلة البرد القوية التي أصابتني و جاءت بميسون لشقتنا، كانت مقصلة قاسية فصلت جسدين وروحين، وطلبت مديحة الطلاق.

كل مبرراتي فشلت في اطفاء غضبها، ورغم مرور أسبوع على حادثة الزيارة، لم تبرد نار مديحة، وطلقتها كما طلبت طلقة واحدة، ربما تتراجع، لكنها أصرت على انهاء علاقتنا بطلاق بائن، وانتهت حكاية حب جميلة تحت أقدام خيانة لم تكن وقعت فعلاً لحظة الشك والغضب، لكنها أصبحت زواجاً في وقت قصير.

النذالة

المرأةُ لا تُجيدُ الصمتَ في أيِّ موضوعٍ يتعلقُ بامرأةٍ تعتبرُهَا منافساً لها، مهما كان الصراعُ تافهاً.

مديحة أسمعت ميسون كلمات قاسية عبر الهاتف، تركته لك،، اشبعي به، غداً ستندمين كما ندمت، أنت صديقة خائنة.

ميسون تزوجت ثلاث مرات لكنها لم تجد السعادة أبداً، فكرت كثيراً في تبني طفلة لكن لم تستطع تنفيذ رغبتها، هذا العام هو الرابع لها بدون رجل، بعد أيام تكمل عامها السادس والثلاثين، رحمها لا يحتفظ بأي طفل، شهر، اثنان، ثلاثة ويسقط الجنين.

أنا أعي أنني أتورط فيها، تماماً كصرخة نزار قباني، وتركت نفسي أتورط في الحب، وأنا أقول لنفسي تزوج ميسون.

يا لها من تضحية كبيرة أن يحزن الرجل لعدة أسابيع على طلاقه من امرأة أحبها، ثم يغرق في حب صديقتها!

إذا كانت الخيانة امرأة، فالنذالة رجل.

كنا منسجمين متناغمين لم يكن ينقصنا أي شيء، انتقلتُ للحياة معها في شقتها في الدقي، كانت تفكر في تبني فتاة من دار أيتام، وكنت أفكر أحيانا في إنجاب طفلٍ يملأُ حياتنا الفارغة لكن ميسون لم تكن تستطيع تحقيق رغبتي، ولم أكن أريد تعكير حياتنا من أجل الإنجاب

وأنا أعرف أنها لا تستطيع، أما في أعماقي فلم أكن أريد إنجاب أطفال من امرأة رائعة أحبتني وأرادت أن تفاخر الدنيا بي، فقد أخفيتُ عن أسرتي خبر زواجي الثاني كما أخفيت الخبر الأول.

ذات يوم عادت ميسون مبكراً على غير عادتها، فأخبرتها أنني تشككت في وجود فأر في الدولاب، لكن الحمد لله لم يكن الصوت صادراً من دولابنا، بل من الشرفة، وأخذتها من يدها وأريتها أثر أسنان الفأر على عقب باب الشرفة وهو يحاول قرضه بأسنانه.

ارتعبت ميسون فاحتضنتها وطمأنتها أنني سأشتري مصيدة لهذه الفئران المزعجة.

انهمكت ميسون في ترتيب الدولاب، وإعادة قمصان النوم التي عبثت بها هايدي المراهقة، ابنة لجيران المقابلين لشقتنا، تخلصت من جنونها بصعوبة، لكن رأتنا ابنة البواب، وأنا أودعها على باب شقتنا.

بعدما تغدينا وأمضينا أمسية حالمة معاً في شقتنا، قلت لها : سأسافر لمدة أسبوع أو ربما أكثر، كادت تطلب مني المجيء معي لتتعرف على أسرتي وتحقق رغبة دفينة بداخلها، لكنها صمتت وأنا شعرت بكلماتها المكبوتة، قبلت رأسها وأنا أطمئنها أن الوقت المناسب سيجيئ قريبا.

غمزت لي ابنة البواب على السلم أثناء نزولي في الصباح، وقالت بجرأة : صباحك عسل يا عسل.

عَرفْتُ أن هالة الاحترام سقطت من عينيها بعدما رأت هايدي تخرج من شقتي، صارت تنظر لي كسافل أو خائن أو بائع حب ووجدتْ أمامها فرصة ذهبية لتحقق رغباتها المكبوتة بداخلها منذ رأتني أول مرة.

قلت لها : صباحك ورد يا زينب.

اقتربت مني مستفيدة من هدوء الصباح والطابق الخاوي ذي الشقتين المفروشتين، أخرجت المفاتيح وأشارت ناحية الشقة رقم ثلاثة.

- عاوزة أفرجك على الشقة هتعجبك أووووي.

اقشعر بدني للإيحاء الصارخ وغمزة العين، قلت لها بوضوح :أنت تفهمين المواضيع بشكل خاطئ، ليس لي في هذا الطريق المعوج.

ضحكت وهي تفرقع اللبانة في فمها وقالت : هو أنا هأكلك يا أستاذ.

حافظت على هدوئي وتماسكت، هي مخطوبة وستتزوج خلال أسابيع، وأنا لا أستطيع دفع ثمن علاقة كهذه، فخطيبها شاب أحمق نافر كأنه رأس حربة أو ثور ناطح، قلت لنفسي : جوهرة فعلاً !من الذي يضيع هذه الجوهرة؟ آه لو وقعت كارثة وتكررت مصيبتي مع تيسير، سأكون حريصا، لكن لو انكشفت علاقتنا سيذبحني حسام

خطيبها، ما العمل في هذه الإغراءات التي تسحقني وأستسلم لها كل مرة؟

فكرت في مد جسر تواصل فوراً بيني وبينها وكسر الحاجز الزجاجي بيننا .

قلت لها : عندما أعود سنكمل كلامنا.

منذ أيام قليلة استخرجت بطاقة شخصية، لأنها سيُكتبُ كِتَابُها على حسام ويتزوجان قبل نهاية الشهر، فَرَحٌ بسيط فوق السطح، حبلان من النور وجهاز كاسيت وعصائر وجاتو ثم العروسة للعريس.

رغم التماع عينيها الدائم بمشاعر الانجذاب لي حافظت على وقاري وحشمتي، لكن بعدما رأتني أنا وهايدي، اختلفت المعادلة.

سأشتاق إليك بقوة يا كامل، قالتها وهي تتعلق برقبتي.

- وأنت أيضا سأشتاق إليك يا زيزي.

عضضت على شفتي ومضيت وأنا أفكر في الجحيم الذي يتسع حولي كل يوم.

ركبت قطار السابعة والنصف المتجه من رمسيس إلى دمياط، ومضت الساعات بطيئة مملة كبطء القطار، وضوضاء الباعة داخل القطار وروائح الأقدام النتنة التي تملأ جو العربة كلما خلع أحدهم

حذاءه وصعد للنوم مكان الحقائب فوق الرفوف المتينة في سقف العربة.

وعندما تمتلأ مثانتي بالماء أقف لدقائق داخل غرفة كالمصعد الكهربائي في قعرها ثقب دائري بحجم كرة قدم يصرف المخلفات إلى الأرض بين قضبان القطار، ورائحة البول الآدمي خانقة تكاد أن تقبض روحي.

قلت لنفسي: لماذا لم تستقل أتوبيس سوبر جيت فاخراً، بدلاً من هذا العناء؟

استسلمت لما حدث وتحاملت، وقلتُ: الجلوس بين الناس والوجوه التي تتغير مع كل محطة أفضل من الأتوبيس، وأنا بطبيعتي أكره سيارات البيجو السبعة ركاب، فعامة الناس يسمونها النعش الطائر، والمرات التي جربت السفر بها أصابتني باختناق شديد، عدا مرة وحيدة حجزت المقعدين جوار السائق، ورغم ذلك كان رعب مواجهتي للطريق عبر الزجاج الأمامي للسيارة أكثر هلعاً واختناقاً من بقية المقاعد، كم أنا جبان.

ماذا حدث لك صِرتَ لحماً على عظم ؟ قالت أمي متهكمة على مائدة الغداء، وهي تنظر لي نظرات خارقة للغيب، وأنا أزيغ بعيني عن مواجهة عينيها.

وأبي يلقي كلمات وإشارات ساخرة كأن الدنيا كلها تعرف أنني فقدت الطريق القويم.

نحن فقراء، أنا أعي هذه الحقيقة المؤلمة، لم يكن ينبغي أن أذهب إلى القاهرة.

نزلت و في داخلي حالة انهزام وحزن كبير، لماذا رزقنا الله الموهبة والذكاء والأدب والرقي، وجعلنا فقراء لا تتغير ظروفنا أبدا ، الفقر يلازمنا كأنه حارس ملائكي خاص موكل بنا يلاحقنا في كل مكان، الناس من حولنا تتغير أحوالهم وتتسع عليهم الدنيا، لكننا لا تتغير ظروفنا الفقيرة أبداً، ولا يتوقف الناس عن الانشغال بنا والتفكير فينا والاهتمام بكل تفاصيل نجاحنا وفشلنا.

تذكرت العراف صاحب العفاريت ، شهق وانفسخ فمه على اتساعه وتثاءب مرات متتالية غريبة، وهو يرقيني بقل أعوذ برب الناس وبرب الفلق، وعندما تخلص من التثاؤب سألني مندهشاً على ماذا يحسدك الناس؟! ها على ماذا يحسدونك؟! اللعنة عليهم، وأعد لي

فنجان بن تونسي أدهشتني حلاوته، ولم أستطع أن أجيبه على سؤاله الساخر، على ماذا يحسدونك.

الحارة تغيرت.

العمائر السكنية الكبيرة أحاطت بنا من كل مكان، شباكنا البحري المطل على النيل أصبح يطل على جدار خلفي لبيت الجيران الجدد.

صار الناس يغارون ويتصارعون على التباهي والتفاخر والاستعلاء على بعضهم البعض، صاروا يتسابقون في شراء الملابس والسيارات، ثم صاروا يتسابقون في الإنجاب.

لم يعد هناك أي أراض شاسعة، قامت البيوت كقيامة الأموات من القبور، ازدحمت الشوارع بالسيارات والعوادم السامة.

كثرت حوادث السرقة والقتل، عمارات الإسكان الشعبي جاءت بألوان جديدة من الناس لا نعرفهم، أصبحت عناوين بائعات الهوى كعناوين الجمعيات الاستهلاكية، الأطفال الأبرياء المهذبون صاروا مشاريع مجرمين وبلطجية، وغرقت المدينة في الضجيج والضوضاء والمخدرات، وأصبحت المطواة شرفاً، والبلطجة منهج حياة، وسهرت المقاهي للصباح أمام القنوات الإباحية، والمواقع التي هدمت بقايا الحياء.

سحبت كرسياً وجلست على رصيف المقهى، الشارع الذي أراه يمتد أمامي كان منذ سنوات قريبة، يمتد حتى البحيرة، صار يختنق بالبيوت على جانبيه إلى ما لا نهاية.

- حمدا لله على السلامة يا أستاذ كامل.

- الله يسلمك يا عماد

عانقني القهوجي الشاب وصافحني وقبلني ثم سألني عن أحوالي بنبرة لا تخلو من شماتة وعداء.

- ألم تتزوج بعد؟

- لا. ما زلت أدرس في الجامعة كما تعلم.

- يا أخي (بلا جامعة بلا قرف) تزوج وأنجب أولادا يقفون بجوارك في كبرك، ماذا ستأخذ من التعليم والشهادات؟

- تشرب شاي؟

- لا. أريد فنجان قهوة مضبوط.

سرحت في كلماته هو من عمري لديه زوجة وطفل وحياة بسيطة هانئة بلا أفكار كبرى ولا فلسفة، يغترب من بلدهم في درب نجم بالشرقية ويأتي ليعمل أجيرا في مقهى باليومية هو وأخوته وأقاربه، يتوزعون على المقاهي في أرجاء المدينة.

شباب الريف يتزوجون مبكراً، سرير ودولاب وغرفة وجهاز بسيط ويصبح الشاب عائلاً، أما أنا كابن مدينة فقير، فإن أصدقائي الذين تسربوا من المدارس مبكراً، واحتوتهم ورش الحفر على الأخشاب والنجارة، وبفلسفة وضع القرش فوق القرش، والدخول في جمعية كبيرة تضم عشرين شاباً يدفعُ كلٌّ واحدٍ منهم مبلغاً مالياً كل أسبوع، ويقبض مجموع النقود حين يأتي دوره في القبض حسب القرعة، ومع كر السنين، ورزق الفتاح الكريم، يتزوج من لم يكن يملك بنطلونين.

أما الشباب الفقراء غواة التعليم والمدارس فكانت فرصهم في الزواج المبكر نادرة جداً، ثمن شقة الزوجية و الذهب والموبيليات الثمينة والأجهزة الكهربائية وتكاليف ليلة الزفاف في أحد النوادي المرهقة، وتعنت الأسر والمغالاة في الطلبات، عطلت شبابا وفتيات بالآلاف عن الزواج المبكر، وبعدما كانت العنوسة حالات قليلة معدودة، أصبحت الأرقام فلكية، ينسى أبناء الفقراء أصولهم عند أول نعمة، وتحلم فتاة فقيرة صارت فاتنة حسناء بعدما كانت طفلة غير جميلة، أن تحصل على ملك أو أمير زوجاً لها، وفي سبيل حلمها المنتظر، ترفض عشرات الشباب المناسبين لها، وعندئذٍ تُولدُ الخطايا.

دمياط الحافية الجائعة ارتدت حذاء وشبعت بعد جوع طويل، قبل قيام ثورة يوليو 1952 كانت المدينة قرية جائعة، يأكل فقراؤها

المش ونبات السريس الأخضر مع خبز الفرن البلدي، الجميع يعملون في فلاحة الأرض، أو في صناعة الطوب الأحمر من الطين، أو الصيد في النيل أو صناعة السواقي والسفن.

ثم تطورت دمياط وصارت تنافس على صناعة الأحذية والألبان، ثم عرفت مصنع الغزل والنسيج ومصنع الألبان بفضل ثورة ناصر، وامتلك فلاحون فقراء خمسة أفدنة من الأرض.

عمال دمياط الذين سافروا إلى روسيا ولبنان والعراق، عادوا بمهنة النجارة والحفر على الخشب. وتعلمت دمياط الحرفة وأتقنها أبناؤها، وأخذت دمياط تنجح وتتطور وتخرج منتجاتها لكل العالم، حتى أصبح أسفل كل بيت ثلاث ورش، وأقيمت المصانع الخاصة لتصنيع الموبيليا، وكثرت المعارض المميزة التي جذبت الأثرياء والنخبة للأثاث الدمياطي، وأصبحت دمياط الحافية مدينة الأثرياء في سنوات قصيرة.

أرزاق ومقسمها الخلاق .

صوت بداخلي يكررها، أتساءل قسمها كيف؟

ما هو منهج التوزيع، لماذا يُعطي اللهُ رجلاً واحداً مليون جنيه ويخلق مليون جائع؟

لم يدهشني في حياتي شيء مثل عطاياك التي توزعها بحكمة لم أفهمها أبداً، وصبرك على الظالمين إلى ما لانهاية، تَحيّرْتُ في الحَضْرِةِ وحضَرتُ في الحيرة.

أنهيت كوب الشاي دون أن أسمع من كلمات عماد القهوجي أي كلمة، أعطاني صديق قديم سيجارة مارلبورو، سحبت نفساً عميقاً من الدخان الجيد وقلتُ لنفسي الحفاة العراة صاروا يدخنون السجائر الأمريكية، سبحان العاطي الوهاب.

أعرف أن العمل شرف وبهاء وقوة وكرامة وحياة، ليست كلمات جوفاء أبداً، الكرامة كلها في العمل وكسب القرش بعرق الجبين وتذوق اللقمة الحلال.

نعم حلال بالعرق والشقاء وطفح الدم وأشخاص آخرون يحصدون الملايين بجرة قلم وهم يجلسون في التكييف دون سقوط حبة عرق واحدة!

أفزعني الصوت الصادر من أعماقي كالصراخ، يحصدون الملايين!

لماذا لا نحصد الملايين نحن أيضا؟

دفنت رأسي تحت الوسادة وغرقت في الاستغفار والندم.

في الصباح لا تخلو الابتسامات من الخناجر كما قال شكسبير، والأمر لا يخلو من كلمات التهكم والتجريح الخفي، فمن أحسبهم

أصحابي يشعر بعضهم تجاهي بمشاعر مختلطة، فالبعضُ يَغارُ، ويَحقدُ، ويَحْسدُ، والبعضُ يُحبُّ ويفرحُ ويُشجعُ، ليس من الصعب أن نكتشف هذه الحقائق، فمن السهل أن تكتشف أعداءك لأنهم سيحرصون على التقليل من شأنك طوال الوقت.

عماد القهوجي لا يتردد أن يذكرني بظروفي وفقري كأنه يحاول إحباطي ومنعي من إكمال مسيرتي، هناك أيضا البعض يسخر ويستهزئ بي كلما رأى كتابا في يدي ثم يسأل متعجبا: (هو احنا لاقين ناكل عشان نشتري كتب!)

الكتاب في يدي يزعج الناس دائما أكثر مما تزعجهم المطواة في يد البلطجي أو المجرم، لماذا ينزعج الناس من الكتب، لماذا يكره الناس النور والمعرفة؟!

ذات مساء، اجتمع الناس حولي وشكلوا دائرة واحتدم النقاش حول العراق وفلسطين وغزة، تكلمنا عن صدام حسين وغزو الكويت وقضية فلسطين التي لا تحل ومع كل معلومة جديدة أصنع صدمة جديدة وعداوة محتملة، تطور النقاش وانحرف بنا الحديث وجاء ذكر استشهاد الحسين رضي الله عنه، وتطرقنا لاستشهاد عثمان رضي الله عنه" ورجعنا لما حدث للنبي يحي بن زكريا عليهما السلام حتى عدت بالحديث إلى قابيل وهابيل.

كان كل واحد منهم يقول ما يعرفه ويؤمن بصحته دون أن يتحرى الدقة فيه، والغالبية تحتفظ بمعلومات مشوشة وغير سليمة، وكلما قمت بتصحيح معلومة أو كشفت حقيقة يقع الصدام.

كنت أبدو كمن يملك الحقيقة المطلقة ويعرف اليقين، بالرغم من أن كل ما نعرفه قابل للهدم والتفنيد والإزاحة، وكان أسلوبي في الحوار مستفزاً وشريراً كأنني العارف الأكبر، كانت حماقتي بلا حدود.

سألني رجلٌ يعملُ ثقَّاباً للأخشاب: ما معني وما الحياة الدنيا إلا متاع الغَرُوُر ؟

قلت: نعيمٌ زائلٌ لا يدومُ ويهدمُه ُالموتُ.

ابتسم في شموخ وقال: كانت الفتاة العربية في الماضي إذا جاءها الحيض نادت أمها يا أمي أتاني الْغَرُوُرُ يعني دم الحيض فأين المتاعُ يعني الخرق التي تُوضعُ لتمتص الدم فالدنيا تشبه خرق دماء الحيض القذرة!

- ما أفضل سمك في البحر؟! سألني آخر.

- أظن أن سمك موسى أفضل سمك في العالم، رغم شهرة التونة الزرقاء وسعرها المرتفع جداً واقتتال اليابانيين على شرائها بأي ثمن.

- وما السبب ؟

- سألت صياداً عجوزاً عن أفضل أنواع السمك فأخبرني عن سمك موسى وقال أنه يحمل فوائد كثيرة في تكوينه وهو أقل الأسماك زهماً في الدم وأشهاها طعماً وهو يقوي جهاز المناعة والرجولة والأعصاب، والعارفون يطبخونه مثل الدجاج شوربة بيضاء.

- الله يفتح عليك يا بني.متى سيلعب الأهلي والزمالك؟

- للأسف والله يا حاج محمد أنا جاهل كروي. وضحك الجميع وأكملت طريقي.

كنت أعيش بروحين، روح الكاتب وروح الكادح، الفقر يقف في طريقي دائماً ويحطمُ أحلامي بقسوة. طيلة اليوم منهمك في عملي كنحلة، فجأة ألمع كالنجم حاملاً كتاباً في يدي وأتوجه لحضور ندوة أو أمسية شعرية، الغواية تأسرني وتستحوذ على كياني، وبين حياتين متناقضتين ها أنا ذا أعيشُ.

كنت أفكر في زينب ابنة البواب طوال الوقت، رغم رعبي من اكتشاف حسام عريسها لعلاقتنا، أو سقوطنا في كارثة.

الخُصوبةُ خطرٌ داهمٌ لا يمكنُ تركه مشاعاً، الزواجُ بالفعلِ هو الوسيلةُ الأفضلُ لمواجهةِ المشاعرِ الجامحة، فنحن لسنا كلاباً وقططاً.

من أين تأتينا الجرأة لارتكاب الحماقات؟ نتسلق أشجار الناس لنسرق تفاحهم المصون، أعجب الأعاجيب أن يعرف الظالم أنه

ظالم ويرى الله عظيماً في قلبه ورغم ذلك يمضي في الغواية، ويترك يد الشيطان تسحبه كبقرة لقاع بئر الخطيئة.

أتذكر سؤال صديقي حسن كيف تصف العلاقة بين المرأة والرجل؟ فقلت له: تشبه العلاقة بين الفلاح والأرض، كلما تشققت قدماه ودميت يداه وأحرقته الشمس وانحنى ظهره وامتصت الفصول ثمرة شبابه، كلما ازدهرت الأرض وازدادت جمالاً وروعة.

قال حَسَنٌ : وكيف تَرى الخطيئةَ يا كَامِلٌ؟

- الخطيئةُ يا حَسَن أشْبَهُ ما تكُونُ بالسِّقُوطِ في بِئرٍ عَمِيقٍ قَديمٍ لا مَاءَ فيه، أمْلَسِ الجُدرانِ، لا يُمكنُكَ أبداً أنْ تَخْرُجَ مِنْهُ، تَحْتَاجُ لمُعْجِزَةٍ حقيقيةٍ لإنقاذِكَ، لحبلٍ يَتَدلَّى ويدٍ قويةٍ لتسحَبَكَ للنَّجاةِ، لكِنَّ ذلكَ لا يَحدثُ أبداً إلا إذا أخْلَصْتَ الرجاءَ لتلك اليدِ لانتشالك، الإخْلاصُ يُنجِّيكَ يا حسن والاعترافُ والندمُ، ألمْ تَفْهَمُهَا بَعدُ.. (وَابْكِ عَلى خَطِيئَتِكَ).

مَرَّ الأسبوعُ الثالث كالومضة، اشتريت كروت اتصال لماكينات الهاتف المنتشرة في شوارعنا مينا تل والنيل، اتصلت بميسون في الجريدة، كانت مشاعرنا تبترِدُ، والبعدُ يُطفئ كل يوم شمعة من شموع الحب.

في الطريق التقيت صديقي غانم، سألته: على فين ؟

قال : رايح!

كان حزيناً مهموماً وفي عينيه نظرة أسى وحنان كالوداع.

على غير العادة كان هادئاً وادعاً مسالماً رغم أنه جريء ومشاغب.

سألته باهتمام: رايح فين ؟!

هز رأسه للأعلى وقال: هاروح رأس البر أشم هواء جديد في الجربى.

قلت له: خلي بالك من نفسك. وافترقنا.

في العاشرة مساء كنت مستغرقا في العمل، فجأة ارتعد جسمي كله، شعرت أن فروة رأسي نُزعت من دماغي، رجفة قوية هزت كياني بالكامل.

شعرت بفزع غريب، خرجت من المحل، تركت زميلي بمفرده وذهبت مسرعاً تجاه المقهى، سألت هل حدث شيء؟

قالوا :لم يحدث شيء.

ذهبت إلى البيت أستشرف وأطمئن.

كان كل شيء بخير وسلام ولكن رجفة الفزع ظلت تغشاني بقلق عارم، تساءلت أين أخي؟

أخبرني عماد أنه ذهب منذ ساعة مع مهند وعادل في مشوار.

سألته أي مشوار؟ قال: العلم عند الله (ماحدش جال لي حاجة).

ظللت متوتراً ولم أستطع العودة لإكمال عملي، وجلست على المقهى مع الجالسين.

بدأت تحدث أمور غريبة وتحركات مريبة، لا أحد يفهم حقيقة ما يجري. ولم يكد ينتصف الليل حتى ملأ الخبر الحارة والعزبة كلها.

غانمٌ ماتَ.

سيرة الموت

عَبْرَ اتصالات كثيفة تم إخراج الجثمان ودفنه بدون تشريح، عرفت أنه استقل قارباً وفي منتصف النيل وقف في حالة نشوةٍ ثم فتح ذراعيه كأنه يعانق الموت وألقى نفسه في النهر.

تم إبلاغ فريق الإنقاذ النهري، جاء الغطاسون مع رجال الشرطة، بحثوا في كل مكان من النهر، حلَّ الظلام ومضت الساعات دون جدوى.

كان الأمل ما يزال قوياً في قلب أخيه وقلب أخي أنه بخير وحي ويمزح مع الجميع.

اقترح أخي عبور النهر والبحث في الضفة المقابلة ربما وجدوه نائماً على ظهر أحد مراكب الصيد. لمعت للغطاسين فكرة البحث على الضفة الثانية. وبحث أخي ورفاقه عن غانم دون جدوى.

كان قارب الإنقاذ يبحث بدأب وهمة والغواص مربوط بحبل وجرت العادة لحظة اكتشافه للجثة أن يجذب الحبل بقوة وعندها يجذبه الرجال على القارب لإخراجه من النهر ومعه الجثمان.

رأى أخي جثة غانم، ارتجف جسدي ووقف شعر رأسي وأنا في حارتنا!على بعد عشرة كيلو مترات من موقع الحدث.

(الله يرحمك يا غانم).

عُدتُ إلى القاهرة تَهزمُنِي سيرةُ الموتِ وتدفعني الموعظةُ للطريق المستقيم، لا يُوجدُ أحدٌ في الحي لم يلتزم المسجد عدة أيامٍ بعد وفاة غانم وأنا معهم، حالةُ ورعٍ وتقوى غمرت الناس جميعاً وبدا العالمُ غارقاً في النور والإيمان ثم ارتفع ضجيجُ الدومينو وغلب ضجيجَ الموتِ وهكذا الحياةُ تستمرُ.

أدهشتني حالة حزن غريب تسيطر على مجموعة من طلاب جامعة الأزهر وأنا لا أفهم ماذا يحدث، ولماذا جميع الطلاب يمسكون جريدة الأهرام في أيديهم!

ولما سألت وسيم زميلي عن القصة أخبرني أن أحد طلبة كلية أصول الدين انتحر!

-لا حولا ولا قوة إلا بالله، انتحر كيف ولماذا؟

- فجَّرَ نفسه في عمليةٍ انتحارية!

- هل سافر إلى فلسطين؟ كيف ومتى؟

-لا. لقد فَجَّرَ نفسَهُ في وسطِ البلد في موكبِ وزير الداخلية!

- إنا لله وإنا إليه راجعون، وهل وقع له مكروه؟!

- لكزني وسيمٌ في صدري وقال لي : توقف عن السخرية، صار خمسين قطعة!

- لا إله إلا الله، كيف عرفوا أنَّهُ هو؟

- وجههُ ورأسه لم يصبهما أذى وكان مبتسماً!

- مُبتسمٌ! وهو يُفجرُ نفسه في أناسٍ لا يعرفهم؟! من الذي مات في هذه العملية؟

- سيدةٌ وابنُهَا ورجلٌ كبيرٌ كنَّاسٌ وأمينُ شُرطة!

- والوزير؟

- الموكب كان وهمياً أصلاً والوزير ذهب إلى المؤتمر في ميكروباص!

- من هذا الشاب ؟ هل أعرفه؟

- لا. لكنك تعرفُ ملامحهُ، الطالبُ الذي يضعُ صورةَ أسامة بن لادن في غرفته بالمدينة الجامعية!

- طلابٌ كثيرون جداً يضعون صورة بن لادن في حافظات النقود وعلى الجدران، لماذا لا يذهبون لتحرير فلسطين بدلاً من قتل المساكين والأبرياء والمستضعفين؟!هذه أخبار ثقيلة سأذهب للمدينة الجامعية لأستريح، السفر بالقطار عذاب حقيقي.

- خذني معك.

- هيا بنا.

ركبنا الأتوبيس ولما نزلنا اشترينا عدة سجائر كليوباترا من الكشك المقابل لبوابة المدينة الجامعية، ثم صدمني بحكاية جديدة، هل تعرف مدحت ورمزي ماذا فعلا؟

-لا أعرفُ.. منذ شهورٍ لم أرهما، ربما لأن كلية الطب في مدينة نصر ونحن في الحسين لا نلتقي لهذا السبب.

- الاثنان في السجن!

- يا ساتر يا رب، ما الذي حدث؟

- تعرفا على فتاتين وكانوا منسجمين مع بعضهم البعض أسبوعاً كاملاً في شقة خاصة بالبنتين، ويوم المصيبة استيقظا من النوم بعد خمر وكافيار واكتشفا أنهما تعرضا للاغتصاب، وكل واحد منهما يرتدي قميص نوم، وعلى وجهه مكياج أنثى وعطر فاتن.

- ما هذا الكلام العجيب يا وسيم؟

- كما أحكي لك، ليلة حمراء أقيمت على جسدين لشابين جامعيين.

- يا لطيف يا رب.

- عندما استيقظا، وجد كل واحد منهما خمسة آلاف، وورقة مكتوب فيها: نلتقي بعد أسبوع في كازينو ليالي حيث تعارفنا أول مرة.

- وماذا حدث؟

- استمر التعاون!

- وكيف عرفت هذه التفاصيل؟

- عندما اختلفوا قتل الشابان الفتاتين، وتم تجديد حبسهما لخمسة وأربعين يوما.

- يا ملكوت الله، قامت القيامة، كيف قتلا البنتين؟

زفر وسيم عن صدره أنفاساً غاضبة، وقال: تحول الأمر إلى عمل رخيص قذر دنيء، وأصبح مدحت ورمزي عضوين في شبكة دعارة من عدة فتيات، وسكنا في شقة مع الفتاتين إلهام وعزة، وكانت بينهم علاقة جنسية تبادلية، ومع مرور الأسابيع تحول طالبا الطب إلى كلبين حقيرين، يبيعان جسديهما لهواة المتعة الشاذة، ولأن هذه الدوامة القذرة تتطلب دماء جديدة باستمرار، فقد تحول مدحت ورمزي إلى شبه طعام ممضوغ ومتعفن، وبدأت الفتاتان في البحث عن شباب آخرين، وبالفعل تم تجنيد ولدين يدرسان في معهد ضباط اللاسلكي، وانتبه مدحت ورمزي للخديعة وانتقال الفتاتين من الشقة بدعوى أنها أصبحت تحت الأعين، وذهبتا لشقة أخرى، ولم يعد مدحت ورمزي يستطيعان اللقاء بإلهام وعزة، وأصبحا عاطلين عن العمل القذر، ومرت الأشهر ولم يعد مع الشابين أي نقود، وظلا يبحثان عن البنتين حتى عرفا الشقة الجديدة، ولكن المفاجأة أن العاشقتين القديمتين تنكرتا لهما وطلبتا منهما عدم المجيء هنا مرة أخرى، واحتدم النزاع وتضاربوا بالأيدي، وظهر البواب وشابان

كالحراس الشخصيين وتم إخراج الشابين من العمارة بعد ضربهما بقسوة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

فكر مدحت ورمزي في الانتقام وأدركا أنهما خسرا كل شيء، الرجولة والشرف وكلية الطب وأنهما انجرفا إلي مستنقع قذر وأسوأ من كل ألوان القذارة في تاريخ البشر، وأنهما صارا دنيئين خسيسين رخيصين بلا نخوة ولا كبرياء ولا سلام داخلي، واتفقا على الثأر من إلهام وعزة.

كانت الشقة الخاصة بالفتاتين في الطابق العاشر، والنافذة التي تؤدي لصالة البيت تظل مفتوحة بعد دخول البنتين للشقة حتى الصباح، وكانت أكبر مشكلة أن البواب يعرف شكل مدحت ورمزي يوم الخناقة، كما كان الخوف كبيراً من وجود حارسين شخصيين للبنتين، وظل مدحت ورمزي يراقبان وينتظران الفرصة، فكرا في تنفيذ الهجوم في الشارع أو في مدخل العمارة، لكن خافا العواقب، واتفقا على التنفيذ داخل الشقة من خلال النزول بالحبال من السطح، فالمسافة لا تزيد عن مترين رغم رعب منظر الأسفلت البعيد في الأسفل من الطابق العاشر، وفي ليلة جمعة جاءت فتاة في العاشرة مساء ، كان البرد شديداً مع أمطار متقطعة، صحبها البواب لغرفته جوار المصعد، كان يبدو من توتره الزائد أنه انتظرها بنفاد صبر، وأن علاقتهما ليست سوية.

تسلل مدحت ورمزي وصعدا السلالم للطابق الثالث ثم استدعيا المصعد، وفي الطابق العاشر خرجا من المصعد وصعدا السلم باتجاه السطح، جلسا قليلا ودخنا سيجارتين وكان بحوزة كل واحد منهما حقيبة أدوات جراحية صغيرة، قاما بربط الحبل حول قاعدة خرسانية لخزان ماء، ظلا ينتظران اللحظة المناسبة، أصوات الضحكات وموسيقى الرقص تملأ قلبيهما ناراً وكراهية، مرت الساعات الباردة خفيفة المطر، وهما يقتربان من حافة السور ويستمعان ثم يعودان للاختباء حتى غلبهما النعاس.

استيقظا على صوت قوي يندلع في الظلمة الأخيرة من الليل، الله أكبر الله أكبر. مكبر الصوت على عمارة ملاصقة، فوهة الميكرفون موجهة نحوهما كأنها تقصدهما بالذات، فزعا للصوت وانتبها، مدحت قال: الفجر، لقد نمنا عدة ساعات، أحسا بالعطش والجوع، لقد نسيا إحضار زجاجة ماء أو سندويتشات، قام رمزي وجثا على ركبتيه وفتح الحنفية أسفل خزان ماء وشرب.

ظلا يدخنان بشراهة، النهار يوشك أن يستيقظ قالها مدحت وأخرج مشرطاً طبياً وتأمل سلاحه القاتل، وقال لرمزي: هيا بنا.

أخذا يصنعان في الحبل الغليظ عُقداً وحلقات كالمشانق، حلقات متعددة، ليتعلقا بها لحظة النزول للشباك، وتجرأ مدحت، أمسك المشرط في فمه ودس الحقيبة الصغيرة في عبِّه ونزل على الحبل وأصبح في الفراغ وقال لرمزي لا تنظر للأسفل.

تتبعه رمزي بعينيه وما أن ابتلعته النافذة المفتوحة حتى تشجع ولحق به، كان النور مطفأ في الصالة، إلا من لمبة حمراء صغيرة، وآثار سهرة حمراء، قضم مدحت تفاحة وأمسك رمزي قطعة كباب والتهمها، كانا جائعين جداً، كانت الشقة خالية، لم يجدا أحداً في الغرف الثلاث، أصابهما ارتباكٌ قوي، ونظرا لبعضهما باستغراب ومدحت يضع أصبعه على فمه مشيرا لرمزي كي لا ينطق، تسللا بهدوء ناحية المطبخ، لم يجدا أحداً، عبرا الطرقة الضيقة بهدوء باتجاه الحمام، كان الباب مغلقاً والنور مطفأ، فتح مدحت الباب وبحث بأصابعه على الجانبين عن مفتاح الإنارة، ثم شهق وانتفض ورجع خطوتين للخلف والتصق بحائط الطرقة، وانهارت أعصاب رمزي وسقط على ركبتيه.

كانت الفتاتان مذبوحتين وموضوعتين في البانيو، متواجهتين، وهما تسبحان في دمائهما، وخنجر بمقبض من الذهب متروكاً في الحوض، التَقَطَهُ مدحت وتأمله وقال لرمزي مستجمعا أعصابه المفككة: هذا الخنجر يبدو باهظ الثمن، لابد أن مالكه شخص ثري، كان رمزي قاعداً على ركبتيه، ينتفض، ثم سمعا صوت ارتطام قوي، عندما انفتح باب الشقة بقوة واصطدم بالحائط، هجم رجال الشرطة على مدحت قائلين بصوت حاسم: ولا حركة، ألق السلاح.

ثم وضعا القيود الحديدية في أيديهما واقتادوهما إلى مديرية الأمن.

- من الذي ذبح البنتين ؟

- الله أعلم، هل لديك شيءٌ يُؤكلُ ؟

- نعم.. عيشٌ وحَلاوةٌ!

-أعوذ بالله، سأنام جائعاً أفضل، تُصبحُ على خيرٍ.. سَلامٌ.

ظللتُ طيلة الليلة منزعجاً للأحداث العجيبة الكارثية، نمت مغتماً وأحاطتني الكوابيس.

في المنام رأيت أنني أطير فوق العمائر، وأسقط للأرض من ارتفاع شاهق، فزعت في الحلم وعند لحظات الفزع شعرت بقشعريرة تتغشى جسدي، حاولت تحريك يدي أو ساقي، لا يمكن، جسدي كله مشلول، فقط لساني يمكنه التحرك بثقل غريب، يبدو الأمر كأن كائناً خفياً يجثم على صدري ويلتصق بجسدي، يتسلل إلى نقطة ضعف خفية من خلال حلم مزعج، دائما من خلال حلم وقبل نهاية الحلم يمسسني بسوء، أرتجف وأختنق وأنازع وأحاول الخلاص لعدة دقائق، أصرخ بصوت مرتفع، حتى يسمع كل المحيطين بي هذا الصراخ ويسرعون لإغاثتي وإيقاظي.

في الصباح سألت وسيم هل سنترك مدحت ورمزي يشنقان ظلما؟!

- يستحقان الموت فعلاً.

- لكنهما لم يقتلا.

- جريمتهما أكبر من القتل والحد الشرعي لهما القتل!

- ربنا لطيف بالعباد، العدل ألا نتركهما.

- وهل في أيدينا ما يمكننا فعله ؟

- نبحث عن القاتل ونسلمه للشرطة!

- لا يمكننا مواجهة هؤلاء الناس وليس لنا صلة بهذه الدائرة القذرة، و الشرطة لم تصل للحقيقة، فهل سنصل أنا وأنت؟

- يضع الله سره في أضعف خلقه، أنا عندي شكوك أن البواب متورط في الموضوع.

- كل شيء جائز في هذا الزمن.

- هل أنت متأنق ومتعطر لأجل الكلية ؟

- لا. عندي موعد.

- يومك جميل يا صاحبي.

- سلام. أراك مساء.

ركبت الأتوبيس للتحرير ومن التحرير ركبت الدقي، التسكع في الأتوبيسات لذة وخصوصا رؤية وجوه جديدة لفتيات جميلات كشلال لا ينقطع، التقيتُ زينب في مدخل العمارة، صافحتني بحرارة العشاق، سألتني عن غيبتي لماذا طالت، قلت : كانت حالة وفاة، وحكيت لها باختصار قالت : طولُ العمر لك.

سألتها، ميسون فوق أم لا ؟ فأخبرتني أنها نزلت كالعادة في الثامنة ولم تعد بعد.

قلت لها : (خلصي اللى وراك وطلي عليا).

أضاءت الفرحةُ وجهها وقالت بلهفة وسعادة غامرة : (من عنيا)

تركتها وصعدت وأنا أفكر فيمن ذبح البنتين، ثم فكرت أن تحدثي مع مدحت ورمزي ربما ينير لي طرقاً معتمة ولكن اللقاء بهما يحتاج واسطة كبيرة وقلت لنفسي هذا الأمر تنجزه ميسون لي.

كان الماء منعشا تحت الدش وطرقات خافتة كنقرات أصابع على باب الشقة، واستيقظ الشيطان .

نظرت في العين السحرية فرأيت زينب تأكل أظافرها ففتحت وأدخلتها ونظرت للأعلى والأسفل لم يرها أحد يا ترى؟

وأغلقت الباب.

...

- بحبك أوي يا سي كامل.

- وأنا كمان.

- أنت كمان ايه ؟

- بحبك.

أخبرتُ الجميع في الجريدة أن مدحت ورمزي لم يقتلا فتاتي الدقي، وأن الموضوع أكبر وأعقد مما يظن الجميع، وأن الرياح العاتية لا يمكنني مواجهتها بمفردي، وأن علينا إظهار الحقيقة للناس وانصاف المظلوم وإرساء العدالة والقانون.

- هذا الشاب يبدو أبلهاً.

سمعتُ العبارة وتجاهلتها في الغرفة المليئة بالصحفيين والمكاتب، قربتُ فمي من أذن ميسون وسألتها من هذا الذي يتهمني بالبلاهة؟

- تجاهله. هذا مخبر الجريدة .

- فهمت.

سمعت نصائح كثيرة من الصحفي العجوز عبد اللطيف فايز، تنبهني أنني ضعيف كعود ثقاب لن أستغرق لحظة لأنكسر أو أحترق، وأن الجهات المسؤولة تعرف ما لا نعرفه وأن الشابين سيسجنان ويحملان التهمة ويغلق المحضر على ذلك، وأنني لكي أكون صحفياً ناجحاً يجبُ أن أفهم أنه لا توجدُ عدالةٌ على الأرض وأنَّ مصرَ موهوبةٌ بالفطرة في تلفيق التهم للأبرياء، وذكرني بقضية النبي يوسف وإلقائه ظلماً في السجن بعد وضوح دليل براءته، وأن كلمة السجن كانت هي أداة العقاب الأولى في مصر القديمة مقابلة بأدوات عقاب مختلفة لدى الأمم الأخرى، كالرجم والصلب والحرق

والنفي، ونصحني أن أبحث عن الحقيقة وأحمل شرف الكلمة بحكمة وتعقل ولا أقفز من أعلى الجبل بحماقة فأفقد حياتي عبثا دون أن أغير شيئا من الواقع وأسمعني بيت شعر شهير:

كَنَاطِحِ صَخرَةٍ يوماً ليُوهِنَها فلم يُضرهَا وأدمَى قَرنَهَ الوَعْلُ!

سألته متحيراً هل أكتم الحقيقة وأصبح شيطاناً أخرس؟

قال: أخذ الحق حرفة! ثم أشار لي فاقتربت سأدلك على الطريق لكن ليس هنا، ثم ابتسم الغرفة فيها ألغام!

- أنت تنفخ في قربة مخرومة، قالت ميسون لتوقظني من اندفاعي الساذج، ثم حكت لي عن مخرج شاب أخرج مسرحية خطيرة وفي آخر مشهد تحول مجسم مكعب لرمز مقدس إلى برميل نفط، وفي الصباح كان المخرج الشاب في القبر.

أوشكت المغرب على الآذان وأصبح عدد الغد من الجريدة على الأرصفة، وأخذتني ميسون وانصرفنا، سندويتشات الفول والفلافل من محل آخر ساعة هي سند البطون حتى نعود للبيت، وأحيانا نتناول عدة أطباق كشري في محل جحا، وكانت لضيق الوقت تطهو الفراخ واللحمة في المساء، لليوم التالي، وكنت أبحث عن أسماك طازجة للشوي لكن كان منظرها بشعاً، أتلفها الثلج وتكدس عليها الذباب، وكنت ألجأ لشراء سمك (ماكر يل وبلا ميطا) من الجمعية

الاستهلاكية، وأشويه ونعصر عليه الليمون والملح ساخناً ونتعارك دائماً حول الأرز، وتصفني دائما بالدمياطي مدمن الأرز.

كنت أفكر في مستقبلي مع ميسون وأحلم بالأبوة وانجاب أطفال، وهي أيضا عندما ترى طفلاً جميلاً بصحبة أمه ينخلع قلبها وتمتلأ عيناي بالدموع لأجلها.

شعرت أنني أظلمها بهذا الزواج السري رغم سعادتنا معا، كانت تختبئ في حضني مثل قطة صغيرة وتضمني بقوة وتتمسح بوجهها في صدري، وتسألني من أين ينبع كل هذا الحنان؟ معقولة فيه رجالة بالحنان ده ؟!

- مثل الأرز يا روحي ...لكنهم يضيعون في الزحام.

- أرز.. من جديد؟ والله سأقتلك. وتتدلل بضرب صدري ضربات ناعمة بيديها اللتين تشبهان أيدي الأطفال.

أنظر إليها برقة ونهم وأحدث نفسي كيف تكونُ المرأةُ بهذه الرقةِ والعذوبة، دافئةً جياشةً مُرهفةً، ربما لنساء برج العذراء والعقرب والحمل أسرار أخرى، ربما لأنها ابنة بحر وتجري في عروقها دماء الإسكندرية والمشاعر الحرة التي نشأت بها أمام شفاه البحر في هدوئه وصخبه، أبوها عم السيد المانش صياد سمك، كافح سنوات عمره ليربي بناته الثلاث ويعلمهن، لم يعطه البحر إلا

حاجاته فقط، لأن البحر بخيل مع من يحتاجون إليه، البحر قاسٍ وشحيحٌ مع الفقراء.

(العم سيد) رزقه الله بثلاث فتيات جميلات، رحلت زوجته في منتصف الرحلة في غيبوبة سكر، كانت تحمل إليه الغداء وفي طريقها للشاطئ وقبل بلوغها مركب زوجها الصغير، سقطت، التف حولها الناس وحاولوا إفاقتها بالبصل والعطور، لكن لم تفق أبدا، ولم يتزوج عم السيد بعدها وصار أماً وأباً للبنات الجميلات، وعندما جاءَ الموتُ لينتشلَ (العم سيد) من عناء الدنيا ومشقتها ويجفف دموعه القلقة على بناته وعجزه التام عن شراء قنطار قطن لأي فتاة منهن، ورفضه للعرسان خوفاً من عجزه عن تجهيز عروس، شعرت البنات الثلاث أن ظهرهن انكسر، ولم يعرفن كيف يتصرفن، كان النواح والصراخ كافياً لاستدعاء الجيران الطيبين، فهرول الحاج فتحي المزين وغاب نصف ساعة وعاد بالكفن، وانطلق شاب اسمه فؤاد وعاد بالمغسل، ورجال آخرون استسمحوا عائلة ميسورة بالجوار لدفن الفقيد في مقبرتهم المخصصة للصدقة، وتطوع آخرون وأحضروا كراسياً ونصبوا الجلسة للعزاء أسفل البيت، وستر الجيران الطيبون ميتهم، وأظلم البيت على الفتيات الثلاث، بلا ظهر ولا سند ولا مصدر رزق.

قبل أن تنصرف آخر جارة من جلسة العزاء داخل الشقة وضعت في يد ميسون مبلغاً من المال، وانهارت البنات الثلاث في حضن أم

كريم الجارة الطيبة، وسمع الجميع منادياً أسفل البيت، كان شيخ الصيادين الريس (جمال كوجك) قد أرسل صبيا من عماله معه أطعمة وخضروات وفواكه وظرف فيه مبلغ مالي، وحاولت ميسون رد الكرم ورفضه لكن أم كريم أقنعتها أنه لا عيب في ذلك ولا يقلل من مقامهم ولا يجرح كرامتها وأقنعتها قائلة: لو كنت أنت امرأة ثرية جارة لفتيات في مثل حالتكن، هل كنت ستتفرجين دون تقديم المساعدة ؟

وأحنت ميسون رأسها وفهمت معنى الإنسانية في وجهها المضيء البعيد عن الحقد والاستغلال، وتوالت المساعدات على الأسرة العديمة الدخل التي ليس لها سند ولا رجال، ومضت السنوات كالتحاق الصيف بالشتاء، سريعاً.. سريعاً، وأصبحت ميسون أماً لأختيها غادة وميادة، وتخرجن تباعاً من كليات الآداب والحقوق والتجارة.

توسط شيخ الصيادين لنائب البرلمان الأستاذ صفوان مجدي، لتوظيف ميسون، ثم غادة، ثم ميادة خلال ثلاث سنوات تباعاً من تخرجهن.

وكان كلما أراد شاب التقدم لخطبة واحدة منهن تقدم لشيخ الصيادين.

لكن بنات الجامعات لا يتزوجن هكذا، فهن صاحبات رأي وعقل وفكر واستقلال، وحاول شيخ الصيادين تزويج أولاده من الفتيات الثلاث، لكن البنات قلن إجابة واحدة متطابقة، فخري وبكري

وشكري أولاد شيخ الصيادين هم أخوة بالنسبة لنا، وتعودنا على مشاعر الأخوة تجاههم لسنوات طويلة.

وتقبل الشباب وأبوهم الرفض بمرارة وألم وانكسار، وبدأت تنبت مشاعر مغايرة تجاه الجامعيات الخريجات اللواتي نسين المعروف وأصلهن.

وكان لزاماً عند هذه النقطة من الرحلة أن تنتقل البنات لمنطقة سكنية أخرى، أو مدينة أخرى.

لكن مكر الرجال حل المشكلة سريعاً، وأقيمت الزينة ونصبت البوابات وأنشأ عمال الفراشة مسرحاً واسعاً في منتصف الشارع استعداداً لليلة الكبيرة، ليلة تزويج فخري وبكري وشكري.

غادة المحامية أول من تزوجت وبعدها ميادة، وطارت ميسون وراء حلمها في الصحافة واستقرت بالقاهرة وجربت حظها الأول، وحظها الثاني، والثالث، ومضى بها العمر وها هي في حضني تحكي لي كل تفاصيل حياتها ثم تستغرق في النوم متكومة... كقطة صغيرة تشعر بالبرد والخوف من المجهول والحياة والناس، رغم أنها تبدو ظاهرياً للجميع كصحفية شرسة وجريئة، لكن كان يكفي ظهور صرصار لتصرخ بكل قوتها وتضم يديها أمام وجهها وتطلب النجدة من القدر.

أتركها كالعادة لتنام هكذا ساعة أو أكثر قبل أن أحمل الغزالة وأضعها في الفراش، أمر رائع جدا ألا تتجاوز المرأة ستين كيلو جرام.

دثرتها جيدا وهممت بالخروج لكنها مدت يدها دون أن تفتح عينيها وأمسكت أصبعي فجلست جوارها والليل يمضي كالخدر يسبل عيون الكائنات.

كالعادة في الصباح نزلت قبلي ولم تزعجني فأنا العاشق الأول للنوم في العالم، ولما استيقظت في العاشرة أفطرت وصنعت كوبا من الشاي لأني مدمن شاي، وأخذت كتاب النظام الدولي المعاصر وقلمين وأجندة ونزلت للذهاب للكلية، لفت انتباهي سيارة تقف على مسافة قريبة وبها شخصان، ظهرت حركة اهتمام من رقبة أحدهما عندما رآني والتفت للسائق السارح مع ظهر امرأة تمشي على الرصيف، شعرت بإحساس غير مريح، وسمعت في أعماقي ذلك الصوت العجيب، اهرب، اهرب، أنت هدف هذين الرجلين.

كنا ننتظر الأتوبيس أمام مظلة من الصاج واستراحة خشبية تكفي لأربعة أشخاص، ويبدو أن العدد المعقول للمنتظرين للأتوبيس، منع السيارة من مهاجمتي، وعندما صعدت الأتوبيس استغرقت في التفكير، وإلقاء اللوم على نفسي لماذا تسمح لنفسك بخيانة ميسون؟

لماذا تورط نفسك في علاقات قذرة؟

هل تجد متعة مختلفة مع زينب وهايدي تستدعي أن ترتكب عدة جرائم في وقت واحد، خطايا متعددة، وخيانة! ماذا تستفيد من ذلك، وطرق رأسي مثل أكرره لنفسي دائماً (الحجرُ الدائُر لابد له من تصادم مروع)

- تذاكر يا سادة.

دفعت ثمن التذكرة وانقطع حبل أفكاري ونسيت السيارة، وعندما التقيت وسيم سألته عن أخبار مدحت ورمزي ففجر لي مفاجأة.

- الفتاتان القتيلتان...أعضاؤهما الداخلية غير موجودة، حتى الأعين، مدحت رأى جيدا قبل القبض عليه.

- هذا الموضوع يبدو كبيراً جداً، من أين حصلت على المعلومة ؟

- من مدحت، حصلت على وساطة مكنتي من رؤيته خمس دقائق، أنفقت مبلغاً قصم ظهري.

- من وراء هذه المواضيع المتشابكة؟ الخيوط دخلت في بعضها وتعقدت.

- الفتاتان كانتا تمتلكان كاميرات مراقبة في الشقة، وانكشف الأمر ودفعتا حياتهما ثمناً للفكرة الغبية، يبدو أنهما كانتا تريدان الحصول على مبلغ كبير من عملية ابتزازٍ موثقة بالفيديو، لكن الثري كان محتاطاً وأكثر ذكاءً. تخيل الشقة في نفس الطابق في العمارة المقابلة

، كان يستأجرها لمتابعة النشاط في شقة الفتاتين عن قرب! وكشف ما تخطط الفتاتان له.

- لما هذه المخاطرة؟ كان من الأفضل أن يدير أعماله هذه في الفيلا، ما ضرورة الأفلام الأمريكي؟

- كل مكان يجمع فيه من يتكيف معه، الشقق لها زبائن، الفيلا لها زبائن، وهكذا، هو موصل طلبات ناجح، يوفق الرؤوس في...! استغفر الله العظيم، تجارة قذرة.

- ومن الذي سرق أعضاء الفتاتين ؟

- لا أظن أن الثري أخذ الأعضاء، لكن الأشقياء الذين نفذوا الجريمة، بلا شك استفادوا من الضحيتين، كلى وكبد وقرنية، هي الآن بضائع مربحة حتى لوكان ثمنها قتل الإنسان، من الجائز أن يكون هو تاجر الأعضاء وتاجر الفرفشة.

- والشرطة؟ ألم تصل لشيء؟

- الشرطة تستطيع أن تعرف كل شيء، إذا كانت هناك إرادة لمعرفته، دون وجود أوامر من فوق تمنع البحث، من المؤكد أن بواب العمارة والبواب الثاني يعرفان الكثير.

- يجب أن نعرف الحقيقة ونساعد مدحت ورمزي!

- لا أفهم لماذا قلبي منقبضٌ يا كامل؟ أحسُّ بشر قريب منا.

- تخيل تشككت هذا النهار أن سيارة تراقبني!

- لا تقل مرسيدس صفراء؟

- بالضبط!!.

- ألم أقل لك قلبي منقبضٌ، هيا نذهب لنحضر المحاضرة.

بعد أن خرجنا من بوابة الجامعة تمشينا قليلاً وافترقنا، أخبرني وسيم أنه سيذهب ليشرب الشاي على قهوة الفيشاوي، ثم يقرأ الفاتحة لأبيه في حضرة الإمام الحسين، تذكرت جدتي رفيقة وأحببت أن أمضي معه لقراءة الفاتحة لجدتي أمام المقام فهو مقابل لكليتنا ولا يفرق بيننا سوى نفق قصير، لكن أحببت أن أرى ميسون وأشتري سندويتشات فول وفلافل من مطعم آخر ساعة، وآكل معها، ثم أذهب لحضور ندوة محمد جبريل في جريدة المساء، العصر يقترب والوقت يمضي بسرعة، والاختناق المروري عند الثانية ظهراً يحول القاهرة إلى جحيم حقيقي، أظل أتأمل أعداد الناس الهائلة والزحام الذي كأنه يوم المحشر، وأفكر في وسيلة للتخلص من هذا الزحام القاتل، وتوزيع هذه الأعداد الهائلة من البشر على مدن أخرى، ثم أشق طريقي من شارع إلى شارع، ومن حي إلى حي، وأختصر مسافات طويلة من الشوارع الجانبية والشوارع الضيقة المجهولة، لأتجنب الذل والاحتباس داخل حر الأتوبيس وهو يقف محاصراً فوق كوبري، أو إشارة مرور لوقت طويل يزهق أرواح الناس ويحطم بهجة الحياة في نفوسهم، أما قمة

التعاسة فهي امتلاء مثانة أحدهم بالماء وهو بحاجة ملحة لدخول الحمام، والأتوبيس محتجز في قلب شارع واسع وسرب السيارات كقطع لعب صغيرة ملونة على رقعة سوداء مستطيلة تتنفس حراً وعطشاً واختناقاً.

زحمة يا دنيا زحمة

مر تاكسي متحرشا بي ظنا منه أنه سيحصل على زبون، قلت لنفسي سبحان مغير الأحوال، الآن أتنقل عبر شوارع القاهرة بسلاسة ويسر ومعرفة وفي بداية عامي الأول كنت ضحية لسائقي التاكسي الجشعين.

المدينة تخرب نفوس الطيبين، وتحولهم إلى ذئاب مفترسة وضباع تتحين الفرص، بلا رحمة ولا شرف، نادراً ما تلتقي سائق تاكسي طيباً عفيفاً قانعا .

وصلت الجريدة وصافحت ميسون وذهبت لدورة المياه، أتسابق مع اللحظات لإطلاق الماء الساخن كأنه يأخذ معه أحزان الروح ومواجع القلب، لحظة راحة وسعادة لا توصف عندما يفرغ الإنسان مثانته بيسر وطلاقة، كأن العالم لا يساوي دقيقة كهذه.

تذكرت قصة لجدتي رفيقة وأنا أغتسل بالماء المتدفق عبر سيراميك المرحاض الأبيض وأتساءل عن الكائن الغبي الذي صمم الحنفية الداخلية لتصب ماءها ليسيل ملتصقا بالمرحاض دون أن تتمكن من

الوصول إليه للاستنجاء، لابد أن الاستنجاء قبل اختراع هذا المرحاض الغبي كان أفضل وتذكرت الحكاية فضحكت ونسيت نفسي.

حكت لي أن ملكا عظيما التقى رجلا مسكينا في أطراف مدينته وهو عائد من رحلة صيد، فرأف الملك بحاله وسأله عن اسمه فقال بهلول بن زغلول !

ماذا تفعل في دنياك؟

- سائح في ملكوت الله !

- من الذي يطعمك ويسقيك ؟

- هو !

-من الذي يرعاك ويهتم لحالك وأنت شيخ كبير ؟

- هو!

تعجب الملك لحاله واجاباته وأعطاه مالاًوطعاماً وثياباً، فرفع الرجل المسكين يديه للسماء وشكر الله بهمهمات مسموعة.

فقال له الملك ادعو لي؟

- فقال المسكين للملك : تجول وتبول!

نظر الملك لرجاله ووزرائه وتعجب للرجل المسكين الذي لم يجد سوى هذه الدعوة وسأله في غضب أليس لديك لي سوى هذه الدعوة؟

- فنظر له المسكين دون مبالاة وقال: لا بأس لا تتجول ولا تتبول!

غضب الملك وأخذ موكبه وانطلق، أكل وشرب واستراح ونام، وأقلقه البول فقام ليفرغ مثانته، لكنه لم يستطع التبول! وأحس بثقل في قدميه وصار يمشي بصعوبة كالكسيح.

شعر الملك بالفزع واستدعى الأطباء والحكماء، صنعوا له مراهم ودهانات وتدليك وأسقوه شراب شعير وشرب ماء كثيرا دون جدوى، بل امتلأت مثانته بالماء أكثر وزاد الضغط على جانبيه وأحس أنها النهاية، فقالت جاريته المقربة : مولاي ماذا عن الرجل المسكين الذي التقيناه عصر اليوم؟

وخرج كبار القادة والجنود وبحثوا في كل مكان فلم يجدوا له أثرا، وتفتق ذهن الوزير عن حيلة طيبة، وخرج المنادون في المدينة يقرعون الطبول، ويرصدون مكافأة كبيرة لمن يجد بهلول بن زغلول.

سمع بهلول النداء، ففتح باب المقبرة التي يسكنها وتوجه لقصر الملك، في ملابسه المرقعة البالية، وهيئته القديمة دون أن يرتدي

الملابس التي أخذها من الملك أو تظهر عليه علامات الرخاء والنقود.

أوقفه الحارس ومنعه من الاقتراب من البوابة الأولى ولكن بمجرد أن أخبره أن الملك ينتظره وأنه هو بهلول، حتى أركبه الحارس حصانا واندفع به إلى القصر.

طلب منه الملك أن يجلس وقدم له شاة مشوية وفاكهة كثيرة، أكل بهلول على قدر جوعه وشكر الله وعندئذ طلب منه الملك برفق أن يدعو له دعوته الأولى لأنه عاجز عن التبول والتجول.

رفع بهلول يديه للأعلى ودعا ثم التفت للملك وقال له : شفاك الله حتى تتجول وتتبول.

فهرول الملك للحمام مسرعا قبل أن يتبول على نفسه وهو يركض كنمر.

شددت ذراع السيفون فتدفق الماء لتطهير المرحاض وأنا أبتسم لطرافة القصة وعدت لميسون.

وجدت نشاطا وحركة وصحفي وصحفية يحملان كاميرا ويندفعان بسرعة خارج غرفة المحررين!

سألت ميسون ماذا يحدث؟

-قتيل مذبوح في نفق الحسين، جاءنا اتصال منذ دقائق!

هويت على الكرسي ولطمت خدي وتركتهما على وجهي، وصوت كالفزع في أعماق نفسي يخبرني : وسيمٌ .. قُتلَ.

ضد مجهول

أوضحتُ لميسون كلَّ شيء، لابد أن أختفي وأنجو بنفسي، لقد قتلوا (وسيماً) السيارة الصفراء المرسيدس كانت تراقبنا، ولابد أنني هدفهم القادم، لابد أن أترك القاهرة حالاً وسوف نجد وسيلة للتواصل واللقاء حتى يمر الإعصار بسلام، ودَّعتُها أمام قسم الشرطة بعد الإدلاء بشهادتي، فوسيم صديقي، لكني لم أجرؤ على ذكر أي شيء يخص الفتاتين أو له صلة بمدحت ورمزي أو السيارة الصفراء.

ودَّعتُ ميسون وركبت أتوبيساً للتحرير ومن هناك ركبت لموقف عبود، حجزت مقعدين جوار السائق في سيارة بيجو (سبعة ركاب) وحملني النعش الطائر وأنا أرتعش من الخوف طوال السفر كأن العالم كله يطاردني، تذكرت وجه وسيم وبكيت بصوت مرتفع قال السائق وحد الله يا أستاذ، ما لك؟ ما ضاقت إلا و فرجت. لا تحمل هماً للدنيا. إنها لا تستحق كل هذا الكرب.

وربت على كتفي وأعطاني سيجارة مارلبورو.

كنت دفعت له أجرة المقعدين وتركت له بقشيش وأشعلت له عدة سجائر حتى اقتربنا من كفر شكر.

وعندها توقفنا للاستراحة، طلبت سندويتشات مع شاي، كنت جائعاً ولم يستطع الموت أبداً طيلة عمري أن يُفسدَ شهيتي تجاه الأكل، هكذا أنا آكل أولاً ثم يبدأ العالم في المشي!

رأيت غرفة صغيرة مفتوحة مفروشة بحصيرة خضراء، وعليها سجادة صلاة، وبدون تفكير توضأت ودخلت أصلي وأنا أتلفت وتدور عيناي كأن أحد القتلة سيظهر فجأة وينهي حياتي.

***

عشت لعامين كاملين في شبه عزلة حقيقية، مكتئباً، عاطلاً ، خائفاً، وكانت قراءة الكتب هي حياتي وزادي.

كنت أتصل بميسون كل أسبوع لأطمئن عليها، وعرفت أن مدحت ورمزي حُوكما بأشغال شاقة لخمسة وعشرين عاماً، وقضية وسيمٍ تمَّ حِفظُها ضد مجهول بغرض السرقة.

ظلت الاتصالات بيني وبين ميسون تبهت وتتباعد، وتجاسرتْ وجاءت دمياط لزيارتي والتقينا في رأس البر وظللنا معا ثلاثة أيام، كانت تتعشم أن أقدمها لأهلي لكنني لم أستطع، وشعرت هي بخيبة أمل كبيرة وانهارت صورتي الشامخة في عينيها، رغم حفاظها على هدوئها ورزانتها، وبعد عودتها للقاهرة بأسبوع طلبت مني وأنا أطمئن عليها من هاتف عمومي مينا تل، أن أطلقها غيابياً، وأنها لن

تطالبني بأي حقوق، كان قلبها جريحاً منكسراً، أبديتُ رفضي التام لطلبها وظللت أقسم لها كم أحبها ولا يمكنني الحياة بدونها لكنها كانت صريحة وواضحة وبصيرة.

- اتركني لحالي لأجل الله، الله يسهل لك ويسهل لي، مع السلامة يا كامل.

كَأَنَّهَا جَاءتْ مِنْ القَاهِرةِ لهُنا للوداعِ الأخيرِ، أنْ تملأَ عينيك ورئتيك مِنْ إنسانٍ أحْبَبَتهُ، أنْ تُعيدَ تَرتيبَ قيمته بداخلك، أنْ تَمتَحِنَ ذَاتَكَ في قُدرتِكَ على الاستغناء والاستمرار حَياً بعد فِراقه، أخَذَتْ قَرَارَهَا كأَنَّهَا كانت في رِحلةٍ والإجازةُ انْتَهَتْ.

وانطوتْ صفحةٌ جميلةٌ من كتابِ حياتي وعدتُ لعزلتي واستسلمت لليأس والهزيمة والهرب.

وجدت في كتب التاريخ والأدب والتوراة والإنجيل والقرآن مواساة كبيرة لي، أخذت أنفث أحزاني على شكل قصص وأشعار، وظللت حبيس ظلمتي الاختيارية حتى جاءت تيسير.

ففي عصر يوم جمعة من شهر سبتمبر، بعد مرور ثلاثة أعوام على زلزال أكتوبر، طَرقَ ولدٌ من أبناء الحي باب شقتنا، وأخبرني أن هناك امرأة تنتظرني أسفل البيت، شعرت بقلق عارم وسألته : ما شكلُها يا نور؟

- حُلوةٌ جداً.

خرجت للشرفة لأنظر ولم أصدق أنها تيسير، وعلى كتفها طفل نحيل أسمر، رغم أنني كنت بمفردي في الشقة لم أجرؤ على دعوتها للصعود، وشعرت بخزي كبير، نزلت على الفور وناديتها من بئر السلم، وتعانقنا وضممتها بمشاعر دافئة، وأخذت الولد وحملته وقبلته ونظرت في وجهه وشعرت بسهم يخترق قلبي، كان الطفل صورة مني وألقى رأسه على كتفي واستسلم لأمان غريب وتعلق برقبتي وأنا لا أستطيع منع دموعي، سألتها بلهفة : هذا.. ابني؟

فانحنت ووضعت قبلة على يدي الملتفة حول الطفل، فضممتهما معا.

- ما اسمه يا تيسير؟

- سلطان

- لماذا هذا الاسم بالذات يا تيسير ؟

- اسم أبي رحمه الله.

- لماذا لم تجيئي قبل اليوم؟

- جئت أربع مراتٍ ولم أستطع الوصول إليك، هذه المرة البت قمر صديقتي قالت لي: أنك اشتريت منها تفاحاً وموزاً أكثر من مرة.

- قمر من ؟

- قمر التي تشتري منها الفاكهة والخضروات، محلها أول الشارع، في العمارة التي تحولت الشقق الأرضية بها لمحلات.

- هل قمر من بلدكم وصديقتك ؟

- نعم.. وليست هي فقط!

- من أيضاً يا تيسير؟

- الحلَّاقُ الخاص بك.. جارُنا!

- يا الله على الدنيا! كم هي عجيبةٌ، تعالي يا تيسير، لنصعد البيت.

- لا أحب أن أُسببَّ لك مشاكل مع أهلك.

- تعالي.

تغدينا معا لأول مرة سمك سردين مشوي، وأخذت ابني في حجري، بدأ يأكل منذ شهرين بعدما فطمته تيسير، وَيُتَّهتهُ بأرباع كلمات، حطم قلبي بهجة وأُنساً وأشعرني بحلاوة أخرى للدنيا لم أذقها من قبل.

سألت تيسير عن أحوالها وكيف مرت شهور الحمل والولادة، ونظرات الناس وأسئلتهم، وكيف تعيش، وأخبرتها عما حدث لي ولوسيم وهروبي.

ثُمَّ توقفتُ فجأةً عن الكلام. وضحكتُ بصوتٍ مرتفع ونقرتُ بأصابعي على الطاولة، يا الله أنا هربتُ وعزلتُ نفسي رغم أنني معلومٌ مكاني وتحت النظر طيلة الوقت، إن كنت أنت تتابعين أخباري وتحركاتي فما هو الحال لأولئك المجرمين؟

لابد أن نبقى معا يا تيسير لا يمكن أن نفترق بعد اليوم، لابد أن أرعى ابني وأربيه.

- أنا أعرف ظروفك، أعرف كل شيء عنك، لو استطعت المجيء لتعيش معنا في قلابشو تعال، لكنك لا تستطيع اعاشتنا هنا، ليس لديك شقة خاصة بيك، وأنت لا تعمل منذ هجرت كليتك، ليس لديك أملاك، لا تملك أموالاً ولا مصادر رزق غير عمل يدك .

- يا ربي ! هل أنا عريانٌ لهذا الحد؟ كل شيء يخصني معروفٌ لكل الناس؟

- لا أحد يترك أحداً في حاله، الناس دائما مشغولون بالآخرين.

وداعاً يا كامل. دعني أذهب، لقد رأيتك واطمأن قلبي عليك، خذ هذه الورقة بها عنواني، في العزبة الجديدة، أنا انتقلت لهناك منذ سنة.

لم يمكنني أن أستبقيها، وأين أستبقيها؟ أنا مجرد شاب تافه مستهتر في الثالثة والعشرين، فقير لا أملك أي شيء وحياتي انقلبت واختلطت أوراقها وفقدت الاتجاه الصحيح، يا لها من مأساة... أصبحتُ أباً لطفلٍ من امرأة لا أملك أجر المأذون لأتزوجها الآن! لا

أجدُ معي أي نقود أعطيها لها لأجل ابننا الذي ليس له ذنب في هذه البداية التعيسة، يا لها من نزوة، بل يا لها من جريمة يرتكبها الإنسان الطائش في حق نفسه وفي حق امرأة أحبته وفي حق طفل بريء لم يرتكب جرماً ليبدأ حياة متشردة. نَزَلتُ مَعَها سَلالمَ البيتِ وأنا أتمنى الموتَ ولمَّا وضَعتْ يدها في صدرها وأخرجت مبلغاً مِنْ المال مِنْ كيسِ نقودها القماش، شَعُرتُ أنَّني لا أساوي أيَّ شيء، هي لم تقصد إهانتي، لكنني أبصرتُ نفسي بشكلٍ صحيحٍ لأولِ مرةٍ وعرفتُ ماذا تعني الرجولةُ والمسؤوليةُ ومواجهةُ قَدَرِكَ ودفعِ ثَمنِ اختياراتك، ها هو الاستهتارُ أثمرَ، واللعبةُ أصبحت جَدَّاً، والنزوةُ أنجبتْ طفلاً وأصبحتْ الحياةُ ثقيلةً خانقةً معتمةً أمامَ ثمرةٍ واحدةٍ من الخطيئة.

كنتُ غارقاً في اليأس والحزن، لكن الطفل الصغير بسط يديه لي لأحمله من حضن أمه، عندئذ أدركت أنه يمكن تحويل المأساة إلى حياة، ضممت ابني وقبلته وأغرقت وجهه بالقبلات وعانقت تيسير بقوة، ومشينا معاً إلى موقف السيارات، وودعتهما على أمل قريب في اللقاء ووعود مخلصة أقسمت عليها لتيسير لأجلنا معاً، لأجل أسرة جديدة تكافح للبقاء في هذا العالم.

من ثقب الإبرة

وَدَّعتُ تيسير ورجعتُ وأنا أرفع رأسي للحياة وأنظر إليها مرة أخرى من ثقب جديد، أخذت أتأمل الشوارع والبيوت والناس بإحساس مختلف، وبدلاً من العودة للبيت من شارع جانبي، مررت بالمقهى وجلست.

مثل مسافر عائد من غربة طويلة رحب بي البعض، ولاحظت أن بعض الأشخاص لم يفرق لديهم وجودي من عدمه، وكأنني لا أشكل ذرة اهتمام واحدة في حياتهم، رغم الجيرة والصداقة التي يصنعها جو المقهى واللقاءات اليومية والدومينو والطاولة، وبدأت أنتبه أن بشراً مختلفاً قد نبت من الأرض الطيبة، وأن قلوبا قادرة على الحقد والكراهية تتكاثر بشكل سريع ومخيف وأن الأخلاق تتراجع وتتآكل، وقسوة لا تبشر بخير بدأت تسري في عروق المصريين، وأن شمس النخوة والمحبة التي أشرقت على طين هذه القرية المدينة أصبحت تصرفات خسيسة وسلوكيات قبيحة، وبدت لي وجوه كثيرة كوجوه شياطين، ثم سألت نفسي وهل للشياطين وجوه؟

إنه ذلك الإحساس عندما تنظر في وجه شخص ما وهو يبتسم لك وتشعر بفحيح خفي من العداء والكراهية والحقد، ظللت أتأمل أربعة أشخاص من أهل الحي يلعبون الدومينو، ويتبادلون النكات ويضحكون كالبشر الأسوياء، لكن عندما احتدم اللعب، وخسر اثنان أول لعبة، لأنهم يلعبون بنظام المشاركة، حيث يجلس كل لا عبين

متقابلين، ضد لاعبين آخرين على طاولة واحدة مستطيلة بطول متر في نصف متر، وعند الخسارة الثانية بدأت تظهر تصرفات استفزازية على لاعب منتصر من الأربعة، وألقى كلمات مسمومة، من نوع، أنتم لا تجيدون اللعب، أقصى ما يمكنكم فعله هو جمع الروث من وراء الجواميس.

ورد عليه لاعب مهزوم، ثم تشاتما، ثم بدأت المعركة بالصفعات واللكمات، وحاول الناس التفريق بينهما، لكن زادت الشراسة والعنف والتحم الرجلان وسقطا على الأرض، وهما يتراشقان بسيل من الشتائم والسباب القذر، وكلمات نابية، ومعايرة، كانت الكراهية تسيل ككوب بيرة يطفو ويطفو ويفور على الطاولة، وعجز الناس الطيبون البسطاء عن فض النزاع، لكن بمجرد وصول المعلم غانم الكبير صرخ في الرجلين صرخة واحدة، وأمرهما بالتوقف، وعلى الفور سحب دلواً من تحت الحوض، به ماءٌ قذرٌ من نقع خراطيم النارجيلة وسكب الماء على الرجلين وطردهما من المكان.

قلت لنفسي يتقاتل الناس على الدومينو؟! يا لها من علامة سيئة جداً سيتقاتلون قريباً على أشياء أخرى.

وبينما أنا غارق في تأمل الوجوه الحجرية، أيقظتني يد صديقي إيليا وتعانقنا وسألني عن حالي وغيابي واختفائي.

إيليا صديق عزيز، بائع خضروات وفاكهة جوال على باب الله، يطوف بالمدينة منذ الصباح الباكر، بعدما يحصل على بضاعته من

وكالة الخضر والفاكهة، ومن شارع إلى شارع، يشق الحارات والشوارع مناديا بصوته العاري، على بضاعته الطازجة الندية، دون استخدام مكبر صوت، أغلب حديثنا معا في الإنجيل والأسفار، نادراً ما يذهب للكنيسة، فمنذ مجيئه من مدينة المنيا هرباً بحياته مع أبيه وأسرتهم، خوفاً من القتل والاضطهاد والتضييق في الرزق، أصبح إيليا لا يذهب إلا في الأعياد، عيد القيامة المجيد، أحد السعف، ويكتفي بترتيل وقراءة الإنجيل في البيت لأولاده، أسر مسيحية كثيرة هربت من صعيد مصر وتوجهت ناحية الشمال، فالمدن التي تطل على البحر أكثر تسامحاً وألفة من المدن الغارقة في الرمل والحر وقسوة الجبال الحجرية التي تطبع قلوب أهلها بطبيعتها القاسية.

- والله زمان يا كامل.

- كيف حالك يا صديقي؟ أوحشتني والله ، ما أخبار الدنيا معك؟

- الحمد لله.

ثُمَّ يَمُدُ يده لي بتفاحة جميلة، أو عدة تمرات رطب كعادته معي، وفي كل مرة أقف لأغسل التمرة أو التفاحة يضحك ويقول لي: (من عاش بالحكماء مات بالمرض).

أضربه على كتفه بحنان وأقول له: (طوبى للأنقياء القلب فإنهم يعاينون الله).

ثم ندخل في طيف من النور والجلال ونحن نتبادل آيات الإنجيل والقرآن وأنا أقرأ له الآيات المتطابقات والمتشابهات، في الكتابين المقدسين، ثم ضحكت لأول مرة منذ سنوات وأنا أتذكر موقفاً طريفاً حدث معي .

قلتُ له: دخلت أثيليه القاهرة ذات مساء، وكان يجلس كاتبان كبيران هما يوسف أبو ريا وإبراهيم فتحي، وعندما دخلت لأول مرة كنت خجولاً غريباً لا أعرف كيف أتفاعل، فألقيت السلام وجلست بعيدا، وبينما هما يتناقشان ويتفرسان في تصرفي الغريب وجلوسي بعيداً، كان إبراهيم فتحي يقرأ أبياتاً للشاعر أمل دنقل، وخانته الذاكرة فأسعفته بالنص بصوتي الرخيم وإلقائي المميز، عندئذٍ دعاني للجلوس معهما وقال:الجلوس وحيداً في البرد حماقة كبيرة!

انتقلت للجلوس بقربهما وأخذنا الحديث يميناً ويساراً، وتطرق الحديث للتناص والنص المقدس وتضمينه في القصائد الشعرية وطوفان قصيدة النثر، وفتوحات أدونيس والماغوط، ثم تكلمنا عن جشع وتوحش الرأسمالية، ومعاناة الفقراء، فقال يوسف أبو ريا: من ثقب الإبرة!

فقلت:(مُرُورُ جَمَل مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ)

فسألني أنت قبطي؟ قلت: قبطي مسلم! وأردفت أن آية الإنجيل موجودة في سورة الأعراف لكنها أكثر اتساعاً، فاهتم يوسف أبو

ريا جدا وطلب أن أقرأها، فقلت : (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وكذلك نَجْزِي الْمُجْرِمِين)

فقال يوسف مندهشاً هذا نفس المعنى والآية عندنا!

فابتسم ابراهيم فتحي وقال : يا يوسف الرب الذي قال هذا هو الذي قال ذلك، وأنت تعرف... ذاكرة الرب أحياناً... فتكرر آية هنا أو هنا!

قمتُ منتفضاً عندما سمعت كلمات إبراهيم فتحي وأردت الانصراف برقة وهدوء دون أن أنطق بكلمة سوى عن إذنكم يا أساتذة.

لكن إبراهيم فتحي ابتسم ثم ضحك وأمسكني من يدي وأجلسني وهو يقول لي : اجلس أيها المؤمن.

أسياد وعبيد

لا يُمكنُ لشيءٍ أنْ يُخرجَ الإنسانَ من عُزلتهِ مثلما يفعلُ الدينُ والحبُّ.

كانت الأفكار تتصارع بداخلي، والرغبات، لا أعرف حقيقة هل أنا أحن لميسون أم تيسير، أم لزينب، لكن كبرت بداخلي رغبة في التوقف عن العودة لحياة المستنقع، خيانة وأكاذيب وبقالة لمشاعر الحب.

انفجر فجأة صوت أجش قارع للأذن، ظننته بائع (روبا بيكا) لكن سرعان ما انتبهت أنه آذان المغرب، قلت لا حول ولا قوة إلا بالله، عقمت الأرحام!

ألا يوجد في هذا الحي كله رجل حلو الصوت ليرفع الآذان، عجيب أمرنا نأخذ ما نحب من الكتاب والسنة ونترك ما لا يتناسب مع أهوائنا وأطماعنا، وقلت لنفسي: الساكت عن الحق شيطان أخرس، لابد أن أخبر هذا الرجل أن آذانه حرام وظلم وأذى، ويجب أن يرفع الآذان رجل عذب الصوت مثل بلال بن رباح، وأن النبي محمد صلي الله عليه وسلم أوضح القضية بصرامة وحزم وأمر الصحابي عبد الله ابن مسعود أن يعلم الآذان لبلال، رغم أن الله ألهم ابن مسعود الآذان في المنام، ثم ألهم بلالاً عند آذان الفجر أن يضيف إليه : الصلاة خير من النوم.

كانت الأفكار تغلي بداخلي، واستيقظت على صوت الشيخ محمد زكريا يدعوني للصلاة، قم. كفاك كسلاً.. أنت كنت حمامة المسجد.

ومثلما ينفرط العقد، ومثلما تنزل القطرات الأولى المبشرة بالمطر، لم تعد تفوتني صلاة جماعة، لكن فطرتي وطبيعتي لم تتقبل أبدا الجلباب الأبيض القصير واللحية وعطر الأموات، الذي يستخدمه الأتقياء والمؤمنون.

يوما بعد يوم أخذت أستعيد حياتي، ما زلت عاطلا تمر أيامي بين المقهى والقراءة والجامع! ما هذه الحياة الفاشلة؟

إن الحياة لا تساوي أي شيء بلا عمل وعرق، والعمل الغير مثمر يصبح كابوساً جاثماً على الصدر يملأنا بالإحباط واليأس، لكن هناك عزة وكرامة في كسب قوتك من عمل يدك، أو مهنتك أو وظيفتك، وبقاء الإنسان بدون عمل وكفاح يجعله ميتاً يذهب ويجيء.

ماذا أعمل في هذه المدينة التي امتلأت بالورش والماكينات والضوضاء والأخشاب، سبحان مغير الأحوال، في طفولتي كانت هذه البيوت والورش أرض برسيم وذرة، الآن المدينة مثل خلية نحل، غرف نوم وصالون وكراسي وكنصول وطاولات، وتحف، تحف حقيقية من الورود والأزهار وأوراق الأشجار المنقوشة على الخشب، الخشب الزان الروماني واليوغسلافي، تستورده ميناء دمياط كل يوم بآلاف الأطنان، وقبل أن يكون لدينا ميناء كانت الإسكندرية تنجز هذه المهمة، سفن عملاقة محملة بالأخشاب، تحوله

الأيادي الماهرة إلى تحف وأنتيكات كأنما نفخوا فيها من روحهم العبقرية، عمارات شاهقة تقام، معارض موبيليا بواجهات رخامية وزخارف تتكلف الملايين، الشعب الحافي ارتدى حذاء يا أمي!

دمياط أصبحت مدينة أثرياء وفقراء، تجار كبار جدا يمتلكون الملايين ويركبون سيارات فارهة تتجاوز المليون أحيانا، وعندما أسأل أحد العجائز عن التاجر فلان يخبرني أنه كان بائع قباقيب حمَّام، سبحان العاطي الوهاب.

التجارة شطارة! قبيحة وقاسية ومصاصة دماء، تجار قلائل جمعوا ثرواتهم بالرزق النظيف، يساعدون الأيتام والأرامل والفقراء، يتاجرون مع الله في صمت، في أموالهم حق معلوم، لكنهم للأسف أقلية أما الأكثرية فهم مصاصو دماء، يستغلون الظروف القاسية لأصحاب الورش الصغيرة، ويسلبونهم جهدهم وعرقهم بأقل الأسعار، ويبيعون نفس المنتجات بأضعاف الثمن مرات ومرات، يكدسون الأموال في البنوك والخزائن البيتية التي تتعطن فيها الأوراق المالية ويبخلون على الفقراء والمحتاجين، يظهرون عيونهم الحمراء لمن يطرق بابهم طلباً لثمن حقنة دواء باهظة الثمن، من السهل أن ينفق واحدٌ منهم مائة ألف جنيه في سهرة لأجل عيون امرأة متاحة، ويستكثرون على الله عدة جنيهات يطعمون بها يتيماً أو محتاجاً أو أرملة وضعت على وجهها نقابا ودارت في طرقات الله تسأل الموسرين فتاتاً من المعونة، يخدعون الله في الأضحى،

ويذبحون عجلاً من دم الناس، ثم يستمتعون بإذلال الفقراء الذين يقفون أمام بيوتهم ومعارضهم لأجل قطعة لحم، ما أغرب الإنسان يحاول بجهله العظيم النصب على الله.

تغيرت المدينة وتغير الناس، الأنانية صارت سرطاناً متوحشاً ينتقل من شخص لآخر، التخاذل صار عقيدة وعبارة وأنا ما لي؟ صارت دستور الحياة.

لم تعد أطباق الخير تتناقل من بيت لبيت، لم يعد يهتم الجيران بجيرانهم، تحول ابليس بينهم لامرأة ثرثارة، تحذرهم من الحسد، عين فلانة وعين فلان، الكراهية تكبر، والأحقاد تتشاحن في الصدور، والفوارق الطبقية تتسع هوتها وتمضي المدينة في صمت لتتحول إلى.. أسياد وعبيد، ملاك وخدم، أثرياء ومعدمين.

لا توجد عدالة في أي مكان، الوظائف بالواسطة أو بدفع المعلوم، من أين تحصل فتاة فقيرة خريجة على ثلاثين ألف جنيه لتحصل على وظيفة، من أين لها أن تحصل على توقيع وزير! إذا غَابتْ العَدالةُ مَاتَ الوَطَنُ.

غداً أعود للبحر لصيد السمك، البحر كفيل بترميم نفسيتي المحطمة، لابد أن أنتفض وأن أقوم من الموت، أنا غارق في فشل كبير، لم أحقق أي شيء، بعض أقراني تزوج وأنجب طفلا، والأكثرية يتجهزون للزواج، يصلون الليل بالنهار، ويخلطون العرق بالطموح والآمال، كل شيء في هذه المدينة يمضي في طريقه، أنا فقط

الواقف الوحيد، الصنم القائم في الظلام والخيبة والانهزام، يا الله رأسي يكاد ينفجر، اسكت ، اسكت، توقف عن لومي وتحطيمي، لم ينته السباق بعد!

تذكرت تيسير وتذكرت ابني، لابد أن أخرج من عنق الزجاجة، لابد أن تتنصل اللؤلؤة من لحم المحار وتغادر القوقعة، لكن كيف ومن أين ؟

تذكرت الشاعر السيد النماس وهو ينشد :

إلى أين من أين؟

قمت واقفاً وانطلقت أسير ناحية النيل، وأنا لا أعرف ماذا أفعل ولا أين أذهب، ظللت أتمشي وأشرد بفكري والحيرة تعصرني عصرا، مشيت ومشيت، تعبت قدماي من السير، جلست لأدخن سيجارة على شاطئ النيل وأتأمل صفحة الماء ورائحة الصرف الصحي المتدفق إلى النهر تخنقني، قلت لنفسي يا لها من كارثة هل تعيد الحكومة معالجة هذه المياه الملوثة وتسقيها لنا مرة أخرى؟

رحمتك يا الله، الناس يموتون بالفشل الكلوي والكبدي، أليست أشهر كلمة في مصر اليوم هي فيروس سي؟

ألقيت سيجارتي في النهر، وقمت قبل أن أتقيأ جوعي، لكنني فوجئت بمطواة مصوبة تجاه حلقي وصوت خشن تعمد صاحبه أن يجعله ثخيناً مغلظاً وقال لي: أخْرِجْ ما معك!

لا أعرف من أين جاءتني هذه الشجاعة، أنا شخص جبان ومسالم، أرتعد رعباً عند رؤية مطواة أو سكين، الجرأة والوقاحة التي تعامل بها معي ذلك اللص التعيس تلك الليلة، أخرجتني من الخوف والخنوع والاستسلام!

- طلع اللي معاك.

قالها وأنا أقسم له أنني لا أملك أي نقود، ولا أحمل أي شيء نافع، كانت الساعة تقترب من الواحدة، وساقتني قدماي للجلوس أمام حديقة المحافظة، دون أن أعرف أن أرقى منطقة في مدينتي هي مسرح للصوص والمتشردين والمتسكعين والمتسكعات.

مد الشاب البلطجي يده يتحسس جيوبي الأمامية، وأتته الشجاعة أن يضع يده على جيبي الخلفي وضغط على إليتي!

لم أفكر ولم أشعر بشيء، تذكرت أطفال غزة يواجهون اليهود المجرمين بصدور عارية، ليس في أيديهم سوى حجر حي، نابض بالكرامة والكبرياء والشموخ، الحجر في مواجهة البندقية، فتيات ونساء في غزة أكثر رجولة ونخوة من آلاف الرجال، كيف يحق لي أن أكون جباناً، من الذي يموت مرتين، كززت على أسناني، وتذكرت صوت جدي نور الدين، أرجعت رأسي للوراء وبكل قوة وشر نطحته كثور هائج، ثلاث ضربات متتاليات بدون فواصل سوى ثوان معدودة، وانطرحت على ظهري وسقطت على الأرض وفي جبهتي جرح غائر من أثر أسنانه الأمامية، والدم يسيل على

وجهي وأنا أتلاشي والدنيا تدور وتدور وفقدت القدرة على سماع أي صوت واستسلمت عيناي وأظلمت الدنيا.

أفقت في المستشفى العام، وأخبرتني الممرضة أنني حصلت على ست غرز في جبيني! وأن أمين شرطة يريد أخذ أقوالي!

سألتها ماذا حدث وماذا يريد الأمين؟ فأخبرتني أن الشاب الذي نطحته أصيب إصابات بليغة في الأنف والعين، وفقد اثنتين من أسنانه الأمامية.

ثم ضحكت ماذا فعل لك؟ لقد نطحته!

جاء الأمين وأعطاني بطاقتي وبطاقة الكلية، وأخبرني أن المحضر تم تضبيطه جيداً وأن البلطجي الذي ضربته سيخرج من المستشفى للسجن لأنه مطلوب في قضايا نشل وسرقة بالإكراه وضرب وتحرش.

وأخبرني أن المحفظة في مكانها في جيبي، أخذ منها البطاقة أثناء فقدي للوعي، وأنه لم يجد بها نقود.

ثم سألني هل أخذ منك حمادة كمون شيئاً؟

قلتُ: لا. لم يكن معي أي شيء.

- لا يهمك الأمر، وقع لي على المحضر أنا هيأته.

انصرفت وأنا أترنح، أوشك الفجر على الخروج، المسافة من المستشفى العام لبيتنا بدت كأنها ألف ميل وليست خمسة كيلو مترات على الأكثر، مشيت محاذيا للنهر وأنا أقول لنفسي مسافة خمسة كيلو تبدأ بخطوة، ودون أن أنتبه تعثرت قدمي في قاعدة عامود إنارة ناتئة من بين البلاط فشعرت بألم كبير في جبيني، لكن لم أتوقف وأكملت المسير وأنا أتنهد:

يَا لَهَا من كَارِثةٍ أنْ نَلتَقِيَ أولادَ الحَرَامِ في كُلِّ طَريقٍ كأنَّ الحياةَ قَامَتْ عَلى لَحْظَةِ زِنَا.

فجأة حاصرتني مجموعة من الدراجات البخارية والأشخاص وأخي بينهم، وتجمعوا حولي للاطمئنان على حالتي، وأركبوني سيارة فيات لأحد الجيران أخذوه من طاولة الدومينو مع آخرين خرجوا للبحث عني!

استرحت في المقعد الخلفي للسيارة وأرحت ظهري وقلت لنفسي: إنه في اللحظة الكاملة لليأس تمتد إلينا يد الله لتنتشلنا من عذاباتنا القاسية قبل أن يجف فينا ينبوع الرجاء، صدقت يا (توماس) أنت يا رب تنتشلني، أنت يا رب تنتشل من يحترق.

لمت نفسي على قسوتي وفكرتي السيئة عن الناس وقلت في أعماقي: الدنيا ماتزالُ بخير ثم غفوت.

كُلُّ الرعيةِ شُرطَةٌ

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل سمعت نداءً لحوحاً ملهوفاً أسفل البيت، كان البرد شديدا في فبراير والشهر القبطي طوبة يحمل حبيبات الثلج لمدينتنا الساحلية، انتفضت من تحت لحافي وفتحت الشباك ونظرت لأرى من المنادي، كان الشارع معتما ولم تتأهل حارتنا بعد لتركيب مصباح كبير.

- من المنادي؟

- أنا!

حاولت تبين الصوت كي لا أوقع صاحبه في حرج، فربما جاء في طلب خدمة أو حاجة يمكنني قضاؤها له، فمنذ التحاقي بجريدة يوليو أصبحت أتلقى طلبات ونداءات، كأنني عضو برلمان.

قال الصوت: كامل.. هناك موضوع خطير.

عرفت صاحب الصوت، إنه صديقي وجاري أبو يوسف، ارتديت عدة فانيلات برقبة وقميصاً وبنطلوني قطن وجواربين، وأنا أرتجف من البرد ونزلت إليه.

أخذني جانبا وقال لي : مصيبة!

- خيراً يا رب.. كفانا الله الشر!

- الرجل الذي يقف هناك أتراه؟ عند الناصية!

- ما له ؟

- ابنه.. اغتصبه اليوم خمسة شبان في النادي!

- يا نهار أبيض، ما عمره ؟

- تسعة.

- هل عرفت من الذين اغتصبوه؟

- نعم ، شابٌ شقيٌ اسمه عماد عيسوي، ومعه خالد قطبي، وهاني الجدي، واثنان آخران.

- هل قدم أبوه بلاغاً في القسم؟

- نعم... لم يفعل له أحد شيئاً!!

- البلد خربت!

عضضت على شفتي من الغيظ وشعرت بغضب عارم ونار تشتعل في صدري كحريق بين رئتي، وتساءلت إلى أي مدى وصلنا؟ اغتصاب أطفال و قتل لأجل سرقة أعضاء، وشذوذ ودعارة وانعدام أخلاق وفساد في كل مكان، وخمسة ملايين موظف وقضاء ضعيف وقانون معوج وشرطة تأتي بعد وقوع المصيبة، يا له من عصر مبارك جدا!

لم أجد وجها أتكلم به مع والد الطفل كأنني مسؤول ومشارك في هذه الجريمة!

قلت لصديقي في الصباح نتحرك.

لم أنم طيلة الليل من الغيظ والغضب، هذا الشر يجب ردعه بقوة.

هؤلاء المجرمون يجب اجتثاثهم من المجتمع مهما كانت ظروفهم وبيئتهم.

في الصباح ذهبت لقسم الشرطة ودخلت في مشادة كلامية مع رئيس المباحث وارتفع صوتي واحتددت.

الأب لم يذكر في المحضر أن الولد تعرض للاغتصاب، وهكذا كنت أتحدث عن شيء لا يعرفه الضباط الذين دخلوا معي في جدال شرس.

" لماذا فعلت ذلك يا حاج ؟!"

قلت لنفسي هؤلاء الناس يمكنهم توريطنا في أمور تخصهم ومشكلات لا علاقة لنا بها وندفع أثمانا باهظة دون أن يعنيهم الأمر إطلاقا، لكنها لوثة الشرف وحمية نصرة الحق فقط تدفعنا لخوض المخاطر وتحمل التبعات.

- اغتصبوه يا باشا.

- لم يغتصبوه!

- أؤكدُ لحضرتك يا باشا أنهم اغتصبوا الولد.

- أبوه لم يقل ذلك في المحضر!

- طيب... بعيداً عن المحضر والرسميات والصحافة، بينا وبين بعضنا، هؤلاء الأشقياء اغتصبوا الولد من العصر حتى المغرب وجرحوه ويتعالج الآن!

- هل أنت متأكد من كلامك؟

- نعم... هذا يقين.

وعدني رئيس المباحث بسرعة ضبط الجناة، وتقديمهم للعدالة !

العدالة !! يا لها من كلمة جوفاء!

إن الإنسان لكي يكون قاضياً لابد أن يكون شفافا بصيرا بالغيب، غيب الصدور، وغيب الأمكنة والأزمنة، سمع ورأى وتبصر وعرف من الجاني ومن الضحية والدوافع والمحرضين.

لا أحد يمكنه أن يكون قاضياً عادلاً سوى الله الواحد. لذلك نحن نحلم بإقامة المستحيل على الأرض.

ظللنا لأسابيع ننتظر ولم يحدث شيء، كان الحادث بالنسبة لي أمراً مفزعاً لا ينبغي أن يمر دون عقاب ودون وقفة، وهذا شعب طيب سريع النسيان، يعود من جنازة ملك لينساه أمام مباراة للأهلي والزمالك.

قلت أكتب مقالاً نارياً أحرك به المسؤولين والرأي العام، كتبت مقالا ونشرته الجريدة التي أكتب بها في الأعلى على يسار الصفحة، وعندما صدر العدد، حدثت بعض ردود الأفعال البسيطة ومع مرور الوقت تبخر كل شيء.

كان والد الطفل يلجأ إلينا وقد أصبحنا جبهة دعم للرجل، مجموعة شباب لديه نخوة وشرف، وفي وسط الحماسة قال مهند: علينا أن نقبض على المجرمين بأنفسنا.

قلت له فكرة رائعة لكن يجب تطبيقها في إطار القانون وتحت سمعه وبصره كي لا تتحول الأمور إلى فوضى تنتهي بكوارث.

أنصت مهند لكلماتي دون أن يؤمن بحرف منها، لكنني وعدته أن أحصل على تفويض رسمي بضبط واحضار المجرمين وسألته هل تعرف معنى كلمة شرطة ومن أين جاءت؟

قال لا.

قلت : كان في نشأة الدولة الإسلامية في بدايتها أحد القضاة، وكان أصدر حكما على أحد المجرمين، ولكن المجرم هرب.

وذات يوم كان القاضي في السوق ورأى الرجل الهارب، فحاول أن يمسكه لكن لم يستطع فنادى الناس أن يمسكوا بالرجل، فحاصروه وقبضوا عليه فأخبرهم القاضي أنه مجرم هارب وقال : كل الرعية شرطة للقضاء.

انصرف الجميع على أمل أن أحصل لهم على تفويض رسمي أو ضوء أخضر لضبط المجرمين المغتصبين.

كان رئيس المباحث متردداً لكنني ذكرته أن لديه ولد جميل ووسيم وأن هذا الشر يمكنه أن يطول ابن المحافظ أو مدير الأمن أو أي شخص.

قال لي متبرماً : صحيح...أنت كتبت ذلك في مقالك وأُشعلت الدنيا.

- امضي يا باشا

- أمضي على ايه ؟

- على التفويض ليتشجع الشباب لإحضار المجرمين تحت قدميك!

- أنت بتهرج ؟ استيقظ... أنت في دولة قانون.

- وأنا أحترم القانون.

أخذت التفويض بختم النسر الشفاهي، كما يقال كلمة شرف وضوء أخضر.

لم يصدق الشباب أنني فعلتها، لكنني أوضحت لهم، عليكم أن تتصرفوا كرجال شرطة محترمين ملتزمين بالقانون، سوف نقبض على المجرمين وفقط، لا ضرب ولا تعذيب، ولا تجاوزات، وفي القسم سيحصلون على الترحاب اللازم.

كنت حريصا أن أختار المتعقلين الملتزمين بالنصيحة، وبدأت رحلة التحريات وجمع المعلومات حتى عرفنا أن المجرمين يتخندقون في مبني نصف منهار هدمه مجلس المدينة لمخالفته وبنائه على أرض زراعية.

أعددنا الخطة وطريقة التنفيذ والتوقيت، وذهبنا في سيارة ربع نقل وعلى مسافة نصف كيلو متر تسللنا، عبر الأراضي الزراعية البائرة التي يتم تجريفها لتحويلها لناطحات سحاب على النيل، وأحطنا بالبيت المتهدم من جميع الجهات، كان نصف البيت سليما، عبارة عن عنبر كبير بنصف مساحة البيت، بمدخل لم يتم تركيب باب له، ونصب المجرمون عليه ستارة من البردي المنسوج تسمي كيب وكانت احدى المهن الشهيرة القديمة هنا هي هذه الحرفة اليدوية.

فاجأنا الشبان الثلاثة نحن العشرة، وهم يدخنون سجائر البانجو التي لعبت بحواسهم وأفقدتهم الاتزان، لم تكن هناك أي فرص لهم للمقاومة ولو كانوا حاولوا لوقعت المصيبة وتم قتلهم دون وعي في ثورة الشباب الجارفة.

شعرت بالانتصار والفخر لأنني حاولت تغيير قذارة في مجتمعي الذي أعيش فيه، وأنصفنا مقهورا، والقانون سيكمل ما بدأناه، لكن سرعان ما استطاع المحامي البارع إخراج المغتصبين من السجن، وعادوا يمشون أمامنا بكبرياء واستفزاز وتهديد أيضا.

(مفيش فايدة).

تطرق رأسي بقوة، وإن تجاهلتها سمعتها من أشخاص كثيرين، حتى أصبحت أستسلم لفكرة أن هذه الأرض بحاجة لطوفان نوح.

***

مرت ثلاثة أعوام وخرج عماد من السجن، هل ثلاثة أعوام عقاب كاف ورادع لمجرم اغتصب طفلا في التاسعة؟!

شعرت أن الكتابة عبث، والصحافة هراء، وأن الحياة غابة حقيقية لا يعيش فيها سوى الأقوياء فقط (الجنيه ضرب الكارنيه) يتشدق بها الناس، فالمال سلطان والعزوة تضربها الأيام بالصراعات والمطامع، المال والبنون زينة الحياة الدنيا، فأي زينة بقيت لنا؟ نأكل كتباً ونؤلف كتباً، ونعيش في صوامعنا الضوئية غير المرئية ونحن نعيش بين الناس، هم يروننا أغراباً ومعتوهين، ونحن نراهم لاهثين وخانعين، وهل تحت سماء الله أجمل من كلمة لا؟ وهل يضاهي جمال المعرفة جمال؟ أين تذهب إذاً هذه الأفكار العظيمة؟! عندما تتحرش بك امرأة جميلة وتطاردك بقوة حتى تسقط، ويسيل لعابك إذا راودك حلم باهت بأن تصبح مثل الناس مالكاً لثروات وشركات وسيارة فارهة!

لو لم نكن كتاباً فماذا كان يمكننا أن نكون؟ نحن فاشلون ومعتمون وبلا قيمة إلا عندما نمسك بالقلم ونحاول تقليد الروائي الأعظم!

تسرب الكفر بالكتابة إلى نفسي، تحت وطأة الفشل وتحطم الأحلام، فكسرت قلمي، وقلت لابد من تغيير الطريق ويكفي ما ضاع من العمر هباء.

إيمان الكاتب الناشئ بنفسه، لا يكفي لإكمال مسيرة الكتابة، للتمسك برسالة يؤمن أن الله خلقه لأجلها، وعندما أوشكت أن أكفر بالكلمة وضرورتها لإصلاح اعوجاج مجتمع متفسخ، رغم بزوغ كلمات شكسبير كشمس أمامي دائما، (هذا زمن رديء ومعوج وقد خلقني الله لأصلح اعوجاجه) كنت بحاجة لأشخاص مؤمنين يدفعونني بقوة لكي أستمر.

أخي الوحيد فنان، يجيد الرسم واللعب بالألوان، ومحاكاة أجمل اللوحات، يؤمن بي وبموهبتي، يشجعني ولا يسفه أحلامي الصغيرة، أزعجته كثيراً ونحن صغار، فجأة يستيقظ من أعماق النوم على صوت دبيب قدمي على بلاط غرفتنا، ينظر فيجد أمامي طاولة وأوراقا بيضاء غير مسطرة، وأنا أدندن فعولن فعول، أو أكرر الفقرة التي انتهيت من كتابتها منذ دقائق، كان ينزعج ويغضب ويجذب البطانية على رأسه ويتأفف، لكن بعد مرور السنوات اعتاد على هذه التصرفات التي تشبه الجنون، كان يشاهد فرحتي العارمة بكتابة قصيدة أو مقال، ثم اعتاد أن يطلب مني أن أقرأ عليه في الصباح ما كتبته في السحر، وصديقي الأقرب لقلبي محمد ناجي، يطلق صوته بالنداء أسفل البيت، وعندما أخبره أنني

كتبت قصيدة جديدة، تملأ الفرحة وجهه وقلبه كأنه هو من كتبها، كان إيمانه بي بلا حدود، وكلما دب اليأس في قلبي دفعني بكل قوة للثبات في وجه الإحباط والفشل.

الكتابة رحلة طويلة، كزراعة نخلة، لا تثمر في اليوم التالي ولا الشهر الآتي ولا العام القادم، وحياة الكاتب في أمة تكره القراءة كحياة درويش متسكع، يشبه المشردين والمتسولين.

فجأة نكتشف معرفة، ندرك حقيقة، نصل لتحليل صحيح لظاهرة أو حدث، فتتولد الرغبة الملحة للكتابة، وتدفعنا قوة خفية هائلة لكي نخبر العالم بما نعرفه.

ذات مساء صيفي سهرت مع ناجي حتى الصباح في رأس البر، وعندما أشرقت الشمس مشينا على البلاج حافيين، يداعب الموج أصابعنا، وننظر بإعجاب وافتتان للجميلات اللاتي ينزلن البحر.

على مسافة قريبة منا، رأيت حلقة واسعة من الكراسي على رمال الشاطئ، أمام كافيتريا من الأخشاب، كانت الحلقة تضم شبابا كثيرين، ربما خمسين أو أقل، وعندما وقف واحد منهم ومشى باتجاه الكافيتريا، وقف شعر رأسي.

الشاب يتمايل بغنج ومياسة، كما تمشي عارضة أزياء في عرض متلفز، يطرح ظهره للخلف، ويضرب الرمل بقدميه على شكل

علامة إكس، ويمسد شعره الطويل للخلف بيده، ثم ينفض رأسه، كأي أنثى تتدلل.

سألت صديقي متعجباً ما هذا؟

كنا قد وصلنا أمام الحلقة، نظرت في الوجوه وبُهتُ، كأنهم نساء في ملابس رجال، وجوههم تلمع بسبب الكريمات المرطبة، رموشهم كحيلة وتبدو شفاههم مطلية بأحمر شفاه خافت اللون، وتفوح روائح عطور أنثوية ليست رخيصة.

قال لي ناجي: هؤلاء جميعا شواذ، يستعدون لموسم الصيف الجديد، وهذا الشاب الذي سار للكافيتريا اسمه جي جي ، قائد المجموعة والمسؤول عن توزيعها كتوصيل الطلبات للمنازل.

سألت صديقي من الذي يستهلك هذه الكائنات القذرة؟

قال: رجال أثرياء ومحترمون وكبار!

تخطيناهم وأنا أقول لناجي: الوقاحة بلغت أقصى حدودها، سدوم تعود للحياة في أماكن كثيرة من العالم.

شعرت أن الوقت قد حان لرؤية تيسير وسلطان ابني الذي لم أره منذ عشرة أعوام كاملة، يا له من عبث و استخفاف.

أين وضعت الورقة التي فيها عنوان تيسير؟

لقد أضعتها إذن! مستهتر أنا لأقصى درجة.

سافرت لقلابشو وبهرني الطريق الدولي السريع الذي تم تشييده وانجازه، وصلنا بالتاكسي الذي استأجرته خصيصاً للرحلة الشاقة، كل شيء تغير، أين أبحث وكيف أبحث عن تيسير؟

لو سألت عنها سأتسبب لها في فضيحة ربما وأنا لا أعرف مع من تعيش ولا كيف ولا أين وورقة العنوان التي أعطتها لي ضاعت.

فكرت في الذهاب لمكان الكوخ القديم لكنني اكتشفت أنني لا أعرف مكانه.

لجأنا لحيلة أن الماء نفد من السيارة ونحتاج زجاجة للسيارة، وأخذنا نتسكع ربما رأتني تيسير وانتهت الأزمة.

تذكرت أننا في زمن (٦٦٠٠) لكن هل توجد هنا تغطية لشبكة الهاتف الجوال؟

أخرجت الهاتف فوجدته خارج التغطية، حتى التكنولوجيا يصيبها الغباء أيضا، ثم ضحكت وأنا أتساءل وبمن تريد أن تتصل، وهل تملك تيسير هاتفاً نقالاً؟ وأين رقمها أيها الغافل؟!

أوشكنا على اليأس والرحيل بخيبة الأمل أنا وصديقي بهاء سائق التاكسي، لكن وجدنا شابة ملثمة تسألنا عن ماذا نبحث؟

فقلت لها: نريد ملء زجاجة الماء الفارغة لأجل السيارة، فأخذتها وملأتها من جركن مياه على عتبة البيت، شكرتها وتشجعت أن

أسألها، هل من الممكن العثور على فتاة مليحة الخلقة تكون مربية أطفال براتب شهري محترم؟

فضحكت وقالت المليحة تركت العزبة منذ سنين.

سألتها بفضول كشف اهتمامي ولهفتي أي مليحة؟

قالت: تيسير التي جئت تبحث عنها ؟

شعرت أنني عريان وسألتها مستغرباً، كيف عرفت؟

قالت أنا صديقتها ورأيت صورتك معها!

- ها .. صورتي ومن أين حصلت على صورتي؟

- من الجرنال

- وأين هي الآن يا..؟

- أشواق.

- اسم جميل يشبه حالي!

- تعيش وتفرح يا سي كامل!

صلاة النبي أحسن، قالها بهاء وأعطاني سيجارة وقال: ولع.

- أين تيسير يا أشواق.

- منذ سنتين تركت العزبة مع زوجها الجديد وانقطعت أخبارها عني.

- هي تزوجت؟!

- نعم.. عقبالي يا رب، تزوجت من تاجر بطيخ وبنجر من بلقاس.

- طيب و...

- سلطان!

- عسل يا أشواق والله.

- معها، ده بقى عريس، ربنا يبارك لها فيه.

شكرناها وانصرفنا وأنا في حيرة كبيرة، لي ابن في هذا العالم لا أعرفه ولا يعرفني، ترى هل أسمته تيسير سلطان كامل؟ أم منحته اسما آخر.

ركبنا التاكسي وعدنا وأنا في حيرة من أمري، هل أبحث عنها بإصرار ودأب أم أتركها لتهنأ بحياتها التي لم أحققها لها؟

وهل أترك ابني ليصبح رجلاً لا يعرفني ولن يغفر لي تركي له طوال هذه السنوات؟

عشرة أعوام مرت هباء من عمري، أنا الآن في الواحدة والثلاثين، لم أحقق أي شيء في الحياة إلا الفشل والخيبات وإهدار العمر.

- روق يا صاحبي.

- الله يروق بالك يا بهاء

- ولع

- تسلم يا غالي

نفثت دخان السيجارة وسرحت وأنا أنظر للأراضي الشاسعة، والبحر الواسع، وشاليهات مدينة جمصة، والحياة الصاخبة بالنجاح والإنجازات، ثم سألتني نفسي ما قيمتي في الحياة؟ ماهي ضرورة وجودي؟ لماذا خلقني الله من الأصل؟ ولأي سبب تستمر حياتي؟

تجسدت أمام عيني صورة أستاذي القديم الشيخ محمد رجاء، تذكرت سؤالي القديم، لماذا خلق الله الإنسان، ودارت الإجابات في رأسي كنمور تتصارع، يعبدون، يعرفون، وتذكرت قصة الحجر، ذلك الفتى الذي سأل والده ما قيمة حياتي فأعطاه حجرا وقال له: اذهب به للسوق، وأظهره للناس كأنك تريد بيعه، لكن لا تتكلم أبدا، وإذا سألك أي إنسان عن ثمن الحجر فارفع أصبعين.

ذهب الفتى للسوق ورأت الحجر امرأة وأعجبها، سألته بكم تبيعه، إنه يعجبني، رفع الفتى أصبعيه فقالت المرأة : دولاران، سأشتريه.

لكن الفتى عاد راكضا للبيت وأخبر أباه بما حدث، فأمره أن يذهب إلى متجر كبير وإذا سأله أحد عن الحجر يرفع أصبعيه، رأى

صاحب المتجر الحجر في يد الفتى فسأله بكم تبيعه؟ فرفع الفتى أصبعيه، فقال صاحب المتجر: ألفا دولار؟ سأشتريه بألفي دولار.

أسرع الفتى إلى البيت تكاد تصعقه الفرحة وأخبر أباه مندهشا أن رجلا أراد شراء الحجر بألفي دولار.

لكن الأب طلب من ابنه أن يذهب هذه المرة إلى المتحف، وإذا سأله أحد عن الحجر يرفع أصبعيه، وعندما ذهب الفتى للمتحف ورأى المدير الحجر صرخ قائلا: من أين أتيت بهذا الحجر النادر؟ أريد أن أشتريه، كم ثمنه؟ عندئذ رفع الفتى أصبعيه، قال مدير المتحف: مئتا ألف دولار، سأشتريه.

عاد الفتى لأبيه في حالة ذهول وهو لا يصدق أن حجرا كان يمكنه بيعه منذ قليل بمئتي ألف دولار، لكن الأب وضع يديه على كتفي ابنه ونظر في عمق روحه خلال عينيه وقال هل عرفت ما قيمة حياتك؟

قال الفتى لا يا أبي لم أفهم شيئا!!

غفل بهاء ثانية عن الطريق وانحرفت السيارة قليلا وخاضت في الرمال وكادت أن تنقلب بنا قبل أن يستجمع شتات نفسه واتزانه ويخفف من سرعته ويعود لطريقه المستقيم مرة أخرى، بعد أن انسحبت روحي من جسدي وشعرت بالهلع والخوف من فقد حياتي .

اكتشفتُ أنَّني أمْلِكُ شَيئاً عَظيماً جِداً يَستَحِقُ أنْ أعيشَ مِنْ أجْلِهِ ؟
حَياتِي نَفْسها، حياتي أنا.

زمن الوقاحة

رغم أنه كاد يقتلني أصبح سائقي الخصوصي، أنا لا أملك سيارة، والهاتف المحمول فتح لنا أبواب الدنيا، إنه المعجزة الكاملة الحقيقية.

فكلما أردت الذهاب لأي مكان أو حدث لي أمر غير وارد في الحسبان، أخرجت الهاتف المحمول كمن يخرج مسدسا سريع الطلقات وأتصل ببهاء لنجدتي أو أخي أو صديقي ناجي.

ورش كثيرة في دمياط تحولت إلى محلات كمبيوتر، الستالايت اكتسح العالم العربي، وأصبحت القنوات الإباحية هدفا لكل من يدفع أموالا لاقتناء أحدث الأجهزة لفك الشفرة واختراق القنوات المغلقة ومشاهدتها، وأصبحت تنتشر بين العامة، كأمات تقنية مميزة (إيرديتو ... فياكسيس) وهي أسماء لتقنيات التشفير الشهيرة، وصار الليل العربي كله غارقا في الإباحية والمغيبات والمنشطات والجواري الحسان والمحظيات والعشيقات،وعندما انتشر الإنترنت فقد العالم بقايا البراءة والخجل، وصارت فيديوهات غرف النوم بين الأزواج مادة للمشاهدة والربح، وحمل سيل الإنترنت الجارف مالم يخطر ببال إنسان من الرذيلة والفضائح والشذوذ، وخلق الهاتف المحمول الخصوصية والحرية للمشاهدة والمشاركة والإنتاج، ودخلنا زمن الوقاحة.

كان فراغ قلبي يدفعني بهيستريا لامتلاك كل الأشياء التي لم أستطع امتلاكها من قبل.

(الفلوس تغير النفوس) مثلٌ شعبيٌ قاتلٌ.

ربما كانت الخيبةُ في الوفرةِ والخطيئةُ في الطفرةِ.

لم أكن واقعاً في العشق، كنت جائعا ومسرفا وفاشلا، وجذبتني تفاحة حواء لقاع الجحيم، لكنني لا أجد شبعا.

وجوه كثيرة حولي، وجوه جميلة، بيضاء، قمحية، سمراء، رقاب نحيلة ورقاب عجاف وسمان، وأنا أشبه نخاسا قديما ومبتذلا لا أتوقف عن اكتشاف أنواع الزهور وحلاوة الرحيق.

لا أعرف هل يمكن أن يحب الرجل أربعا من النساء، ألا تكفيه امرأة واحدة؟

ما الذي أفعله بنفسي؟ كيف أقول لكل واحدة منهن أنت روحي أنت عمري، وبينما أعيش حياة عربيد فاشل، يتزوج شبان بسطاء وينجبون الأطفال وينيرون حدائق الدنيا بالأزهار.

من الأفضل الآن ؟ الجاهل البسيط أم المثقف المتكلف؟

أي ثقافة هذه؟ أي معرفة؟ أي حكمة؟ أم هي لعنة تصيب كل هؤلاء الذين يتصورون أنفسهم أنبياء أو ظلال آلهة.

فَهِمَ الطيبون الحياة في بساطتها وعقدناها نحن.

الدنيا صغيرة جدا

صحوت من نوم طويل أكل أعواماً أخرى من حياتي الفاشلة، حياة تمر الأعوام فيها كالبرق، صباح ومساء يتبع كل منهما الآخر، ثم تسقط سنة، العمل والربح ينسيان الإنسان نفسه، والغرام المتأجج العربيد الذي لا ينبت ثمرة، يجعل الأيام تكر كخيط طويل من بكرة كروية، يوم في البحر ويوم في العمل، ويوم في العشق، أقسى حياة هي حياة بلا هدف، يائس مهزوم مكسور القلب، من نفسه يمارس الانتقام، ويعجز أن يرى نور الرضا ليوم واحد، ليتنازل قليلا ويقبل بفتاة طيبة متواضعة ويبني بيتا ويثمر بنات وبنينا، لكنها (لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).

لا أدري كيف نمت بملابسي مفترشا الأرض، أردت احتساء فنجان بن فخرجت.أحب القاهرة في الليل، صار ميدان التحرير جنة عدن في الأرض، وقبلة للمعذبين والحالمين بالحرية والهواء العليل، تمشيت من محطتي في الميترو حتى وصلت مقهى زهرة البستان، جلست ملتصقا بالحائط كما تعودت دائما.

جَاءتْ تَتَهَادى في مِشْيَتِهَا، تَرتَدِي بنطلونَ جِينز أزرق ملتصق يَحتَضِنُ بِحَنانٍ سَاقيِهَا ويُظهرُهمَا كشجرتي مَوزٍ.

التي شِيرتْ الأبيضُ بأنصافِ الأكمامِ الزرق، يُظهرُ جَمالَ ذراعيها، ويَضيقُ بِرقةٍ ليُحاصرَ رُمَّاناً ناهضاً كحصانين ينتصبان على القوائمِ الخلفيةِ ويتجمدان عند تلك الوضعية، إنَّها نحيلةٌ جِداً لتحتَملَ صدراً

بهذا الحجم، شعُرتُ باستثارةٍ هائلةٍ واستحوذتْ الفتاةُ على انتباهي، طِلاءُ الأظافرِ الداكنِ يَتناغمُ مع طلاءِ شفتيها المائلِ للأسودِ، والكحلُ جَعلَ رُموشَ عَينيهَا كأنَّ كُلَّ رمشٍ ريشةُ عُصفورٍ، وتبدو بشرتُها ناعمةً ولونُها البرونزيُ يلمعُ كذهبٍ قديمٍ مطمورٍ في نهرٍ من النُحاسِ، وعندما أصْبَحتْ بجواري تماماً ونظرتُ في عينيها، اخترقتْ نسماتُ عطرها الفواحِ كلَّ مسامِ جلدي وزلزلتْ كياني.

قلت لنفسي إن سقوطي سيسبق سقوط حسني مبارك، وأن هذه الفتاة المراهقة ستقوم باحتلالي دون أن أظهر أي مقاومة، ولولا أنني جلست صدفة لشرب البن لتشككت أنها جاءت من أجلي.

(ارحل يعني امشي

هو انت ما بتفهمشي)

كانت الهتافات تتفجر في ميدان التحرير، ويدوي رجع صداها في قلبي فيخلعه من مكانه ثم يعيده حيث كان.

نظراتي التي تلتهمها في توحش وتتبع لاهث، أشعرتها بالسعادة والانتصار، جلست على الطاولة المجاورة، أنا الرجل الأخير في العالم الذي من الممكن أن يبدأ معها الحديث، أو يشير إليها، أو يقدم لها مشروبا، أنا لا أبادر أبدا. خيبة ثقيلة تداهمني.

تحدثتْ في الهاتف وهي تحاول بكل ثقة عبر صوتها الآسر أن تسقطني وتدخل أنفاسها إلي أعصابي.

لم أرفع عيني عنها ولما التقت الأعين للمرة الثالثة ولم أهرب من عينيها قالت: اجيب لك شوكة والا معلقة ؟

أردت القيام للجلوس بحوارها لكن لم أجرؤ، فقامت هي وجلست بجانبي.

- أنا مريم

- الله.. أنا بعشق الاسم ده.

- ها ها ... الاسم بس؟ اسمك ايه؟

- كامل

هكذا إذن أنا أجلس مع مراهقة في الثانوية، رغم أناقتها أحسست أنها فقيرة ومحرومة، نحيلة وفي عينيها انكسار وذلة، لكنني كنت أعرف بحدسي أن هذه المراهقة ابنة امرأة أعرفها.

صرنا نلتقي كل مساء في نفس المكان، وتبادلنا أرقام الهواتف، والواتساب والفيس، حاولت أن أتعرف عليها أكثر، لكنها ظلت محتفظة بخصوصياتها، ما أعرفه عنها أنها طالبة في مدرسة التجارة بنات وتعيش مع أمها وأخوتها الأربعة في منشية الصدر، أبوها غيبه حادث سير عن عالم الأحياء، تعمل بائعة في بوتيك ملابس بعد المدرسة، من العصر للعاشرة مساء، لكن البوتيك تعرض للنهب والتحطيم بعد أحداث يناير، وهي الآن بلا عمل.

تعلقت بها دون وعي أدمنت الحديث معها وصرت أتمناها بقوة، تعلقت هي الأخرى بي وكانت تقول لي أنها تشعر بحنان كبير يتدفق من قلبي تجاهها، وأنني أصبحت شيئاً مهماً جداً في حياتها.

من الصعب أن تخدع فتاة باسم الحب، لكن من السهل أن تخدعها باسم الزواج، رغم أنني في الثامنة والثلاثين كنت مندفعا تجاهها بكل قوة، وزالت الحواجز والمسافات بيننا في أيام قليلة، كنت أعرف أنها تشبه زينب، رغم فارق الجمال والأناقة ودلال بنات زمن الفيس بوك، لكن لم أحاول أن أتأكد من صدق حدسي، كنت أريدها وفقط، وأردت أن أمضي في طريق رغبتي مهما كانت المفاجآت التي تنتظرني في نهايته.

كنا نقضي بعض الوقت في ميدان التحرير، ونتمشى معا، كنت متلهفا لاحتضانها وتقبيلها، ولكن لم تأت الفرصة المناسبة لذلك، أنا أقيم في شقة بحلوان، مشروع المترو جعل البعيد قريبا وغير طبيعة الحياة في القاهرة.

كنا نتحدث حتى تفرغ بطارية هاتفي، وأنا أقاوم سحرها الرهيب بكل قوة، أنا أعشق هذه المراهقة، والعشق أعماني.

صحبتها مرتين لمسكني عبر قطار المترو وعدت معها، لتعرف أين أسكن، وفي اليوم الخامس اتفقنا على اللقاء، في الصباح الباكر،

انتظرتها في الشرفة وعندما غابت في مدخل العمارة، لم أحتمل صبر الانتظار ونزلت لأقابلها على السلم دون اهتمام بالمشكلات التي يمكن أن تحدث مع الجيران، دخلنا ولم أنتظر، وبينما تزلزلنا رعشة العشق والغرام، أعطتني ضوءً أخضر.

- أنا لست عذراء!

- وضعتُ رأسها في حضني كشيطان حنون وسألتها برقة، كيف حدث ذلك؟

- خطيبي سلطان.

- انخلع قلبي للصدفة العجيبة، اسم ابني الذي لا يعرفني، هل من الممكن أن يكون خطيبها هو ابني؟

- لماذا لم تتزوجا يا مريم؟

- لقد مات في حادث موتوسيكل.

- شعرت بطعنة في قلبي، لكن قلت لنفسي لا يمكن أن يكون سلطان ابني الذي تتحدث عنه مريم، تعكرت عيناي وارتجفت، رفعت وجهها وأخذتني لدنياها الملونة، وفقدت سيطرتي على نفسي.

مريم حسام، اسمك جميل يا مريم، وماما ؟

- زينب

صدق حدسي وكذبته رغبتي فيها وتركت نفسي لشيطانها.

سنتزوج. قلت لها مؤكدا قراري، لم تكن خائفة ولا متوترة بقدر سعادتها لوجودها معي، كنت أسألها دائما من أين تحصلين على هذه الثقة في شخصي ونحن لم نتعارف إلا من أسبوع؟

- قدرات

- لمضة أوي يا بت

- نتعلم منك يا بوب

- ماشي يا عسلية

- يلا بينا نخرج العصر قرب

- خليني جمبك

- بكرة تزهقي مني

- عمري ما أزهق منك أبدا يا حبيبي

- هاجي أطلب ايدك بكرة

- ما تيجي النهاردة

- أجي عشان خاطرك.

أوصلت مريم وذهبت لأشتري علبة حلويات فاخرة.

في الثامنة مساء اتصلت بي بصوت خافت وأخبرتني أن أمها تنتظر، وقالت لي: سأنتظرك في الشرفة لأراك وأنت قادم.

نزلت من التاكسي وتلفت لأتبين أين البيت، كانت مريم في الشرفة تشير لي بيدها، توجهت ناحية البيت، وابتسمت لها فرحا، لكني شعرت بفزع رهيب لأنني رأيت زينب، وأدركت لحظتها مدى الاستهتار والوقاحة والجرأة التي أعيش حياتي بها.

صعدت السلم ببطء وأنا أرتجف، وعندما فتحت لي أم مريم الباب، جف حلقي فجأة، وتجمدت على شفتي الكلمات، كانت زينب تحاول أن تبدو متماسكة ودعتني لغرفة الصالون، وطلبت من مريم أن تذهب لعمل قهوة مضبوط لي، دون أن تسألني أمامها قهوتك إيه.

- ازيك يا كامل، عاش مين شافك

- الله يسلمك يا زينب إيه الصدفة العجيبة دي؟كأنني اندهشت مثلها.

-سبحان الله ضعت مني زمان والنهاردة جاي تخطب بنتي! ما لقيتش غير بنتي تحبها؟! وجاي تخطبها؟!

كنت أنظر إليها صامتاً محطماً، مرت حياتي كلها أمام عيني.

كانت مشاعري مشوشة بين الفزع لعلاقتي القديمة بزينب وعلاقتي بابنتها الآن، الطريق المعوج الذي سلكته أدفع ضرائبه اليوم.

- عارف يا كامل بنتي لسه خارجة من أزمة نفسية شديدة، الجيران الجداد اللي جنبنا، كان عندهم ولد زي العسل، كان خطيب مريم، اللي في الصورة اللي جمبك دي.

التقطتُ بروازاً صغيراً فيه صورة لعريس وعروسه ، أحسست أنني أعرف وجه هذا الشاب الفقيد، لكن لا أتذكر أين رأيته.

أكملت زينب الحكاية وقالت:

عريس ابنتي مات هو وستة من أصحابه في حادثة موتوسيكل، كل ليلة يعملون سباقاً ومراهنات، الله يرحمه ويسامحه، ضيع البنت ومات، أمه كانت جارتنا وتركت الحي بعد الحادثة، كانت ملكة جمال المنطقة، اسمها تيسير، الله يسامحه على ما فعله في مريم، كان يحبها مثل روحه، الله يرحمه.

داهمتني الدموع، ارتفع صوت نواحي، صرت أرتعش وألطم وجهي، أغرس أظافري القصيرة في لحم وجهي فزعاً للخبر، فزعاً للقضاء والقدر.

أدركت أن الخطايا تتشابه، والمعلم واحد، والكائن الذي يجرنا للقاع مخلص لغوايته وقسمه القديم أمام الله.

كان التليفزيون مفتوحا في الصالة وصوت اللواء عمر سليمان يهدر كالرعد وهو يقرأ بيان التنحي نيابة عن رئيس الجمهورية

قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه.....

كان ضغطي ينخفض ورأسي يدور وعيناي تنغلقان ببطء، وجسدي متيبس كالحجر، ومريم تتهتك في مشيتها وهي تحمل صينية البن وتتجه نحوي في حيوية وفرحة ودلال، وأنا أتفرس في ملامحها وملامح عريسها الميت وملامحي في الطفولة.

خرجت للشرفة الواطئة ونظرت إلى السماء وأنا أحترق بالندم والحزن والانكسار، وأحدث نفسي لو أن الحياة عادت بي للوراء، لذلك اليوم في قلابشو، وتلك الأيام التي ملأتها باستهتاري وحماقاتي، أيمكن أن أختار هذا الواقع المرير المخزي الذي أعيشه اليوم.

لابد من حياة جديدة وطريق آخر. تماسكت ومشيت ببطء ناحية الباب دون أن أفتح فمي بكلمة وعيناي تمطران، رغم أن مريم لم تفهم ما يجري اندفعت خلفي وأمسكتني من يدي ونظرت في عيني وقالت لي: أنا لا أعرف ما الحكاية لكن رغم أي شيء من الممكن أن يكون قد حدث، لا شأن لي به، أنا أحبك وأريدك يا كامل.

خطأ في الإحداثيات

لا يُمكنُك أنْ تتزوجَ منْ فتاةٍ وضَعْت أمُّها لسانَها في فمك ذاتَ يومٍ، وتمضي حياتُك بسلامٍ، دون وقوعِ كارثةٍ، ربما يستطيعُ شيطانٌ خَرجَ من صُورته النارية لألطافٍ نُورانيةٍ، أن يدخلَ تجربةً كهذه، ليكون رجلاً ويدفع ثمناً باهظاً لخطيئةٍ، أنبتَتْ خطيئةً بعد خطيئةٍ، وسمح لنفسه أن يدخلَ تجربةً لن يخرجَ منها إلا كلوحِ زجاجٍ مُهشَّمٍ.

مرَّ شهرٌ بعد شهرٍ، جَفَّ العسلُ في الإناء، أو هزمني الملَلُ، صارت مَريمُ كطعامٍ ممضُوغٍ، وصارتْ كلماتُ وتلميحاتُ وتصرفاتُ أمها كحزمةٍ ديناميت، يكفي أن تتعرَّقَ لينفجرَ المكانُ، العشقُ القديمُ فَقَدَ قَدرته على الصبر، وزينبٌ الوحيدةُ الظامئةُ تُوشكُ أنْ تنفجَر في لحظةِ طيشٍ كذئبةٍ جائعةٍ وتُمزِّقُني، كانت تستعرضُ مفاتنها قائلةً: حماتك حلوةٌ وصغيرةٌ يا كامل.

كان الامتحان قاسياً، ولابد أن تخرجَ الشعرةُ من العجين.

***

دمياطُ رحيمةٌ رغم الوحدة والفشل وعودة الخائب، احتضنتُ مدينتي الحبيبة، خليةُ النحل التي كانت تطن ليلاً ونهاراً، غرقت في الصمت يوماً بعد يوم، يابان مصر تحولت ورشٌ كثيرةٌ بها إلى مقاهٍ ومحلات بقالة ومعارض سيارات، الأسواق العربية التي كانت تفتح آلاف البيوت في مدينتي وتضخ الرخاء في شرايين بلادي، أغلقت

أبوابها سوقاً بعد سوق، الربيعُ العربيُ أخرج أسواق العراق وسوريا والسعودية واليمن والسودان وليبيا من المعادلة، سعر طن الأخشاب ارتفع من ألفي جنيه إلى عشرة آلاف جنيه خلال عامين، الورش الصغيرة لم تصمد، نساءُ وبناتُ دمياط صِرن يسرحن كفتيات الحقول في الماضي لجمع دودة القطن، لكنهن صرن يتكدسن لانتظار أتوبيسات مصانع الملابس وضفائر أسلاك السيارات التي أقيمت في بورسعيد، زحف الفقر والعوز والعمل الكادح الذي لا يثمر شيئاً سوى الإرهاق والمعاناة والتعب واليأس، واسودت صفحات الحوادث في الجرائد الإليكترونية والورقية بأخبار الانتحار.

الفسادُ ينمو ويكبُر وحلمُ الحرية للشعوب الطيبة أشبه بهروب عجلٍ من الجزار أمام الحظيرة ليهرول هائجاً ليدخل المجزر بعمى البصيرة.

دمياطُ تموتُ ببطء، وأشياء جميلة عظيمة تموت أيضا، كانت تسمى أخلاقاً ذات يوم، الخذلانُ سيدُ الموقف اليوم، الثورةُ أسقطت رئيساً لكن بقي الموظفُ، بقى النظامُ المائلُ الأعوجُ، تذكرتُ محفوظ البدراني وكلمته العجيبة الممرورة، مصرُ محتلةٌ من خمسة ملايين موظف، أفقتُ من شرودي عندما لطمت قدمي موجةٌ لطيفة وأنا أجلس على شاطئ البحر ليلاً، لأرى صديقي أمامي.

- أستاذ محفوظ.. ناديته ووقفت لأرحب به.

- أهلا كامل والله زمان بتعمل ايه؟.

- تغيير جو، كنت في سيرتك مع نفسي والله، تفضل يا أستاذ محفوظ، واحشنا.. قهوة سادة والا...

- الله يسعدك، وانت كمان والله.. خليها يوسفي.

- أنا قرأت عن عبقرية سعد الدين الشاذلي وعن خطة المآذن العالية وكنت أحب أنْ أسمع منك تفاصيل أكتر، هذا البطل العظيم تعرض لظلم فادح وسرقوا الانتصار منه وتجاهلوه وأبعدوه.

- ما تزال مشغولاً بالحرب وذكرياتها يا كامل!

- فقط.. حباً في المعرفة وإدراك الحقيقة.

- هل تعرف أننا هاجمنا خط برليف بمئتي طائرة وقاذفة وكل المواقع والدشم الحصينة في سيناء، عندما علم حاييم برليف أن قواربنا المطاطية بدأت العبور قال:المصريون أرادوا الانتحار فليكن لهم ما أرادوا وانتظر أن تحترق قناة السويس بنا عندما يتدفق السائل الحارق من خزانات دشم خط برليف للمواسير المخفية تحت الماء لكننا كنا أغلقناها قبل الهجوم وأصابته صدمة مذهلة.

لقد كسرنا رقبة إسرائيل في ستة أيام، تماماً كما كسرت رقبتنا في ستة أيام، اليوم الثاني عشر من أكتوبر عام ١٩٧٣ كان اكتمال الانتصار الساحق على إسرائيل، ملأنا مدنها وبيوتها بالأرامل

واليتامى، وانهار موشي ديان وبكت جولدا مائير كما لم تبك في حياتها من قبل.

رغم الإخراج الجيد للفيلم الأمريكي في (الدفر سوار) وحصار الجيش الثالث لثلاثة أشهر الذي أخرجه هنري كسينجر، لتبدو إسرائيل منتصرة أو استعادت توازنها، والمحاولات المستميتة لاحتلال السويس أو الإسماعيلية ليبدو الأمر نصراً إسرائيليا كبيرا.

- بلا شك ستظل إسرائيل مدينة لكسينجر أكثر من تيودور هيرتزل أو بلفور، لولا كسينجر وإخلاصه لليهودية وتوجيهه للرئيس الأمريكي نيكسون ومد الجسر الجوي عبر المياه الدولية من أمريكا لإسرائيل والعريش لربما كانت إسرائيل غير موجودة اليوم بخريطتها الحالية، اللوبي اليهودي استخدم الأموال الهائلة لدعم إسرائيل بوجه مكشوف في تحد سافر للعالم كله لكن عبقرية كسينجر أنقذت إسرائيل وقامت الطائرة الحديثة SR71 بتصوير الجبهة وكشف الثغرة في (الدفر سوار) رغم أن قادتنا كانوا يعرفونها كنقطة ضعف وكثغرة قبل الحرب، وأعدوا خطة مواجهة ووضعوا عدة ألوية مدرعة غرب القناة، لكن للأسف تم تفتيت هذه القوات الاحتياطية وضم كل قائد لواء جزء من الاحتياطي لقواته المهاجمة في سيناء ووقعت الكارثة.

- أنت مهووس بالحرب وأسرارها وبالمعرفة والكتب يا كامل.

- عشقي للقراءة هوس قديم منذ الطفولة لا أجد له تفسيرا، لكنني أؤمن أن القراءة هي الديانة السرية للكاتب، لم تحدثني عن الأسرى أبدا.

- لقد سحقنا إسرائيل ومرغنا أنفها في وحل الدماء والهزيمة لكن فجأة توقفنا وبدأنا نحصل على أسرى. لقد استطعنا أن ننظر في وجوه جنود إسرائيليين دون أن نقتلهم. استطعنا أن نطعمهم ونسقيهم ونعاملهم معاملة حسنة، لقد تساءلت كثيراً بداخلي كل هذه الدماء وهؤلاء الشهداء وهذا الدمار من أجل ماذا؟

- ذكرتني بإجابة صلاح الدين الأيوبي على سؤال كهذا بخصوص القدس، قال القدس كل شيء.

- يعني أن هذه الحرب ستندلع ذات يوم لأجل القدس مرة أخرى وتتكرر الأحداث وتسفك الدماء وتترمل النساء ويحترق العالم.

- هذا أمر قابل للحدوث دائماً.

- ماذا يحدث لو لم يكن في العالم أماكن مقدسة يا كامل؟

- الحروب تشتعل على الثروات والنساء أغلب الأحيان.

- وإذا لم يبق في العالم ثروات ولا نساء جميلات يا كامل؟

- كانت الحروب ستقوم للمتعة والتسلية واستعراض القوة وقتل الضعفاء بدون ذنب وبدون فهم لرغبات القاتل.

- إذن الإنسان متوحش دائماً.

- ذرية قابيل لا يمكنها أن تترك العالم يعيش سلاماً ومحبة كما أن الشيطان لن يسمح بذلك.

- وأين الله تعالى من كل هذا الشر؟!

- الله جل شأنه لا يتدخل في أحداث الرواية الكونية التي كتبها بعلم وحكمة وبصيرة ليدخل العباد في التجارب وينظر من الذي سينجو من شر نفسه ورغباته وأطماعه وانحرافه.

- ألا يوجد أمل؟

- للأسف الشر الذي لا تصنعه ولا تشارك في إنتاجه سيضربك في بيتك كصاروخ توما هوك كروز يستهدف بيتاً آمناً بنسائه وأطفاله بسبب خطأ في الإحداثيات.

- متى سيصبح هذا العالم جميلا؟

- عندما يحترق.

- لا تتشاءم يا كامل.

- لست متشائماً لكن هذا العالم الدامي لن يكون جنة لأحد إلا للحظات خاطفة من عمر الزمن.

- دعنا نخطف لحظاتنا إذن.

- جميل هو البحر هذه الليلة، لا طائرات حربية ولا زوارق بحرية ولا قنابل كاشفة أتمنى أن يدوم ذلك للأبد.

- ليس هناك سوى مركب صغير لصياد فقير من عزبة البرج، يبدو أنه صنع شراعاً مُهترئاً من قماش الدعاية لمجلس الشعب المصري، مسكينٌ هذا الرجل لو خرجت الرياحٌ سيتحطم.

- الرياحُ العاتيةُ لا تُمزِّقُ الشراعَ المليء بالثقوبِ صديقي الحبيب محفوظ.

- الشيبُ جعلك حكيماً يا كامل.

- انظر إلى الشرق ظهر النورُ الأبيضُ، هذا غبشُ الفجر، يُولدُ النهارُ هناك قبل أنْ يتلألأ في الجهات الأخرى وشفقُ الصباح يشتعلُ ثم تندلعُ الشمسُ.

(طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة

يلا بنا نملا ونحلب لبن الجاموسة)

غنينا معا ومشينا على الشاطئ نركل نهايات الموجات بأقدامنا الحافية والشمس تتوهج بلطف والآلاف يندفعون إلى البحر، أوصلت صديقي لمسكنه رغم إلحاحي ليقبل أن يفطر معي، عُدتُ أترنحُ تحت أشعة الشمس الناعمة، رغم شروقها ما يزالُ زحامُ الليلِ قائماً وممتداً، وتزداد أعدادُ المصطافين الريفيين الذين يهبطون من

الأتوبيسات أفواجاً لقضاء يومٍ واحدٍ في رأس البر، من أول ضوء للنهار لآخر ضوء.

مشيتُ لفندق السلام، جلستُ على طاولة في كافيه الحديقة أمام الفندق، جاء مُدونُ الطلبات، اخترتُ سندويتشات خبز فينو بالشاورما مع الطحينة، ستجبرني هذه الوجبةُ على البقاء متيقظاً عدة ساعات، العازبُ كريشةٍ في الريح، تقودهُ خطاياهُ ويتلاعبُ طيشهُ به. لمحتْ عيناي في لحظة انتقالٍ خاطفةٍ بين الوجوه، وجهَ فتاةٍ فاتنة، ظننتُ أنها تيسير لشدة الشبه بينهما، كما تقولُ الأمثالُ فُولةٌ وانقسمت لنصفين، ويخلقُ اللهُ من الشبه الواحد أربعين وجهاً.

كانت تُطلقُ شعرها حراً، وترتدي تي شيرت أزرق ضيقاً وبنطلوناً أبيض، نظرتُ في عينيها وأطلتُ النظر، لم تُخجلها نظرتي الوقحةُ الجريئة، كأنها رفضتْ الاستسلام وخفض بصرها، لم أنتبه لنفسي وأنا أعضُّ على شفتي السفلى، وعندما عضتْ على شفتها هي الأخرى بشراسةٍ، شعرتُ بألمٍ في صدري، وضعتُ يدي وتحسستُ عضةً عمرُها عشرون عاماً، أخرجتُ رُزمة نقودٍ كبيرةً من جيبي، تعمدتُ أنْ أظُهرها أمامها ببطء، ناديتُ النادل، أعطيتهُ حسابه وبقشيش أفرحه شكرني عليه، طلبتُ فنجان بن مضبوط، تحججتُ أنني من الممكن أن أغادر المكان في أي لحظة، قال بلطفٍ: المكان مكانك يا باشا.

رفعت عينيَّ تجاهها وأنا أعيدُ النقود إلى جيبي، لاحظتُ وقوف رجلٍ عجوزٍ وراءها في الظل عند حافة الرصيف، تأملتهُ باستغراب، سرت قشعريرةٌ في بدني، كان يتكئُ على عصا تبدو مصنوعةً من ناب فيل، مُزينةً بحلقاتٍ ذهبية، عيناه ماكرتان كثعلب، كأنَّ فمه لا يحتوي إلا على أربعة أسنان، في إصبعه خاتمٌ بفصٍّ أحمر، ابتسمَ لي فزاد خوفي أكثر، همستُ لنفسي هذا الرجل موجودٌ في كل زمان ومكان!، لاحظتْ الفتاةُ أنَّ عينيّ تجمدتا على شيءٍ ما خلفها، استدارت بنصفها العلوي، نظرتْ حيثُ أنظرُ، بدا كأنها لم تر شيئاً، جفَّ حلقي، أدرتُ وجهي لمنضدتي ومددتُ يدي لأتناول زجاجة الماء، سبقتني يدُ رجلٍ قصير، بشرتهُ كالفحم، البياضُ في عينيه بدا لي كحلقتين للفناء، كأنه قام من الرمال، أفزعني مظهرهُ المرعب، شربَ زجاجة الماء المعدنية، وأشار لي بيده شاكراً ومضى، أزعجني أنه لم يستأذن، عدتُ بذاكرتي إلى كوخ تيسير وثقوب الباب وهروبي، نظرتُ تجاه العجوز مرةً أخرى فلم أره، كان الرجلُ الأسودُ قد سار ناحيته ببطء وعزم، نظرتُ يميناً وشمالاً، لا أثر للرجلين، أمسكتُ علبة سجائري، لاحظتُ أنَ زجاجة الماء كما هي مملوءةٌ ومغلقةٌ، أشعلتُ السيجارة، رفعتُ رأسي للسماء، بدتْ سحابةٌ بيضاءُ تتفرَّقُ وتتشكلُ، لويتُ عُنقي ونظرتُ، بدت لي كأنها سترسم وجه الله، نظرتُ في وجه الفتاة، أصبح وجهُها شديدَ الاصفرار، أنفُها كأنفِ خنزير، عيناها كعيني ذكر ماعز أسترالي، وبدا فمها كفم سمكة قرش، تبدَّلَ حالي وتعكرتُ، شعرتُ

أنني أختنقُ لوجودي في هذا المكان، وقفتُ وأنا أنظرُ إليها نظرة زاهد، وقفتُ لأغادر، نَمَتْ بداخلي رغبةٌ غريبةٌ للصلاة والبكاء، تجمهرَ الدمعُ في عينيَّ، نظرتُ لابتسامة الفتاة التي بدت بشعة وقبيحة، انصرفتُ وأنا أحدِّثُ نفسي، يا لها من أسنانٍ تبدو كأسنانِ آكلي لُحومِ البشر.

تنويه

أسماء الشخصيات العامة والقادة حقيقية، أسماء المحاربين القدماء حقيقية وبعضها معدلة بناء على رغبة أصحابها من مقاتلي حرب أكتوبر.

مصادر المعلومات الواردة في هذا الكتاب، محاربون قدماء.

مذكرات حرب أكتوبر ولقاءات متلفزة للفريق عبد الغني الجمسي

شهادات ومذكرات ولقاءات متلفزة للفريق سعد الدين الشاذلي.

كتاب ستة أيام من الحرب .ميشيل أورين.

شهادات حية متلفزة لضباط وجنود في الجيش المصري من مقاتلي نكسة يونيو والاستنزاف ونصر أكتوبر.